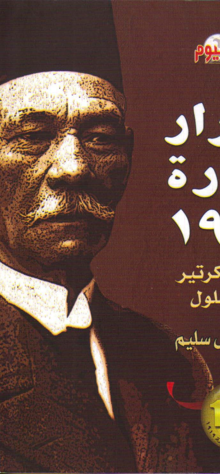
كتاب اليوم

أسرار ثورة ١٩١٩

يرويها سكرتير سعد زغلول



محمد كامل سليم

100
مائة عام على ثورة ١٩١٩

أسرار ثورة ١٩١٩

يرويها سكرتير سعد زغلول الخاص

محمــد كامل سليم

كتاب اليوم

هذا الكتاب

إعادة قراءة كتاب «ثورة ١٩١٩» كما عشتها وعرفتها للأستاذ محمد كامل سليم السكرتير الشخصى لسعد زغلول «عمل ثقافى دقيق» يكشف الكثير من أصالة الشعب المصرى الذى رفض الاحتلال البريطانى بكل استغلاله واستخفافه وطغيانه وهو يبين أهمية دراسة هذه المرحلة للاستفادة من قراءة التاريخ للأجيال الحالية والقادمة. وبداية شرارة الثورة التى بدأت قبل مائة عام وامتدت حتى الآن..

الحق يلزمه القوة والاستعداد لتحصينه والإنسان المصرى له كثير من المميزات مازالت فى طور الإعداد والتجويد لم تخرج إلى النور فهل لنا أن نضم هذه الفترة من تاريخ مصر إلى الفترات التالية وحتى فترة ٣٠/٢٥ لنضع تصوراً جديداً للإنسان المصرى وكيف يستطيع أن يتعامل مع الآخر وفق المعطيات الجديدة للعالم اليوم، مصر لن تتقدم إلا بتناغم المجتمع وأفراده وقراءة منصفة وموضوعية للتاريخ المصرى القديم والحديث دون محاباة ودون مغالاة وفتح النوافذ لتكون أحزاباً قوية وشريفة للتوازن المجتمعى، الفرصة دائماً مازالت موجودة طالما كانت هناك حياة وكان هناك شرفاء يحلمون ويعملون لصالح الوطن الذى يعيش فينا.

محمد أبو العنين

ابن اخت المؤلف

كتاب اليوم

أسسه مصطفى وعلى أمين ١٩٥١

رقم ٦٧٠

مارس ٢٠١٩

يصدر كل شهر عن

دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة - القاهرة

تليفون: ٢٥٩٤٨٢٢٣

تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الاخراج الفني والغلاف

طارق عبد العزيز

التحرير:

تامر عرفات

عمرو أبو السعود

للإعلان

٢٥٧٨٦١٣٧

٢٥٧٥٩٤٥٥

٢٥٨٠٦٢٠٦

٢٥٨٠٦٢٧٨

■ أسعار البيع خارج مصر

سوريا ٢٠٠ ليرة . لبنان ٥٥٠٠ ليرة . الأردن ٣ دينارات
الكويت ١,٢٥ دينار . السعودية ١٥ ريالاً . الامارات ١٣
درهمًا - البحرين ١,٢٠ دينار . سلطنة عمان ١,٥ ريال
- تونس ٥ دينارات . المغرب ٣٧ درهم . اليمن ٧١٥ ريالاً
- رام الله ٢,٧٥ دولار . غزة ٢,٥ دولار

■ الاشتراك السنوى

داخل مصر	١٨٠ جنيهًا	
الدول العربية	٢٩٠جنيهًا	٥٠ دولارًا
الدول الأوربية	٥٣٠جنيهًا	٩٥ دولارًا
أمريكا استراليا - نيوزلاندا	٦٥٠جنيهًا	٤٧ دولارًا

■ الموقع الالكترونى

http.ketabelyomakhbarelyom.co

■ البريد الالكترونى

kitabelyom@gmail.com

■ موقعنا على الفيس بوك

https://www.facebook.com/Ketabelyom

تخفيض ١٠٪ من قيمة الاشتراك لطلبة المدارس والجامعات المصرية



جملة مفيدة

بقلم: رئيس التحرير

عندما سألوا الدكتور مصطفى الفقى رئيس مكتبة الإسكندرية عن رأيه فى أهم الثورات التى قام بها المصريون خلال القرن الأخير قال وبدون أدنى تردد: ثورة ١٩. وعندما سأله المذيع النابه شريف منير:

أهم حتى من ثورة ٢٥ يناير؟

قال بالتأكيد ثورة ١٩ لأنها كانت معبرة عن كافة أطياف الشعب المصرى من مسلمين وأقباط، ومن رجال ونساء، وأعقبها تغيير جذرى فى الحياة الليبرالية المصرية وظهر الوفد كحزب قوي، دخل فى معارك سياسية حتى مع الملك، ناهيك عن الاستقلال وإن كان منقوصاً. أما فى حالة ٢٥ يناير فالوضع مختلف تماماً. انتهى كلام الدكتور مصطفى الفقى.

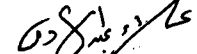
ما قامت به ثورة ١٩، تجاوز أثره المحيط المصرى وامتد إلى كل دول العالم الثالث، وكانت بمثابة النبراس لكثير من تجارب الدول فى حربها ضد الدول الاستعمارية.

الآن مرت مائة عام على أحداث هذه الثورة العظيمة، رأينا فى "كتاب اليوم" أنه لا يمكن أن تمر هذه الذكرى دون أن نسلط الضوء من جديد عليها.. وعلى أحداثها، وعلى ما قام به سعد باشا.

قد يقول قائل: ما حاجتنا لكل هذا؟

الإجابة: الحديث عن ثورة ١٩ كله دروس وعبر لمن يريد أن يبنى مصر المستقبل.

لم نجد أفضل من هذا الكتاب الذى خطه الأستاذ محمد كامل سليم السكرتير الشخصى لسعد باشا زغلول والسطور التالية كتبها ابن اخته ووريثه.



مقدمة

سكرتير سعد زغلول

بقلم: مصطفى أمين

تلقيت خطابا من الاستاذ محمد كامل سليم يقول فيه:

«عزيزى مصطفى أمين وعلى أمين»..

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما، يظنان كل الظن ألا تلاقيا.. وها نحن أولا نجتمع مرة أخرى فى رحاب الذكرى العطرة للزعيم الخالد سعد زغلول.

رأيتكما أول مرة طفلين صغيرين، والزعيم سعد يداعبكما، فى حديقته بمسجد وصيف، وأنا سكرتيره الخاص جالس معكم، أسمع، وأرى، وأستمتع فى جو البراءة والحب والحنان.

فى هذه الأوراق بيان لما فى رقبتى من دين نحو الزعيم سعد زغلول، ونحو بلادى مصر العزيزة. سجلت فى هذه الأوراق حقائق ووقائع لا ريب فيها، بكل أمانة وصدق.

والله يحفظكم ويرعاكم.

المخلص

محمد كامل سليم

قد عرفت سكرتير سعد زغلول وكاتم سره الاستاذ محمد كامل سليم فى عام ١٩٢١، منذ أكثر من ٥٤ عاما، كان شابا رقيقا أنيقا، يفيض نشاطا وحيوية. نحيف الجسم. طويل القامة. جم الأدب. الابتسامة لاتفارق شفتيه. يجد دائما كلمة حلوة يقولها للخادم وللزائر، للصغير والكبير. فلا تعرف أيهما العامل وأيهما الباشا. فهو لايميز فى ملاطفته للناس بين الطفل والوزير. يبدو وكأنه يحب الناس جميعا، ويرحب بهم جميعا، وينتظرهم جميعا. واذا امتلأت غرفة انتظار سعد زغلول بالزوار، طاف عليهم جميعا بكلمات حلوة. كأنها فناجين القهوة أو عصير الليمون!

وكنا يومها نقيم فى بيت الأمة مع سعد زغلول، أو نسافر معه إلى عزبته فى مسجد وصيف اذا شاء أن يعتكف ليستعد لهجوم وطنى جديد. وكان كامل سليم دائم التنقل بين غرفة السكرتير وغرفة الزعيم. وكان أكثر ما يذهلنا فى سعد زغلول فى طفولتنا انه كان فى الستين يعمل فى نشاط شاب فى العشرين. لايتوقف عن العمل وعن القراءة وعن الكتابة وعن إستقبال زعماء الثورة. وكان سعد يعمل فى كل وقت، اذا تناول غداءه حرص على أن يكون معه عدد من انصاره يتبادلون الحديث أثناء الطعام. واذا تناول عشاءه حرص أن يستبقى عددا من زعماء الثورة يتفق معهم على الخطط والقرارات. بل قد يعجب الناس انه كان اذا ذهب إلى دورة المياه صحب معه الصحف، يقرأها ويعلق عليها! وكان اذا انتهى من إعداد بيان قال لنا «هاتوا كامل» فنسرع إلى كامل سليم ونستدعيه ليملى سعد زغلول عليه قراره أو بيانه إلى الشعب. وكنا نلاحظ أن الزعيم يسأل كامل سليم بعد أن يمليه البيان رأيه فيه. فلم يكن يجد غضاضة وهو زعيم الأمة من أن يعرف رأى سكرتيره الشاب الصغير، ويستمع إلى ملاحظاته وأحيانا إلى نقده!

وعندما توفى سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ دخلت غرفة مكتبته فى بيت الأمة، ووجدت اثنين من موظفى مجلس النواب الذى كان سعد زغلول رئيسا له، يرتبان

المكتب، ووجدت فى «سبت الزبالة» بالمكتب عددا من الكشاكيل والكراسات الملقاة بلا اهتمام..

وسألت الموظفين عن هذه الكشاكيل، فقالوا انها كشاكيل بيضاء كانت ملقاة بين الكتب، ولا قيمة لها، وقد ألقياها فى سلة «الزبالة» حتى يجىء الخادم ويأخذها مع الاوراق التى لاقيمة لها.

وجلست فى المكتبة أقلب فى الكشاكيل والكراسات الخالية.. وذهلت بعد أن قلبت عشرين صفحة بيضاء عندما وجدت أن بعدها تبدأ مذكرات سعد زغلول!

ووجدت أن الكشكول ينتهى بعدد من الورق الأبيض الخالى من الكتابة..

وكنت أعرف طريقة سعد زغلول فى كتابة مذكراته، فقد كان يتوقع أن يفتش الانجليز بيته فى أى لحظة، ولذلك كان يتعمد أن يترك أوراقا بيضاء فى أول كل كراس وفى نهاية كل كراس، حتى اذا وقعت فى يد غريبة توهم أنه كراس أبيض غير مستعمل!

وهكذا كادت أهم مذكرات لزعيم مصرى فى القرن العشرين تضيع وتلقى فى سلة المهملات!

وحملت هذه الكراسات والكشاكيل إلى السيدة الجليلة صفية زغلول أم المصريين. وسلمتها المذكرات فطلبت من وصيفتها فريدا كابس أن ترقمها كلها. وكانت بين هذه الكراريس كراريس بامضاء محمد كامل سليم..

وخاصة الكراسة التى تحوى مذكرات سعد عن محادثاته مع ملنر فى سنة ١٩٢١ ومذكراته التى تحوى محادثاته مع رامزى ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٩٢٤ عندما كان سعد زغلول رئيسا لوزارة مصر.

وقد تخرج كامل سليم فى مدرسة المعلمين العليا، وبدأ حياته العملية مدرسا، فوكيلا فناظرا.

وفى سنة ١٩٢٠ أرسل سعد زغلول من باريس حيث كان يحاول عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح، أرسل إلى عبدالرحمن فهمى رئيس الجهاز السرى فى مصر، يطلب إليه اختيار شاب كفء يجيد العربية والانجليزية ليكون سكرتيرا خاصاً له فى باريس.

وكان اختيار شاب ليتولى مثل هذا المنصب الخطير الدقيق. وهو سكرتير زعيم الثورة، يحتاج إلى بحث وروية وفحص.. وخرج اعضاء الجهاز السرى واعوان عبدالرحمن فهمى يبحثون سرا عن شخص مؤتمن يمكن أن يقوم بهذا العمل الخطير.

وتقدموا بعدة أسماء..

وأختار عبدالرحمن فهمى، الشاب كامل سليم.. وعرض الاسم على سعد زغلول فى باريس فوافق عليه.

وعمل كامل سليم سكرتيرا خاصا لسعد زغلول مدة خمس سنوات ثم عينه رئيسا للادارة التشريعية بمجلس النواب، واختاره للسفر معه إلى لندن كسكرتير خاص عندما بدأت مفاوضاته مع ماكدونالد وأحق بعد استقالة وزارة سعد فى منصب سكرتير اللجنة المالية ثم سكرتيرا للنحاس باشا أثناء مفاوضاته مع هندرسون وتولى مهمة الترجمة بين الاثنين.

وبعد اقالة النحاس باشا وتولى اسماعيل صدقى رياسة الوزارة نقل كامل سليم ليشغل منصب سكرتير اللجنة المالية بوزارة المالية ثم سكرتيرا ماليا لوزارة التجارة ثم عين بعد ذلك مديرا عاما مساعدا لمصلحة المساحة ثم سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء وبقى فى هذا المنصب اثنى عشر عاما وعمل مع رؤساء الوزراء محمد محمود. على ماهر. حسن صبرى. حسين سرى. محمود فهمى النقراشى. ثم عاد إلى مجلس النواب كسكرتير عام له أثناء رياسة عبدالسلام فهمى جمعة للمجلس،

حتى اذا تولى أحمد ماهر رياسة الوزارة اعاده سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء.

وأذكر أنه فى عام ١٩٤٨ فكر فى الاستقالة من منصبه كسكرتير عام مجلس النواب، واقترح على الشمسى باشا رئيس مجلس ادارة الأهرام تعيينه رئيسا لتحرير الاهرام. وكانت خبرته وثقافته وعلاقاته الوثيقة بزعماء مصر واجادته اللغة العربية واللغة الانجليزية كل ذلك يؤهله لكى يكون رئيس تحرير جريدة يومية كبرى..

ولكنه فضل أن يبقى سكرتيرا عاما لمجلس النواب. إلى أن اختارته مصر ممثلا لها فى المجلس الاستشارى لليبيا الذى أشرف على تنفيذ قرار الأمم المتحدة الذى مهد لاستقلال ليبيا.

وكنت عضوا معه فى اللجنة التى اختارها وزير الارشاد لكتابة تاريخ ثورة ١٩١٩، وكان معنا فى هذه اللجنة الاستاذ محمود سليمان غنام وزير التجارة الأسبق..

وأذكر أن هذه اللجنة لم تجتمع سوى مرة أو مرتين، ثم بقيت أكثر من خمس عشرة سنة دون أن تدعى للانعقاد مرة واحدة!

وكنت أعرف أن كامل سليم كتب يومياته عن ثورة ١٩١٩ كما عاشها وعرفها ودرسها من أقرب مكان إلى قيادة الثورة، وهو مركز السكرتير الخاص لسعد زغلول زعيم الثورة!

وفكرت فى أن أطبع هذه المذكرات فى كتاب، وقالت مراكز القوى بأن الكتابة عن سعد زغلول من الممنوعات! وأن من الممكن نشر مثل هذا الكتاب اذا كان يقلل من قيمة سعد زغلول، أو يقول أنه ليس زعيم ثورة ١٩١٩!!!..

ثم حدث بعد ذلك أن بذلت محاولات للاستيلاء على مذكرات كامل سليم واخفائها!

وصدر قرار بالاستيلاء على مذكرات كامل سليم!

واتصل وكيل وزارة الارشاد بكامل سليم يطلب منه تنفيذ القرار وتسليم المذكرات!

وقال كامل سليم انه ليس عنده مذكرات، وانما لديه كتاب عن ثورة ١٩١٩ مستعد أن يقدمه للوزارة لتطبعه!

وطلب منه وكيل الوزارة أن ينتظر قرارا بالطبع!

ومرت سنوات وسنوات دون أن يصدر القرار..

وأخفى كامل سليم مذكراته فى مكان مجهول..

ثم جاء ٦ اكتوبر.. وأعلن أنور السادات عصر العبور إلى الحريات..

وخرجت مذكرات كامل سليم من الظلام إلى النور.

وهذا هو الجزء الأول.

مصطفى أمين

سعد زغلول كما عرفته

رجلاً وزعيماً وسياسياً

فى أوائل سنة ١٩٠٧، رأيت أول مرة فى حياتى سعد زغلول، وكان وزيرا للمعارف العمومية، وكنت تلميذا فى السنة الرابعة الابتدائية، زار رحمه الله المدرسة المحمدية، وعرج على الفرقة التى كنت فيها اثناء درس فى النحو. ساد الجو رهبة وروعة لم أشعر بمثلهما قبل ذلك، وبدأ على الشيخ المدرس ارتباك تجلى فى قوله: «الاسماء المركبة تركيبا مزجيا مثل حضرموت» وكتب الكلمة على السبورة. فقال له سعد باشا: «ألا تذكر كلمة غير هذه يا أستاذ». وابتسم رحمه الله وصار بين صفوف التلاميذ مخترقا الصف الأول والثانى، ووقف أمامى وقال: «أتستطيع أن تسمعنى شيئا من محفوظاتك يا شاطر؟». فقلت: شعرا أم نثرا؟ فقال: «أسمعنى ما تشاء». فقلت على الفور:

«حقا لقد انجز الاقبال وعده. ووافق الطالع سعده، وأن المجد بعده». وهنا قاطعنى سعد باشا مبتسما وقال «عفارم، كفى يابنى، هذا ذوق بديع وفأل حسن، وانى أرجو أن أراك فى المستقبل بعد أن تتم تعليمك العالى، فشاركته الرجاء ممزوجا بالدعاء.

وقد حققت الأيام رجاءه. واستجاب الله دعائى، اذ فى أواخر سنة ١٩١٩ وقع الاختيار السعيد على أن أكون سكرتيرا خاصا لسعد زغلول رئيس الوفد المصرى بباريس. وكنت قد فرغت من تعليمى الحالى منذ بضع سنوات. واشتغلت مدرسا فوكيلا لمدرسة ثانوية. وصلت إلى باريس ولم تمض ساعة واحدة حتى كنت أمام البناء الشامخ رقم ٣٩ شارع الشانزليزيه، حيث يسكن زعيم مصر، لم أتخذ المصعد لصعودي، وانما آثرت أن أستخدم قدمى إلى الدور الثالث، كمن يؤثر

الحج مشيا على الاقدام، أو ينذر الصوم فى غير شهر رمضان. هذه روحانيات لايفهمها كثيرون، بل لعلهم منها يسخرون.

وقفت أمام الباب المنشود هنيهة. ثم قرعت الجرس، ففتحت الباب خادمة فرنسية، فلما أخبرتها من أنا ومن أين أتيت وما مهمتى، أدخلتنى حجرة الانتظار، وانصرفت لتبلغ الزعيم فى مكتبه. ثم عادت على الفور تقودنى، وفتحت لى الباب وانصرفت، ووقفت لحظة أمام ذلك المحراب المهيب، حيث تسكن مصر العزيزة مركزة فى شخص سعد زغلول. هى لحظة أو لحظات لا أعرف على التحقيق مدتها، ولكنى أذكر منها شيئا واحدا. وهو أنها انقضت وأنا فى شبه غيبوبة من فرط الهيبة والاجلال لهذا الأسد الرابض داخل الغرفة وقد انجبته مصر بعد طول العقم وسوء الحال. دخلت وسلمت، فماذا رأيت؟ رأيت سعد زغلول نفسه للمرة الثانية فى حياتى جالسا ضخما كالطود الشامخ، وأن بدا على جسمه هزال المرض الشديد الذى لازمه أكثر من شهر من جراء البرد القارس الذى لايعرف لدغته النافذة إلا من أقام بباريس فى فصل الشتاء. ولم ينج رحمة الله من عقابيل مرض الربو إلا بعد شهر من وصولى. قبلت يده فتلقانى بالترحيب الكريم وأجلسنى إلى جانبه، ثم ناولنى فنجانا من الشاى الساخن، وسألنى أولا عن حالى وصحتى وسفرى وما لقيت فيه.

هذا وقد علمت فيما بعد أن تقريرا طيبا شاملا سبقنى من مصر إلى الزعيم كتبه عنى سكرتير الوفد العام. الرجل الهمام عبدالرحمن بك فهمى. وما كان أرق سعدا وما اكرمه حين تبسط معى فى الحديث عن الاسفار حتى أزال وحشتى وخفف علىَّ هيبة اللقاء. وهنا تجرأت فذكرته بلقائنا الأولى عام ١٩٠٧، وأشد ما كانت دهشتى اذ وجدته تهلل وانشرح وقال على الفور: «لم أنس ذلك قط. بل كثيرا ما كنت أروى الحادث كدليل فساد ذوق الاستاذ وحسن ذوق التلميذ، ما شاء الله، لقد تحقق رجائى وكبرت وأصبحت رجلا تجاهد مع المجاهدين»،

وشعرت بأن سعدا رحمه الله قد ازداد اقبالا على وثقة بى، فشعرت من ناحيتى بالسعادة التى لايدرك كنهها إلا من قابل سعدا فى أوقات سروره وساعات تجليه، ثم سألنى عن مصر وأحوالها، وذلك بعد أن استرحت واطمأن كل منا إلى مساعديه، فحدثته ساعة كاملة وهو يصغى فى جد وسكون متأثرا، لم ينبس خلالها بكلمة واحدة حتى انتهيت فى جو من الجد الخالص الذى لاخفة فيه ولامرح. وبعد هنيهة قال سعد: «الحمد لله كثيرا، فقد اطمأن قلبى على مصر وأهلها، كما لم يستطع أى تقرير أو رسالة ادخال هذه الطمأنينة على نفسى، ولقد جددت نشاطى وادهشتنى بلقائك وبيانك. ويمكنك ان تستريح غدا من وعثاء السفر، وتبحث لك عن مكان مناسب لسكنك يكون قريبا منى. ثم أحضر بعد غد لتشترك معنا فى شرف الجهاد».

كنت منهوك القوى قبل المقابلة من مشقة السفر برا وبحرا فى الشتاء. وانصرفت بعد المقابلة مجدد القوى والنشاط كمن أمضى شهرا كاملا فى الاستجمام فى جبال سويسرا الجميلة المنعشة. وفى صبيحة اليوم الموعود حضرت مبكرا للعمل إلى جانب سعد عملا دام حوالى خمس سنوات متصلة الحلقات.

سقت هذا الكلام الطويل لاكشف به عن قوة ذاكرة سعد فضلا عن انسانيته وحنوه حين يرى للانسانية والحنو موضعهما. ولأبين كذلك أن حادثا صغيراً كالذى حدث بينى وبين سعد سنة ١٩٠٧ كان له كل هذا الاثر البالغ فى نفس هذا الرجل العظيم فزادنى إلى نفسه قربا، وزاده فى نظرى جلالا.

سعد زغلول (الرجل)

عظيم الهامة يعلو رأسه صلع، جرىء القلب لم يطريقه بأس ولا هلع. رهيب الطلعة طويل القامة، تشعر بجانبه كأنك قزم أو طفل، فى صوته رنة عجيبة. وهى منطقة قوة ساحقة. وفى فمه فصاحة دافقة. وفى ذهنه سرعة نادرة.

فيشغلك كل ذلك عن نفسك، وعن التفكير الحر المستقل، وتشعر كذلك كأنك مقيد امامه بقيود متينة أدق من الخيط، من غير ضيق أو ضغط. رأيت بنفسى كثيرين يذهبون إليه مسلحين بالحجج التى حسبوها دامغة، والادلة التى ظنوها قاطعة وفى رؤوسهم أفكار بلغت عندهم مبلغ العقيدة التى لاتتزعزع، ورأيت سعد يناقشهم ويحاورهم، ويجادلهم ويدفعهم، ويوافقهم هنا ويعارضهم هناك، ثم اذا بعينيه تلتمعان ببريق عجيب ينفذ إلى قرارة نفوسهم، واذا بأكثر حججهم هباء ازاء حججه، واذا ببعض ما أعدوا من الأدلة قد تبخر من رؤوسهم فلم يدلوا به، واذا أنت معجب بالرجل الاعجاب كله، معجب بمقدرته الكلامية التى تعينه فى سهولة ويسر على التعبير عن أدق ما فى نفسه فى سحر وطلاوة، معجب بحججه المتماسكة عليك فى سرعة مدهشة. معجب بهزات رأسه وحركات يده، وضغطه على بعض الكلمات حين ينطقها، معجب بصراحته التى تصمق أحيانا، وتكشف الغامض دائما بما لايدع مجالا لشك أو تأويل. كل ذلك يشعرك أنك أمام شخصية فذة ممتازة لايسعك إلا أن تكبرها وتطيعها فى غبطة واجلال.

كنت أتناول الشاى مع سعد رحمه الله أكثر أيام الاسبوع حينما أقام وحينما انزل- فى باريس ولندرة وفيشى واكس لبيان وأنسى ورويات ومسجد وصيف ومينا هاوس وبيت الأمة. كثيرا جدا ما كان يحدثنى عن رأيه فى كل عضو من أعضاء الوفد وفى كل رجل يهمنى أن أعرف رأى سعد فيه. وكنت أدون فى مذكراتى الخاصة آراءه حال خروجى من حضرته أو عودتى إلى حجرتى.

سألته مرة عن رأيه فى عبدالعزيز فهمى، فقال: «ما رأيت رجلا مغرورا بنفسه فى تواضع، ولا خبيثا فى صالح، ولاعسوفا فى عادل ولاكذوبا فى صادق، ولا جبانا فى شجاع، ولامتقلبا فى ثبات، ولامرائيا فى صريح أكثر من هذا الرجل».

ثم سألته: «وما رأيك فى مصطفى النحاس وعدلى يكن ولطفى السيد؟» فقال:

الاول- مصطفى النحاس- رجل ذو قلب طيب. ومبدأ ثابت، يميل إلى

الثرثرة ولكنه خفيف الروح. به خفة ورعونة، يميل إلى الخيال، سريع الانفعال، ولكنه لايتغير بتغير الاحوال، وطنى مخلص وهو فقير مفلس، ذكى غاية الذكاء، وفىّ كل الوفاء، وله فى نفسى مكان خاص.

والثانى- عدلى يكن- رجل خبيث فى اخلاقه وتصرفاته ولا يفهم الوطنية كما نفهمها وهو عملى واقعى، يرى الممكن فيسعى إليه. والصعب فينصرف عنه، لايفهم المثل العليا ولايعرف التضحية كيف تكون، وهو أعجز عن أن يؤدى للحركة الوطنية خدمة قلمية أو لسانية، وبعده عنا خير من قربه.

والثالث- لطفى السيد- متواضع فى كبرياء، صالح فى خبث، قوى فى عجز، ماكر فى بساطة، قليل الكلام كثير التفكير، واسع الخيال بليغ القلم والبيان، متسامح فى متعصب وعنده فى نفسه أحسن رأى».

وسألته مرّة عن رأيه فى عباس العقاد. فقال:

أديب فحل، له قلم جبار، ورجولة كاملة، ووطنية صافية، واطلاع واسع: ما قرأت له بحثا أو رسالة فى جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الاعجاب، وهو لايعالج موضوعا الا أحاط به جملة وتفصيلا أحاطة لاتترك بعدها زيادة لمستزيد، وله أسلوب أدبى فريد».

وسألته عن رأيه فى عبدالقادر حمزة، فقال:

«صحفى مطبوع، يحمل فى اسلوبه الهادىء قوة عجيبة على الاقناع، فى جمال وابداع ولا أعرف لها مثيلا فى صحفى سواه، وله اسلوب هو السهل الممتنع الذى لايجاريه فيه انسان».

وكان سعد رحمه الله رجلا ناضجا كل النضج، مثقفا ثقافة عربية اسلامية أكثر منها غربية حديثة، وإن كان له من هذه النصيب الاوفر. ولقد بلغ من أمر ذلك النضج أنه كان ينمق الحكمة والكلمة الجامعة عبر سياق أحاديثه وكتاباته. ولاذكر بعض ما جمعته منه:

١- لا أمل على خلق نخفيه من محاولة التظاهر بما ينافيه.

٢- أعذر من غيرك ما تعذر من نفسك.

٣- قد يجنى على المرء اجتهاده، فرب انسان أدت شدة حرصه على التظاهر بما ليس فيه إلى انكشاف حاله.

٤- لاتتطلب عورات الناس، ولاتتصدى لكشف سوءاتهم، فما أنت بأبرئهم من العيوب، ولا بأخلاهم من العورات.

٥- أكثر خطأ الانسان آت من جهله قدر نفسه. ولذلك كان العارف بقدر نفسه فى رحمة من الله.

حضرت مرة جلسة من جلسات مجلس العموم البريطانى، فلفت نظرى فيها القصد فى الكلام وانعدام الجدل وقلة المناقشات. فعدت إلى سعد ووصفت له ما رأيت تفصيلا وسألته: «أيهما أكثر اقناعا: قلة الكلام أم كثرته؟» فأجاب سعد: «ان الاكثار من الكلام يبعده عن الاقناع، ولقد ظهر لى أن قلة الكلام انفع من كثرته لانه أبقى فى الذاكرة. وأثبت فى الناس، ويلزم المتكلم ان يراقب السامع، فلا فائدة من كلام المتكلم مع مثل السامع، ولا من التفاصيل الكثيرة لانها كثيرا ما تضلل وتتعب. وعلى المتكلم ان يتخير سامعه اذا استطاع، وهو كلما اعتمد على حسن نباهته وذكائه استماله إليه، وكلما استحسن منه ملاحظة ازداد اقبالا على فكرته. ومن الناس من يخالفك حتى فيما أنت متفق فيه معه، وذلك عنادا منه وحبا فى المخالفة».

سعد زغلول الزعيم

زعامة سعد زعامة قوية غاية القوة، عميقة غاية العمق فهو زعيم مطبوع، ولو حاول ألا يكون زعيما لاعجزه ذلك وأعياه.

وصلت إلى باريس قبيل الوقت الذى وصلت فيه لجنة ملنر إلى مصر. فلما أخفقت فى مهمتها. وهمت بالعودة إلى بلادها، أملى علىّ سعد نداء إلى الأمة المصرية أعده بنفسه، نداء قويا مؤثرا أسجله هنا لجماله وجلاله:

بنى وطنى الأعزاء:

« رجال منكم يرقبون عن بعد عملكم، وقلوبكم بأيديهم تتوثب اشفاقا عليكم مما تجدون فيما تغامرون، وتنظر لما تأتون فى هذه المحنة من آيات الاتحاد وجميل الصبر وما تدعون، فلة أنتم قد جلبتم الغمرة، وكشفتم المحنة، وأتيتم بها آية بينة أرت العالم فى مشارق الارض ومغاربها أن من اعوز الحديد والنار فحسبه الاخلاق، كانت أمضى سلاحا. وأشد افصاحا، وأبلغ انجاحا، تضافرتم على مقاطعة الطامعين، ومجانبة المغرورين، وثبتم فى هذا الصدام ثبات الكرام، وأنتم عزل، لا معين لكم إلا قوة يقينكم، ووضوح حقكم، والتزام الحد المشروع فى انظمة بلادكم. فارجعتم الخصم على عقبيه، غاضا من غلواكه عاضا على أنامل الندم، على ما رأى من تبدل الحال، وتصرم الآمال، وانطلقتم أقلام الكاتبين حتى فى بلاده، فانقلبت صحفهم معكم. من الزراية إلى الرعاية، ومن المخاشنة إلى المحاصنة، ومن زمجرة الترهيب إلى بأبأة الترغيب. فبارك الله فيكم، شفيتم أنفسنا من وجدها. وسكنتم قلوبنا من وجبها. ورقمتم لكم ولا عقابكم فى سجن الحرية ذكرا لايتدنى. ووضعتم فى بناء المجد حجرا لايبلى. وبرهنتم على انكم الابناء البررة لاولئك الاسلاف الخالدين. ألا لمثل هذا فليعمل العاملون. وفى سبيل الوطن ما لاقيتم وما أنتم ملاقون، وفى ذمة الله تلك الدماء الطاهرة التى أراقها بالظلم اعداء الحق، ألا فاصبروا وصابروا. فان الحق قديم ويبقى ابدا، والباطل حادث يحور هباء، ويذهب جفاء «ولتحيا مصر»!

زعامة سعد قامت على أسس متينة من الشخصية القوية وصفاء الوطنية والفصاحة الدافقة. والصراحة الساحقة. والحيوية الفياضة، والشعور الكامل بالواجب، والثقة البالغة بالنفس، وامتلاك ناصية اللغة، والمنطق المحكم، مع النضج المبكر.

اجتمع إلى سعد مع كل هذا قدرة عجيبة على قيادة الجماهير، وفهم تام

لعقلية الأمة. وادراك سام لأمانيهم فى الحياة، فاستطاع أن يؤثر فيه بمقدار ما أثرت فيه، شهدت ذلك بنفسى ودرسته عن كثب، فقد قضيت مع سعد فى صميم الريف، فى قرية مسجد وصيف، قرابة ثلاثة أشهر من صيف سنة ١٩٢١، وكانت الوعود تحج إليه أفرادا وجماعات كل يوم من غير انقطاع.

وكان سعد يخطبهم فى غير ملل أو تعب أو شكوى، وكانت خطبه بالعامية فى بعض الاحايين. ينزل إلى مستواهم فى أول الأمر، ثم ينهض بهم مدارجة إلى مستواه العالى فى التفكير والشعور والنظر إلى الاشياء.

وقد مرت بسعد، وهو زعيم، أزمات حادة أقضت مضجعه. ولاذكر على سبيل المثال ما حدث له أيام وزارة زيور باشا التى ألفت عقب مقتل السرداور. فقد ساد البلاد جو خانق كجو الأحكام العرفية، وقبض على الابرياء وزجوا إلى السجون لاتفه الشبهات. وفى طليعتهم الدكتور ماهر والاستاذ النقراشى. وكان سعد يحبهما، ويثق بهما، أخلص حب وأكمل ثقة، وحزن لصحبتهما أشد الحزن. وأخذ كثيرون من انصاره ينفضون من حوله، أو ينقطعون من زيارته فدخلت على سعد يوم ٢٠ يوليه سنة١٩٢٥، وهو فى هذه الحالة النفسية التعسة، ووجدته وحده فى مكتبه الداخلى فى بيت الأمة يطالع كتاباً، ولن أنسى ما حييت ما لاحظت عليه من الحزن الاسود والالم الاثيم. سألنى عن الحالة العامة فعلمته بما أعرف. وتعمدت أن أشحن حديثى ما يدعو إلى الأمل والتفاؤل، حتى ادخل على قلبه الكبير شيئاً من الطمأنينة والسكينة، فابتسم ابتسامة فاترة كانت هى الالم أدل منها على أى شىء آخر، وقال: :اسمع يا كامل! لقد ألم بالناس هزال شديد، وهو أشد لدى من كانوا أكثر الناس حماسة وأشدهم غيرة، ومن بقى معى منهم موجودون إما حياء أو تورطا، وإما لعدم وجود وسيلة أخرى. وهى مصيبة ليس لها إلا ربك، ثم قرأ لى رحمه الله ما كتبه فى مذكراته الخاصة فى هذا اليوم، فلم أمر سوادا فى كل ما كتب سعد باشا أشد حلكة مما كتبه فى ذلك اليوم.

على أن لسعد ايمانا بالله لم يتزعزع فى وقت من الاوقات، لقد حزن سعد قبل ذلك أشد الحزن عندما سجن عبدالرحمن بك فهمى سكرتير الوفد فى مصر. وقال لى فى حسرة وكمد: «هذا رجل وطنى عظيم ونافع ونشيط. ولن يستطيع أحد أن يملأ مكانه فى لجنة الوفد. ويسد الفراغ الذى كان يشغله، لا فرد ولا لجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله».

وحزن كذلك عندما ألفت الوزارة العدلية، وأخذ الناس ينصحونه بتأييدها مما لا حاجة إلى تفصيله فى هذا المقام.

وحزن سعد قبل ذلك عندما عرض المعارضون مشروع ملنر فى مصر بطريقة كانت إلى التحبيذ والتأييد أقرب منها إلى الشرح والبيان. ففى يوم ١٠ يناير سنة١٩٢١ قرأ علىّ سعد ما كتبه فى مذكراته الخاصة ذلك اليوم، فسألته أن انقل منها الجملة الاتية لأنى أعجبت بروحها وأسلوبها، وأردت أن أضعها فى مذكراتى الخاصة، فقبل رحمه الله وأملى علىّ بنفسه هذه الجملة وهذا نصها:

«هل أصاب الأمة هزال جعلها ترضى بما كانت ترفضه، وتقبل هذه الحماية بعد ان تشبعت بروح الاستقلال. إننى لن اهبط مع الهابطين. وأدعو إلى الحماية بعد ان كانت رسول الاستقلال. لان يتركك قومك خير من أن تتركهم، ولان نبقى وهم ينزلون خير للأمة من أن تنزل مع النازلين. ولأن يقال تخلى عنه قومه خير من أن إليه فغدر بهم واءتمنوه فخانهم. واذا عجزت الآن عن العمل على كل حال خير من الغدر».

حزن سعد كثيرا ولكنه لم ييأس قط. وكان الاظلام الذى يعلوه كسحابة صيفاً لاتلبث أن تنقشع، وذلك لشدة ايمانه بالله وقوة ثقته بنفسه واعتداده بها.

ولقد سمعته مرارا وتكرارا يقول:

«أعتقد اعتقادا تاما أن الله العادل لايريد بى إلا كل خير. فقد اخرجنى دائما من أحرج المواقف، وهو يوفقنى دائما إلى ما فيه المصلحة العامة».

هذا هو سعد الزعيم المفرد والعلم، ايمان بالله، وشخصية فذة واضحة الحدود. ووطنية رفيعة، وشجاعة نادرة، وإرادة صلبة لاتلين، ولا تستكين. وأسلوب بليغ لا يعادل جمله إلا قوته، ولايفوق بلاغته إلا سمو الشعور الفياض الذى يستمد منه هذا البيان. ويستمد منه هذا الإيمان.

سعد زغلول (السياسى)

كان سعد كما بينت رجلا كامل الرجولة، وكان زعيما مطبوعا، ولكنه كان سياسيا مصنوعا، ولسعد العذر كل العذر، فللزعامة صفات ومواهب، وللدبلوماسية التزامات ومواهب، وشتان بين هذه وتلك.

الزعيم رجل الشعب، والدبلوماسى (أى المحترف السياسة احترافا لا تعشقا) هو رجل «الصالونات»، وحل المشكلات، بالمفاوضات.

والزعامة أخلاق وإرادة ومقاومة، والسياسة مداراة وملاينة ومساومة. الزعامة صلابة ومثابرة وثبات والسياسة مرونة ومناورة وتقلبات.

والزعامة مبادىء وعهود تبرم فلا تنقض، السياسة انتهاز للفرص، ووعود تبرم ثم تنقضى.

والزعامةخطابة واثارة وصراحة، وعمل صخاب فى وضح النهار، والسياسة مفاوضة، وتسكين وتكتم، وعمل هادىء وراء الابواب.

والزعامة جد لا هزل فيه ولا مجاملات، والسياسة جد وهزل ومجاملة ممتزجات.

والزعيم يخدم الحق، أو ما يعتقده حقا، والحق دائم لايتغير بتغير الاوقات، والسياسى يخدم المصلحة، أو ما يظنه مصلحة، والمصلحة وقتية تتغير بتغير الاحوال والمناسبات.

والزعيم يكره المعارضة ولايحتملها إلا على مضض وفى ألم، والسياسى يقبل المعارضة وينتظرها ويتلقاها من غير ملل أو برم.

من يخالف الزعيم يتعرض لغضبه أو حقده ويستحق فى نظره الاقصاء أو الاعدام. لانه يعتبره متمردا أو مارقا أو خائنا. ومن يخالف السياسى يتعرض لابتسامته، ويعتبره حرا فى وجهة نظره، فيقابله ويجالسه ويلاعبه فى الأندية من غير حرج.

هذه صفات الزعامة والزعماء، وهذه صفات السياسة والسياسيين. وكانت صفات الزعامة كلها من مقومات سعد مائة فى المائة.

فهل كنت تنتظر منه أن يجمع بين النقيضين، ويمتص جسمه روحين مختلفين ويكون زعيماً وسياسيا فى وقت معا.

أنت اذن تكلف الطبيعة شططا وتطمع منها بالمحال.

كان سعد رحمه الله يفهم السياسة على أنها قضية من القضايا، تحل على أسس من الحق والعدل، وكان سلاحه الماضى، بل سلاحه الوحيد فى حلها، الصراحة والمنطق، فصاحب الحق فى نظره يجب أن يأخذ حقه كاملا، وغاصب الحق يجب أن يرده إلى صاحبه غير منقوص، هذا جميل، بل بديع، ولكنه فهم الزعماء للسياسة، لافهم السياسيين. ذلك لان السياسى لايعرف شيئاً كاملا، ولايتصور شيئا غير منقوص، وحسابه كله قائم على المحادثات، فالمفاوضات، فالمساومات لحل المشكلات.

فالسياسة والحالة هذه أخذ وعطاء، وأما الزعامة فأخذ من غير عطاء، ومهما يكن من أمر فإن من حسن حظ القضية المصرية وهى فى أول أدوارها وأوائل أطوارها أنها فهمت هذا الفهم وعولجت على هذا الوضع، حتى نضجت وأزهرت، وأينعت ثم أثمرت، كما نضج المصريون بعد أن اكتووا بنار الجهاد، وانصهروا فى أتونه، وأصيبوا بالحرمان فى أرزاقهم وأموالهم، وبالاذى فى عواطفهم وأرواحهم، ثم خرجوا إلى الاستقلال وهم أصفى ما يكونون معدنا، وأعمق شعوراً، وأكثر نضجا، وأوسع أفقا من ذى قبل.

وسعد بذكائه العجيب، ومنطقه المرهوب، وعقله الموهوب، كان يدرك ذلك كله فى صميم نفسه، ولكنه لم يرد بل لم يستطع أن ينقلب سياسيا من طراز الدبلوماسيين. وهل يستطيع السياسى من هذا الطراز أن ينقلب زعيما بمجرد الرغبة أو الاشتهاء، وأنف الطبيعة فى الرغام؟ كلا، ثم كلا.

على أنى أعتقد اعتقادا جازما أن سعدا لو خير فى هذا الانقلاب ما اختاره، ذلك لانه كان يؤمن ايمانا عميقا أن الحق هو القانون الازلى للمعاملات بين الناس، حتى جاء السياسى مدفوعا بالنعرة القومية أو المطامع الاستعمارية، وخرج على هذا القانون الازلى. فوجب أن ترده بالقوة ان كنت قويا، أو تجادله بالحق المتين، والبرهان الرصين، والمنطق المحرج ان كنت ضعيفا.

حسب سعد نجاحا فى ميدان السياسة أنه استطاع قبل أن ينتقل إلى جوار ربه أن يشهد ثمرة سعيه الحكيم، فقد شهد قلوبا مؤتلفة، وصفوفا متحدة. واهواء راقدة، وأحقادا خامدة.. وأحزابا مترضية. وكان على رأس البلاد وزارة ائتلافية أو وزارة اندماج كما يصفها رحمه الله.

وحسبه فخارا أن كان هو على رأس مجلس النواب، مجتمع ممثلى الأمة المختارين. فكان بذلك فى مركزه الطبيعى الأصيل. من الزعامة والقيادة والهداية، وعاد المصريون بفضل الوطنية، وفضله فى الوطن اخوانا، وفى العمل اعوانا،

أحسن الله عزاء الأمة عن فقيدها الغالى.

وأحيا بين ابنائها مثله العالى.

محمد كامل سليم

الفصل الأول

قيام الحرب العالمية الأولى



فى ٢٨ من يوليو عام ١٩١٤ بدأت الحرب العالمية الاولى باعلان النمسا الحرب على الصرب وذلك بمناسبة اغتيال ولى عهد النمسا وزوجته فى مدينة سيراجيفو بيد أحد الارهابيين من أبناء الصرب فتأزمت العلاقات بين حلفاء الدولتين إلى الدرجة القصوى وتكهرب الموقف الدولى فى جميع أنحاء أوربا، ولم تمض أيام قلائل حتى تدافعت الاحداث الجسام وتلاحقت فى سرعة مذهلة.

فقد أعلنت روسيا الحرب على النمسا (انتصارا للصرب).

فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا (انتصارا للنمسا).

فأعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا والنمسا (لمساعدة روسيا).

وفى ٤ من اغسطس دخلت بريطانيا الحرب إلى جانب فرنسا وروسيا والصرب ضد ألمانيا والنمسا. ثم انضمت اليابان فايطاليا إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا والنمسا.

وفى ٥ من نوفمبر دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان وايطاليا.

وفى ٦ من نوفمبر أسرعت بريطانيا إلى اعلان الاحكام العرفية على مصر كلها مع فرض الرقابة الشديدة على جميع الصحف والمجلات والمراسلات البريدية والبرقية.

ونزل الجنود الانجليز إلى الشوارع والميادين لنشر جو من الارهاب، وشل كل حركة للشعب الساخط.

و فى ١٨ من ديسمبر أعلنت بريطانيا الحماية البريطانية على مصر، وسأفصل كل ذلك تفصيلا فيما بعد.

وفى خلال تلك الفترة اتسع نطاق الحرب، فدخلت دول عديدة إلى جانب بريطانيا وفرنسا وروسيا: أخص بالذكر منها بلجيكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا والهند. وبهذا تحولت الحرب إلى حرب عالمية لم يسبق لها مثيل لاسيما بعد أن انضمت الولايات المتحدة فى ٢ من ابريل ١٩١٧ إلى جانب الحلفاء ضد الدول الثلاث ألمانيا والنمسا وتركيا وبهذا رجحت كفة الحلفاء رجحانا عظيما وسريعا..

ومع ذلك ظلت رحى الحرب دائرة إلى أن عقدت الهدنة فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وأعلن النصر للحلفاء.

والآن أبين ظروف الواقع فى مصر وتطورات الاحداث بشيء من التفصيل أو بعبارة أدق وأكثر تحديدا، أبين ماذا فعلت بريطانيا بمصر أثناء هذه الحرب العالمية الاولى مما أدى إلى قيام الثورة المصرية المعروفة بثورة ١٩١٩ لكى تبرز الصورة واضحة للعالم فى اطارها الطبيعى الظاهر الحدود نتناول الاجابة والبيان فى النواحى الخمس الآتية:

الأولى: مركز مصر من الناحية الدولية.

الثانية: مركز مصر من الناحية الواقعية.

الثالثة: أهداف الاستعمار البريطانى فى مصر.

الرابعة: سلوك بريطانيا وتصرفاتها فى مصر قبل دخول تركيا الحرب.

الخامسة: سلوك بريطانيا وأفاعيلها فى مصر بعد دخول تركيا الحرب.

مركز مصر من الناحية الدولية

١ - مصر دولة مستقلة:

منذ عام ١٨٤٠ إلى منتصف عام ١٨٨٢ كانت مصر عمليا دولة مستقلة بإعتراف الدول التى أقرت هذا الاستقلال وسجلته فى معاهدة دولية هى: «معاهدة لندن المبرمة فى عام ١٨٤٠» فكانت مصر طوال ٤٢ عاما تدير شئونها بنفسها من غير أى تدخل من أية دولة أجنبية ولم يكن على هذا الاستقلال إلا قيد واحد هو قيد السيادة العثمانية، وهو قيد لم يكن فى الحقيقة بذى بال، ومع ذلك ظلت هذه السيادة تضعف وتتراخى وتتضاءل وتنكمش، ولم تكن فى الواقع إلا تسمية خفيفة الظل إلى أقصى حد ومظهرها الوحيد مبلغ من المال تدفعه الحكومة المصرية إلى الحكومة التركية سنويا وقدره ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية ولا شىء غير ذلك.

مركز مصر من الناحية الواقعية

٢ - مصر دولة محتلة:

مستقلة قانونا ونظريا وتحت حماية بريطانيا مقنعة فعلا وواقعا.

ففى ١١ من يوليو عام ١٨٨٢ اعتدت بريطانيا على مصر اعتداء عسكريا ودمرت مدينة الاسكندرية بقنابل أسطولها، وبدأت عمليات الزحف والمعارك الحربية التى انتهت باحتلالها لجميع الأراضى المصرية بعد انتصارها على زعيم مصر أحمد عرابى الذى استسلم فى النهاية، وكان لهذا الاعتداء المسلح أسباب بعضها مستور وبعضها منشور، أما الاسباب الحقيقية المستورة فهى شهوة الاستعمار البريطانى وظروفه ورغبته فى الاستيلاء على مركز جغرافى استراتيجى من الطراز الاول والاستمتاع بما فى مصر من خبرات وموارد وثروات.

أما الاسباب الزائفة المنشورة فهى الرغبة فى توطيد عرش الخديو بقمع الثورة العرابية والمحافظة على أرواح الاجانب وسلامة ممتلكاتهم واعادة الامن

والنظام إلى نصابهما، هذا وقد أعلن فى أول يوم انه احتلال مؤقت ينتهى بانتهاء تحقيق الاهداف التى ذكرناها، ولكنه اعلان زائف قام على الخداع، وذر الرماد فى العيون كما سنثبت ذلك بالقرائن والادلة الحاسمة التى تسجل أن الانجليز كانوا يبطنون غير ما يعلنون، ويفعلون غير ما يقولون، وكانت كل أعمالهم وتصرفاتهم، تنطق بعزمهم على البقاء والاستقرار ودوام الاحتلال ولا تنم عن أقل رغبة فى انهاء الاحتلال وقرب الجلاء.

وفيما يلى بيان موجز لسيرتهم وتصرفاتهم وأفاعيلهم؟

(١) لم تمض خمسة أيام من دخولهم القاهرة محتلين حتى أزالوا الجيش المصرى من الوجود، اذ استصدروا مرسوما من الخديو توفيق بحله وإلغائه وتشريد جنوده وضباطه إلى قراهم، وتجريد معظم ضباطه من رتبهم العسكرية وحرمانهم من كل حق فى المعاش.

(٢) ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمت محاكمة عرابى وأصحابه وتم نفيهم من مصر إلى جزيرة سيلان فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٨٢، ثم بدىء فى إنشاء جيش مصرى جديد صغير وعلى رأسه ضابط من الانجليز وعدد قليل من الضباط المصريين. ثم بدأت عمليات السيطرة على أوسع نطاق، على قوات البوليس والأمن فى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد، وذلك بتعيين حكمدارين وعدد كبير من المفسدين والضباط البريطانيين وانشاء مكاتب للمخابرات- أى التجسس- كما تمت فى هذه الفترة الوجيزة، سلسلة من الادعاءات الخطيرة، فالغيت البحرية المصرية، وجميع المصانع والصناعات الحربية، كما ألغيت كل القوانين الخاصة بالاصلاحات العسكرية التى سبق أن طالب بها العرابيون فى إلحاح وأصرار حتى حصلوا عليها، ثم ألغى مجلس النواب وانتهى الحكم الديمقراطى فى مصر. ولم يكتف الانجليز بهذا كله فى خلال ما سموه «بالاحتلال المؤقت» بل اتجهت نياتهم وبرزت جهودهم نحو تغيير نظام الحكم فى البلاد وإنشاء نظام جديد يمكنهم

من دوام السيطرة عليه وعلى الاداة الحكومية بحذافيرها، فأسرعوا بتعيين مستشارين بريطانيين فى جميع الوزارات وتعيين عدد كبير جدا من الموظفين الانجليز فى كل المصالح والادارات الحكومية فى جميع الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية وذلك للاشراف على سير الامور يوميا وفق ارادتهم وأهوائهم.

(٣) وفى الشهر الرابع من الاحتلال شعرت بريطانيا بأن الدول ولاسيما تركيا وفرنسا بدأتا ترتابان فى نياتها وتتوجسان خيفة من تصرفاتها فخشيت العاقبة، وهنا سارع وزير الخارجية البريطانية لورد جرنفيل إلى ارسال برقية إلى الدول فى ٢ من يناير ١٨٨٢ هذا نصها:

«أنه وان كانت القوات البريطانية مازالت باقية فى مصر حتى الآن لصيانة النظام العام فإن حكومة جلالة الملكة تنوى سحبها عندما تسمح بذلك حالة البلاد وتسمح بوسائلها الخاصة تثبيت سلطة الخديو.. وإلى أن يحين ذلك الوقت فإن مركز حكومة جلالة الملكة بازاء سموه يقضى عليها ببذل «نصائح» لتتأكد من أن النظام الذى سيوجد يكون مرضيا ويحتوى على عناصر الاستقرار».

«ونصائح» هنا كلمة ناعمة جدا فى العرف الدبلوماسى البريطانى، ومعناها فى الحقيقة والواقع «أوامر ملزمة لابد من قبولها وتنفيذها» والدليل على ذلك برقيته الثانية التى بعث بها هذه المرة إلى ممثل بريطانيا فى مصر حين رفض شريف باشا رئيس الوزارة المصرية النصيحة البريطانية «التى تهدف وتقضى باخلاء السودان» أى بسحب جميع القوات العسكرية المصرية من جميع نواحى السودان وكان عددها حوالى ٢٥ ألف جندى كاملى العدة والسلاح وترحيل جميع الموظفين المصريين والأجانب وإعادتهم جميعا إلى مصر.

وهذه البرقية تكشف بغير مواربة أو تحفظ النيات البريطانية فى اخضاع الحكومة المصرية لمشيئتهم وتنفيذ كل رغباتهم ومصالحهم وأوامرهم، وفيما يلى أهم ما ورد فيها:

«مادام الاحتلال البريطانى المؤقت موجودا فى مصر فإن من الواجب أن تتأكد الحكومة البريطانية من قبول نصائحها فى المسائل الهامة التى تستهدف بها ادارة مصر وسلامتها من الخطر. هذا ويجب على الوزراء المصريين والمديرين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة على كاهل الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التى تراها- ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لايسير وفقاً لهذه السياسة،وأن الحكومة البريطانية لواثقة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين سواء ممن شغلوا منصب الوزارة من قبل، أو شغلوا مناصب أقل درجة، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى يصدرها إليهم الخديو بناء على نصيحة الحكومة البريطانية».

وهنا ظهر أثر هذه البرقية فورا.. فاستقال شريف باشا من رئاسة الوزارة، وتولى الرياسة مكانه نوبار باشا الذى أصدر الأمر فورا باخلاء السودان.

(٤) ولم يمض عام واحد على الاحتلال حتى تمت للمحتلين السيطرة الكاملة الشاملة على الجيش والبوليس وجميع الوزارات وجميع المصالح الحكومية لا فى القاهرة والاسكندرية وحدهما بل فى جميع المديريات فى انحاء البلاد، واستقر الأمن والنظام وتوطد عرش الخديو وزالت جميع الاسباب الظاهرة والمستورة التى زعموها وادعوا بأنها أهدافهم من هذا الاحتلال.

فأين الجلاء..؟

ولماذا يظل الاحتلال البريطانى قائما فى البلاد..؟

ماذا بقى لهم من الاهداف والتعلات؟ لاشىء، ولكن من عادة المستعمرين أن يخدروا ضحاياهم بالوعود الكاذبة وزخارف الاباطيل وهم على نية الحنث بها من اللحظة الأولى.

(٥) مضى عام وثان والاحتلال البريطانى جاثم على صدر البلاد يبسط

سلطانه ويشدد قبضته على كل مرفق من المرافق العامة ويوغل ويتغلغل فى كل اتجاه ويسيطر على كل ناحية ويملى ارادته على كل كبير فى البلاد.

وظلت مصر تترنح تحت الضربات المتلاحقة حتى فقد المصريون قوتهم المعنوية فى تلك الحقبة السوداء التى عانوا فيها سلسلة من الهزائم وخيبة الأمل، رأوا زعماءهم ما بين منفى وسجين، وراوا أعداءهم وفى أيديهم كل الأمر والنهى والسلطان ولامعين.. وكانت الدول تنظر وتعجب ولاتتحرك، وكانت فرنسا وحدها ومن ورائها تركيا المتخاذلة تراقب فى كمد وتنتظر من بريطانيا تحديد تاريخ معين لاتمام هذا الجلاء المؤقت الموعود.

(٦) وأخيرا بدأ العام الثالث من عمر الاحتلال وبدأ معه شعور الحكومة البريطانية بأن مركز بريطانيا فى مصر أصبح غير معقول ولامقبول وأنه طال أكثر مما يجوز حتى فى الخيال لاسيما وقد وصل إلى علمها أن بعض الدول الاوربية أخذت تتشاور وأن الحكومة الفرنسية أوعزت إلى سلطان تركيا أن يقدم احتجاجا على استمرار الاحتلال البريطانى فى مصر وأن الحكومة الفرنسية نفسها قد وعدته بالتأييد والمساندة. فأسرعت الحكومة البريطانية إلى ارسال سير هنرى ارمندولف إلى الاستانة فى شهر أغسطس من عام ١٨٨٥ لمفاوضة الحكومة التركية فى مسألة انهاء الاحتلال، وبعد شهرين اثنين من اتصالاته بالمسئولين فى الحكومة التركية وضع مشروع اتفاق فى ٢٤ من أكتوبر ويتضمن:

أولا: تعيين مندوب بريطانى ومندوب تركى ليسافرا إلى مصر للتعاون مع الخديو بقصد اعادة تنظيم الجيش المصرى وتهدئة السودان بالوسائل السلمية وبحث مسألة التعديلات التى يريان من المصلحة ادخالها على الادارة المصرية الداخلية.

ثانيا: عندما يطمئن المندوب البريطانى والمندوب التركى على قيام حكومة مصرية صالحة ومستقرة يقدم كل منهما تقريرا بذلك إلى حكومته.

ثالثا: تتفاوض بعد ذلك الحكومة البريطانية مع الحكومة التركية فى مسألة وضع اتفاق جديد بقصد انهاء الاحتلال بجلاء القوات البريطانية من مصر.

(٧) انتهى العام الثالث ثم العام الرابع وبدأ العام الخامس والاحتلال مازال موجودا فى مصر، ثم تقدمت الحكومة البريطانية بمشروع اتفاق فى عام ١٨٨٧ وهو ينطوى على محاولة أخرى هزيلة وهازلة للجلاء، وفيما يلى أهم ما جاء فيه:

١- ينتهى الاحتلال البريطانى لمصر بعد ثلاث سنوات من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق.

٢- يكون لبريطانيا الحق فى اطالة مدة الاحتلال أو تجديده فى حالة وقوع اضطرابات داخلية أو تعرض مصر لخطر مفاجىء.

ومعنى هذا أن بريطانيا تكتسب الحق المطلق فى العودة إلى احتلال مصر فى أى وقت تشاء اذا حدث شىء من هذه الاضطرابات الداخلية أو الخطر الخارجى. ووافق سلطان تركيا على مشروع هذا الاتفاق العجيب وأظهر الميل إلى التوقيع عليه ولكنه عاد ورفض تحت الضغط المشترك من جانبى فرنسا وروسيا، وبهذا سقط المشروع ومات.

واستمر الاحتلال البغيض جاثما على صدر البلاد إلى أجل غير مسمى..

ومرت بعد ذلك سبع وعشرون سنة لم تفعل بريطانيا خلالها شيئا سوى اتباع سياسة المحتل والخديعة وتكرار الوعود والعهود الرسمية بعزمها على انهاء الاحتلال، ولم تجرؤ على جعل مركزها فى مصر شرعيا، فظل مركز مصر على حاله من الغموض، فكانت مصر مستقلة استقلالا نظريا ومحتلة احتلالا عسكرى بريطانى مؤقتا وتحت السيادة العثمانية الاسمية، حتى قامت الحرب العالمية الاولى فتغير مجرى الاحداث ونكبت مصر باذلال جديد فى الشهور الاولى من الحرب العالمية الكبرى كما سأبين ذلك فيما يلى.



أهداف الاستعمار البريطانى .. فى مصر

أثبتت الحوادث المتلاحقة أن السياسة البريطانية الاستعمارية إزاء مصر كانت لها أربعة أهداف رئيسية أدركتها واحدا بعد واحد وفازت بها فى أربع مراحل على مر السنين. ولكنه فوز إلى حين..

الهدف الأول: احتلال مصر احتلالا عسكريا وسياسيا واداريا والسيطرة التامة على جميع شئون مصر الداخلية والخارجية.

وقد أدرك الانجليز هذا الهدف عام ١٨٨٢ بعد طول التربص والختل والخديعة والكذب والمراوغة. وفى السطور السابقة خلاصة لأهم أحداث تلك المرحلة التعسة.

الهدف الثانى: تحويل هذا الاحتلال «الذى وصف مرارا بأنه مؤقت وصحبته وعود رسمية بالجلاء جاوز عددها السنين»، إلى احتلال دائم لاينتهى بجلاء وانما تقبله الدول الاجنبية كأمر واقع ليس له من دافع ونسى معه كل الوعود بالجلاء.

وقد أدرك الانجليز هذا الهدف عام ١٩٠٤ بعد أن أبرمت بريطانيا وفرنسا معاهدة سميت «الاتفاق الودى» وتم عقد هذه المعاهدة فى ٨ من ابريل ١٩٠٤ بقصد انهاء ما كان بين الدولتين من خلافات وحزازات ومطامع ومنافسات، وكذلك بقصد وضع أسس ثابتة لسياسة استعمارية مشتركة موحدة تقوم على

الانسجام والتفاهم وتمنع الاحتكاكات والمخاصمات فى المستقبل، وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق وهو:

«تصرح حكومة جلال الملك البريطانية أنها لاتنوى تغيير حالة مصر السياسية وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لاتعرقل عمل بريطانيا العظمى فى تلك البلاد سواء بطلبها منها تعيين أجل للاحتلال البريطانى أو بغير ذلك».

وجاء أنه مقابل هذا الالتزام الفرنسى تعهد والتزام من جانب الحكومة البريطانية بألا تعرقل عمل فرنسا وسياستها فى مراكش..

هكذا اتفق الشريكان على امتلاك الدولتين: مصر ومراكش.. ومعنى هذا الاتفاق بكل ايجاز أن فرنسا عدلت نهائيا عن سياستها الماضية فى الوقوف بالمرصاد لبريطانيا ومعارضتها لها ومطالبتها بتحديد موعد للجلاء عن مصر.

وبهذا سلمت وأقرت بأن الاحتلال البريطانى لم يعد مؤقتا كما كان..

وأصبح الاحتلال «دائما» كما اشتهت بريطانيا واستكانت تركيا وسكتت سائر الدول، ولاشك أن هذا الاتفاق الاستعمارى المشئوم كان حدا فاصلا بين عهدين، وكانت له اثار خطيرة وبلبلة عميقة الغور بعيدة المدى نخص بالذكر منها ما يلى:

- عهد ما قبل الاتفاق «١٨٨٢- ١٩٠٤»= ٢٢ سنة.

١- قامت سياسة المحتلين فى تلك الحقبة على الاعتدال والملاينة والغموض والختل والخداع والوعود المتكررة بأن الاحتلال مؤقت وبأن الجلاء مؤكد.

٢- كانت الروح الوطنية فى نفوس المصريين متفائلة منتظرة معتمدة الاعتماد كله على يقظة الدول الاوربية وسخطها لاسيما تركيا وفرنسا على الاحتلال البريطانى والمطالبة بالجلاء الذى كانت بريطانيا نفسها لاتستنكره ولاتنكره، بل تؤيده، فكانت المسألة مسألة وقت لامسألة مبدأ فى نظر المصريين جميعا.

- عهد ما بعد الاتفاق «١٩٠٤-١٩١٤» = ١٠ سنوات.

٣- تبدلت سياسة المحتلين وقامت على العنف والمخاشنة والصرامة والقسوة

والتوعد بدوام الاحتلال، وبدأ كرومر يسجل فى تقاريره السنوية التى اعتاد على رفعها إلى حكومته فى لندن، ذم المصريين وبيان مدى تأخرهم فى كل ناحية من نواحى الحياة، وكان يتحدث بلسان الحاكم المطلق فى مصر الذى لامعقب لرأيه ولا استئناف لحكمه، بل انه فى ذلك جاوز كل حد معقول اذ تهجم على الدين الاسلامى نفسه وزعم أنه العقبة الكأداء فى سبيل تقدم المصريين ومشاركتهم فى الحضارة الغربية. وفى قصورهم وعجزهم عن حكم أنفسهم حكما صالحا، وكان يهدف إلى تيئيس المصريين حتى لايفكروا، مجرد تفكير، فى امكان التخلص من المركز الممتاز الى تحتله بريطانيا فى مصر وتنوى احتلاله إلى الأبد.

وقد وقعت فى تلك الحقبة السوداء حادثة دنشواى الشهيرة [١] نذكرها على

١- فى ٢١من يونيو سنة ٦٠٩١ ذهب خمسة من ضباط الانجليز إلى قرية دنشواي لصيد الحمام وبدأوا باطلاق نيران بنادقهم على الحمام من خلال الأشجار ووسط أجران القمح فخشى الأهالى أن تشب حرائق فى الأجران، ولما طالبوا الضباط بالانصراف لم يكترثوا واستمروا فى الصيد فتجمهر الأهالى وصدرت من ضابطين رصاصتان أصابت أحداهما امرأة هى زوجة مؤذن القرية فسقطت تتخبط فى دمائها وأصابت الثانية شيخ الخفر فى فخذه فسقط كذلك والدم يسيل منه فظن الأهالي أنهما قتلا فثار ثائرهم لاسيما وقد شبت حرائق في بعض الأجران فأخذوا فى مطاردة الضباط الخمسة بالطوب والحجارة والعصى، وأسفرت النتيجة عن اصابة أحد الضباط بكسر فى ذراعه والثاني والثالث أصيبا بجروح خفيفة والرابع فر هاربا من مكان الواقعة بعد اصابته، والخامس فر هاربا وظلا يجريان نحو ثمانية كيلو مترات والحر علي أشده فى الصيف، وأخيرا سقط هذا الرابع ميتا بضربة الشمس ونجا الخامس.

وبعد خمسة أيام من الحادثة وقبل أن ينتهى التحقيق صدرت الأوامر باعاد المشانق وارسالها إلى دنشواى.

ولم يمض يومان حتى شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة ٢٥ فلاحا مصريا قبض عليهم جزافا، أما الشهادات فلم يقم على صحتها دليل.

وبعد أسبوع واحد من الحادثة تمت المحاكمة الصورية وصدر الحكم وهو يقضى

١- باعدام أربعة

٢ -بالاشغال الشاقة المؤيدة على اثنين.

٣- بالاشغال الشاقة لمدة ٥١ سنة علي واحد، و ٤والسجن سبع سنوات على سنة .و ٥بالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد ٠٥ جلدة على ثلاثة و ٦بالجلد ٠٥ جلدة على خمسة آخرين.

وفى اليوم التالى لصدور الحكم كان التنفيذ بطريقة وحشية همجية تقشعر منها الأبدان .إذ تم الشنق والجلد علنا فى دنشواى على مرأى ومسمع من الأهالى والاقارب والزوجات والأبناء وبين صياح النساء وعويلهن ونواحهن، وكانت المناظر بشعة تثير الأشجان إلى أقصى حد يحتمله الانسان.

أن آلام الحزن والغيظ والحقد التى سادت جميع المصريين لا يمكن وصفها، ولكن من السهل جدا تصورها.

سبيل المثال كمظهر من مظاهر العنف والخشونة والقسوة الوحشية التى أمتازت بها سياسة بريطانيا فى معاملة المصريين ورغبتها فى اعطائهم درسا لاينسونه على مر السنين.

أما بالنسبة لمصر فكان هذا الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا صدمة أليمة مذهلة، وأشاع فى البلاد خيبة أمل عنيفة ومريرة، غير أن هذه المرارة ظلت مكبوتة فى نفوس سواد الناس بحكم ظروف الحياة فى تلك الحقبة من الزمن التى تتابعت فيها أحداثها الجسام تتابعا أدخل فى روع سائر الناس أن للقوة وحدها الكلمة الأخيرة فى حياة الناس ومصير الأمم، وكانت مظاهر سيطرة البريطانيين المسلحة على شعب مصر الاعزل بادية للعيان على أى تصرف لبريطانيا فى مصر!

وعلى ذلك لم يكن ذلك الكبت ليحول دون بروز الشعور الوطنى المصرى الوقت بعد الوقت بين أعمدة الضعف وعلى أعواد المنابر، وكان أعلى الاصوات وأجرأها على المنابر وأصرح الكلمات وأعنفها فى الصحف تلك التى صدرت من الزعيم الوطنى الشاب «مصطفى كامل» فنادى بحق الشعب المصرى فى الحرية والخلاص من الاحتلال والسخط على هذه المؤامرة التى حيكت ضد مصر.

لقد ظهر هذا الشاب الموهوب على مسرح السياسة الوطنية بعد حوالى عشر سنوات من بدء الاحتلال، وظل يجمع حوله الشباب وينفخ فيهم من روحه القوية حتى تزايد عددهم على مر الأيام والأعوام، وما أن تم عقد ذلك الاتفاق الظالم حتى تضاعفت نار الوطنية المصرية ونشطت بعد ركود، واذا بالروح المعنوية ترتفع وكانت فى هبوط، ولهذا يمكن القول أن «عهد ما بعد الاتفاق الودى، كان يمتاز بيقظة الشعور الوطنى وتحركه ونشاطه. وتحول الزعيم الشاب وأنصاره من الاعتماد على تركيا وفرنسا والأجانب إلى الاعتماد على النفس وتحولت الروح الوطنية المصرية من الصبر والتواكل والانتظار إلى السخط والكفاح والنضال.

والخلاصة: ما أن وقعت حادثة دنشواى ومحاكماتها حتى طفحت الكأس بالسخط والغضب وزادت الحركة الوطنية وعيا وقوة وثباتا ومثابرة. وتكاثر أنصار الحزب الوطنى تكاثرا ملحوظا وازداد مصطفى كامل نشاطا وجهادا فى مصر وفى الخارج، وتجلت حيوية المصريين فى أروع مظاهرها..

ملاحظة:

كتب لورد ملنر يصف مركز مصر من الناحية الواقعية بعد اتمام «لاتفاق الودى» بين بريطانيا وفرنسا بأنه «حماية مقنعة» اذ جاء فى كتابه «انجلترا فى مصر» ما نصه:

«إنها حماية.. ولكن ليس فى استطاعتنا ان نعلن ذلك صراحة، وبالتالى ليس فى استطاعتنا ان نطلب من الدول الاعتراف بها، ذلك لانها، حماية مقنعة، غير محدودة المدى وغير موقوته بأجل مرقوم، ولكنها على كل حال تكفى لتحقيق أغراض صعبة وتهدف إلى غاية بعيدة المدى»

الهدف الثالث: تحويل هذه «الحماية المقنعة» إلى حماية رسمية سافرة توافق عليها الدول فى معاهدة دولية، وبهذا يتم تصحيح مركز بريطانيا فى مصر فيصبح شرعيا ودائما بعد ان كان باطلا ومؤقتا..

الهدف الرابع: تنظيم العلاقات بين بريطانيا ومصر بعد ذلك وإقامتها على دعائم ثابتة وذلك بإبرام معاهدة أبدية بين الدولتين تتولى مصر فى ظلالها ادارة شئونها الداخلية إلى مدى بعيد، وشئونها الخارجية إلى حد محدود ببعض القيود، وتتولى فيها بريطانيا وحدها حق الدفاع عن مصر وتراقب سياستها الخارجية وبهذا تجعل المعاهدة لبريطانيا مركزا ممتازا فى مصر ويكون لممثلها حق التقدم على جميع ممثلى الدول الاجنبية..

وهذه كلها هى عناصر الحماية الفعلية فى صميمها الاصيل..

ويشاء القدر الساخر أن تنتظر بريطانيا عشر سنوات كاملة.. «بعد اتمام

الاتفاق الودى المشئوم» حتى تقوم الحرب العالمية الاولى قبل أن تتمكن من تحقيق هدفها الاستعمارى الثالث، فأعلنت حمايتها السافرة الرسمية على مصر وأقرتها سائر الدول.

وأما هدفها الرابع فكان له شأن آخر جد عسير وسأتناوله بالشرح والتفصيل والاسهاب فيما بعد عندما تطورت العلاقات إلى مفاوضات، أى عندما حاولت بريطانيا ادراكه بمفاوضاتها مع زعيم مصر الثائرة الشيخ الجليل سعد زغلول وصحبه أعضاء الوفد المصرى وكيل الأمة المصرية حينذاك..

بدأت المفاوضات واستطالت وتعثرت فأجلت ثم استؤنفت وطالت وتعثرت فتأجلت مرة ثانية وكثرت المحاولات والمؤامرات والمماحكات وأشتد الضيق والاعنات والمضايقات وازدحمت السجون بالأبرياء وفرضت الغرامات وكثرت الاعتقالات وزائف المحاكمات وشرد الزعماء فى المنفى ثم أفرج عنهم، ثم استؤنفت المفاوضات واستطالت مرة أخرى وتكررت المحاولات والحيل والالاعيب الدبلوماسية ثم فشلت بريطانيا أخيرا فى إدراك هدفها الرابع.

ولم تفز من مصر بطائل.

وهذه المفاوضات بمؤامراتها ومحاولاتها وتهديداتها ومضايقاتها وإعناتها وكل ملابساتها فى بيت القصيد فى هذا الكتاب، وقد فصلتها تفصيلا كاملا شاملا ليس بعده زيادة لمستزيد فيما أعتقد..

كيف حققت بريطانيا هدفها الثالث فى مصر

بينت فى مطلع هذا الفصل كيف قامت الحرب العالمية الاولى وتواريخ اشتراك الدول فيها واحدة إثر أخرى، فأنتهزت بريطانيا فرصتها لتحقيق أهم أهدافها الاستعمارية فى مصر وهو إعلان الحماية البريطانية عليها، وكان نجاحها هذا هو السبب الاصيل لقيام ثورة ١٩١٩ ولقد تم لبريطانيا هذا النجاح على دفعتين:

الاولى: قبل دخول تركيا الحرب: (٤ أغسطس - ٥ نوفمبر ١٩١٤)

ما كانت بريطانيا تدخل الحرب حتى خولت لنفسها أن تتمتع قواتها العسكرية بكافة حقوق الحرب فى جميع مدن مصر وموانيها والانتفاع بجميع وسائل المواصلات المصرية برا ونهرا وبحرا والاستيلاء على كل ما ترى الاستيلاء عليه فى الأراضى المصرية وكأن مصر مستعمرة بريطانية من مستعمرات التاج البريطانى..

ثم لجأت إلى الاجراءات التالية:

- منعت الحكومة المصرية من التعامل مع ألمانيا والنمسا والمجر وحظرت تصدير أى شيء مصرى إليها..

- استولت على جميع السفن الالمانية والنمساوية الراسية فى الثغور المصرية.

- أعلنت «الرقابة» على جميع المراسلات البريدية والبرقية فى داخل البلاد والمرسل منها إلى الخارج.. والوارد منها إلى الداخل.

- أصدرت أمرا عسكريا بمنع التجمهر والعقاب الشديد عليه، وأعتبر تجمهرا كل اجتماع من خمسة أشخاص على الأقل فى الطريق العام أو فى أى محل عمومى حتى ولو لم يكن له قصد جنائى..

- عندما أدركت بريطانيا أن تركيا على وشك الدخول فى الحرب ضدها إلى جانب ألمانيا والنمسا أسرعت بإعلان الاحكام العرفية البريطانية على مصر قبيل دخول تركيا الحرب بيومين اثنين. وكان ذلك الاعلان فى شكل منشور عسكرى أصدره القائد العام للجيوش البريطانية فى يوم ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤.

الثانية: بعد دخول تركيا الحرب: (٥ نوفمبر - ١٧ ديسمبر)

بدأت بريطانيا فى هذه الفترة بتضييق الخناق على مصر والمصريين بشكل مرهق عنيف متزايد، فكانت فترة عصيبة محمومة مسمومة رهيبة غريبة..

وفيما يلى تلخيص لاهم الأعمال والاحداث التى وقعت فى هذه الفترة.

- فى يوم ٦ نوفمبر أرسل ممثل بريطانيا فى مصر خطابا إلى رئيس الوزارة المصرية حسين حجازى رشدى باشا يبلغه فيه منشور القائد العام للجيوش البريطانية باعلان الاحكام العرفية والرقابة ويخبره فيه بأن يستمر الوزراء المصريون فى وظائفهم محتفظين بالسلطة التى لهم فيما يختص بالمسائل الادارية بوزاراتهم.

- أصدر القائد العام البريطانى أمرا عسكريا يحذر فيه جميع المصريين لكى يمتنعوا عن كل عمل من شأنه الاخلال بالنظام وبالأمن العام..

- قام الانجليز فى نشاط ملحوظ باستعدادات حربية على أوسع نطاق فى القاهرة والاسكندرية كما لو كانوا يستعدون لاعمال عسكرية خطيرة، أو كما لو كانوا يشعرون بأن المصريين يدبرون ثورة أو اضطرابات، فتدفقت جيوشهم على مصر بعضها قادم من بريطانيا نفسها وبعضها قادم من استراليا ونيوزيلنده والهند وجنوب افريقيا.

- اكتظت شوارع القاهرة والاسكندرية وبورسعيد بالثكنات العسكرية والخيام المنصوبة، بجنود من جميع الاجناس والالوان وظلت اللوريات الحربية المكتظة بالجنود تطوف الشوارع والميادين وتتنقل بين القلعة والعباسية وقصر النيل.

- انتشر فى العاصمة جومن الارهاب وأعتقل عدد كبير جدا من المصريين الوطنيين لاسيما المنتمون منهم للحزب لوطنى.

- تحولت مصر كلها إلى قاعدة حربية عامة للحلفاء جميعا، حتى خيل للرأى العام أن عدد الجنود الاجانب لايقل عن عدد الأهالى المصريين.

هذا فيما يختص بالاستعدادات الحربية، وإلى جانب ذلك تمت أعمال مدنية مريبة أبرزها ما يأتى:

- أستقدم فى القاهرة الامير حسين كامل من الاسكندرية على قطار خاص فحضر توا إلى منزل رئيس الوزارة حسين رشدى باشا. ثم انتقلا معا إلى الوكالة

البريطانية حيث يقيم ممثل بريطانيا فى مصر «قصر الدوبارة».

- تحدث الناس فى اليوم التالى عن هذا الاستدعاء الفجائى الذى انتشر خبره رغم الرقابة الشديدة على الصحف والمراسلات وكثرت اجتماعات الامير بالقائم بأعمال المعتمد البريطانى فى الوكالة البريطانية «مستر شيتهام» ومعهما رشدى باشا الذى كان فى الوقت عينه قائممقام خديو «بمناسبة وجود الخديو فى الاستانة بأجازة».

- انتشرت فى القاهرة اشاعات كثيرة حول هذا الاستدعاء وكثرت المقابلات. وكان أروج تلك الاشاعات التفكير البريطانى فى إسناد العرش إليه وأنه يشترط شروطا لقبوله هذا المنصب.

وأخيرا وقعت النكبة..

إعلان الحماية البريطانية على مصر

١ - نص إعلان الحماية:

فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت بريطانيا حمايتها السافرة الرسمية على مصر، فحققت بذلك هدفها الاستعمارى الثالث: وهذا نص الاعلان:

«يعلن وزير الخارجية لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الان فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية، وبذلك زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها».

٢ - نص اعلان عزل الخديو عباس وتعيين السلطان حسين:

وفى يوم ١٩ من ديسمبر صدر منشور آخر بخلع الخديوى عباس حلمى وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر وهذا نصه:

«يعلن وزير الخارجية لدى جلاله ملك بريطانيا العظمى انه بالنظر إلى

إقدام سمو عباس حلمى باشا خديو مصر على الانضمام لاعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الامراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله».

٣- وفى نفس اليوم تسلم السلطان حسين برقية ورسالة:

أ- برقية من ملك الانجليز هذا نصها:

«فى اليوم الذى ترتقى فيه عظمتكم السلطانية منصبها السامى أقدم لكم عواطف الود المنبعثة عن أكمل اخلاص مع تأكيدى لكم بأننى لا أنفك عن تأييدى لكم والمحافظة على مصر وحماية رفاهيتها فى المستقبل، وانى على يقين أنه بمعاونة وزرائكم وحماية بريطانيا العظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التى يراد بها العبث باستقلال مصر وبرفاهة أهلها وسعادتهم».

ملاحظة: سجلت هذه البرقيةحرفيا هنا لابين أن كلمة «استقلال مصر» وردت رسميا فيها وكان لها شأن فيما بعد تمسك بها المصريون وأنكرها البريطانيون».

ب- أما الرسالة التى تسلمها السلطان حسين فكانت فى شكل تبليغ طويل ألخصه فيما يلى:

تبليغ الحكومة البريطانية إلى السلطان حسين

«لدى الحكومة البريطانية أدلة كثيرة على ان الخديو عباس حلمى قد انضم إلى أعداء بريطانيا وبذلك تكون للحقوق التى له ولسلطان تركيا على مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى ملك بريطانيا.

الحكومة البريطانية تعتبر وديعة تحت يدها للمصريين جميع الحقوق التى آلت إليها، وكذلك جميع الحقوق التى استلمتها فى مصر مدة سنوات الاصلاح الثلاثين الماضية.

رأت الحكومة البريطانية أن أفضل وسيلة لقيامها بمسئولياتها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية اعلانا صريحا، وأن تكون حكومة مصر تحت الحماية بيد أمير من أسرة محمد على طبقا لنظام وراثى يقرر فيما بعد.

أخذت الحكومة البريطانية على عاتقها وحدها كل المسئولية فى دفع أى اعتداء على الأراضى المصرية مهما كان مصدره، وأن جميع المصريين أصبحوا مشمولين بالحماية البريطانية.

بزوال السيادة التركية تزول أيضاالقيود التى كانت موضوعة على عدد الجيش المصرى بمقتضى الفرمانات العثمانية، وأصبح لسموكم الحق فى الانعام بالرتب والنياشين.

فيما يختص بالعلاقات الخارجية ترى الحكومة البريطانية أن المسئولية التى أخذتها على نفسها تستدعى أن تكون المخابرات من الآن فصاعدا بين الحكومة المصرية والدول الاجنبية بوساطة ممثل بريطانيا فى مصر.

وفيما يختص بادارة البلاد الداخلية ستحافظ الحكومة البريطانية على التقاليد المأثورة عنها ومعاونة الحكومة المصرية وحماية الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر الثروة الطبيعية والتدرج فى اشراك المحكومين فى الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة من الرقى السياسى، وهذا كله سيؤدى إلى سرعة التقدم فى سبيل الحكم الذاتى كما ستحترم عقائد المصريين الدينية احتراما تاما.

ثم انتهى التبليغ بنص العبارة الآتية:

«ولسموكم أن تعتمدوا فى اجراء ما يلزم من الاصلاحات على كل عطف وتأييد من جانب الحكومة البريطانية، وعلى أن أزيد على ما تقدم أن حكومة جلالة الملك تعول بكل اطمئنان على اخلاص المصريين ورويتهم واعتدالهم فى تسهيل المهمة الموكولة إلى قائد جيوش جلالته المكلف بحفظ الأمن داخل

البلاد ومنع كل عون للعدو.

وانى انتهز هذه الفرصة فأقدم لسموكم أجل تعظيماتى».

ملن شيتهام

هذا هو البرنامج والخطة كما وضعتها الحكومة البريطانية لسلطان مصر.

أما الوزراء المصريون فقد ظلوا فى كراسيهم الوزارية منفذين لأوامر المحتلين.

أما الوطنيون والسياسيون بل جميع المتعلمين وأنصاف المتعلمين المصريين فقد أصيبوا بانفعالات نفسية عنيفة أبرزها الحزن والكمد والسخط والضيق والغيظ والحقد والدهشة والذهول، ومما زاد هذه المشاعر شدة وهولاً لاعجزهم المطلق عن القيام بأى عمل ايجابى قولا أو فعلا يظهرون به إنكارهم وما يشعرون، ذلك لان الاعتقال والسجن والنفى كانت أخف العقوبات لاقل الشبهات ومن غير محاكمات.

والآن فلننظر كيف استحكمت حلقة البوس والشقاء فعمت هذه المشاعر نفسها كل فرد من أفراد الشعب المصرى فى المدن والقرى حتى أصبح انفجار الثورة امرا مؤكدا لامخرج لمصر سواه.

الفصل الثالث



أعمال المحتلين فى مصر طوال مدة الحرب

سلسلة طويلة من الاعمال الثقيلة المجحفة المرهقة للشعب ارتكبها المحتلون فى قسوة هائلة نخص بالذكر منها أبرزها وأقدمها وأدهاها وابعدها أثراً:

(١) تسخير العمال المصريين فى الأشغال الشاقة لخدمة الجيش البريطانى:

جندت السلطات العسكرية البريطانية عددا كبيرا جدا من العمال والفلاحين بلغ فى تقدير الانجليز أنفسهم مليونا وربع المليون مصرى كانوا ينتزعون من بين أهليهم انتزاعا ثم يقال عنهم إنهم«متطوعون» بينما هم فى حكم المعتقلين، وكان تجنيدهم بعلم الوزراء المصريين وموافقتهم وبمعاونة رجال الحكومة المحليين فى الاقاليم، وكان يقذف بهؤلاء العمال والفلاحين الاشقياء إلى حيث توجد الجيوش للقيام بخدمتها فى حمل الاثقال وإنشاء الطرق فى شبه جزيرة سيناء ومد السكك الحديدية إلى فلسطين وتنظيف السيارات والعربات واللوريات واصلاحها من العطب، وقد مات منهم كثيرون موت الذئاب وأصيب كثيرون منهم بأمراض شتى أو عاهات مستديمة جعلتهم عاجزين عن العمل بقية حياتهم، ولما عادوا إلى قراهم تحدثوا عن الوحشية التى عوملوا بها مما أثار نفوس الملايين وسائر الأهالى بالغيظ والحقد على المحتلين، والان فلننظر ما سجله لورد ملنر فى تقريره عن هؤلاء المساكين وقيمة خدماتهم، قال:

«إن الخدمات التى قام بها فيلق العمال المصريين كانت خدمات لاتقدر بثمن،

ولم يكن هناك غنى عنها لنجاح الحملة على فلسطين، وأن الحكومة المصرية قد ايدت رجال السلطة البريطانية بأعظم تعاون والدلائل على ذلك كثيرة منها تنازلها عن مبلغ ثلاثة ملايين جنيه من حساب الامانات والعهد التى كانت قد سلفتها للسلطات البريطانية وكان يحق لها أن تطالب بها».

مصر الفقيرة المقهورة المنكوبة تنازلت عن هذا المبلغ الضخم لبريطانيا المليونيرة..!

ثم استطرد ملنر فسجل فى تقريره ما يأتى:

« أن المتطوعين قد تظلموا من إطالة مدة خدماتهم إلى ما بعد التاريخ الذى تعاهدوا عليه، ثم ان نظام التطوع لم يف بتقديم العدد الكافى فاضطر الامر اذ ذاك إلى استخدام الضغط الادارى للحصول عليهم، ولما كان المصريون قد أعلنوا فى أول الحرب مع تركيا بأنهم لايطلبون الاشتراك فيها، بقى التطوع اسما لامعنى له، فمهد إلى عمد البلاد بالتجنيد.

ثم قال: «وقد أختلف الناس فى مقدار هذه المظالم والمساوىء ولكنها على كل حال كانت من الكثرة والفداحة بحيث ساءت الناس كثيرا، ويسرت للمحرضين السياسيين انتهاز الفرصة لقضاء مأربهم».

(٢) استيلاء السلطات العسكرية البريطانية على الرديف فى الجيش المصرى واستخدمته فى كثير من الاعمال الحربية.

(٣) الاستيلاء على الحبوب ومواد المؤن لاطعام جيوش الحلفاء الجرارة فى مصر وبلاد الشرق الاوسط، وكان الانجليز لايدفعون أثمانها بل يقيدونها دينا على الحكومة البريطانية وكانت الحكومة المصرية نفسها تدفع هذه الاثمان من ميزانيتها الضئيلة، ثم جاءت الحكومة المصرية الكريمة فى آخر الحرب وتنازلت عن كل هذه الديون وهى تزيد على الثلاثة ملايين جنيه التى أشار ملنر لذكرها فى تقريره.

(٤) الاستيلاء على كثير من دواب الفلاحين التى يعتمدون عليها فى النقل والزرع والمؤونة.

(٥) تقييد أسعار القطن خدمة للمصانع البريطانية فى انجلترا وحرمانا للفلاحين والمزارعين المصريين حتى من الحصول على الأثمان المجزية، ولم تكن تلك الاسعار متمشيةمع الغلاء الفاحش الذى عم البلاد واشتدت وطأته مع دفع الضرائب فكانوا يضطرون إلى بيع ما لديهم من مصاغ وحلى ذهبية أو يستدينون من المرابين بالربا الفاحش لاداء هذه الضرائب.

وكان هذا البلاء راجعا إلى الخسارة الفادحة التى حلت بالمزارعين بسبب التحكم فى أسعار القطن، وقد اعترف ملنر ببعض هذه الحقائق فى تقريره اذ قال:

«أن التحكم فى أسعار القطن زاد استياء للناس لان هذا التحكم قد حرم المزارعين مزية المنافسة والمزاحمة فى الاسواق الخارجية مع كون ايجار أطيانهم قد زاد».

(٦) استخدام المرافق العامة كالسكك الحديدية واستعمالها باستمرار فى نقل الجيوش والعتاد الحربى حتى أصبحت السكك الحديدية المصرية بالعطب واحتاجت فيما بعد إلى تجديدات واسعة النطاق أرهقت خزانة الحكومة المصرية بأعباء جسيمة مرهقة وكلفتها ملايين الجنيهات.

(٧) الاستيلاء على كثير من المبانى العامة كمبانى المدارس والمعاهد وتحويلها إلى مستشفيات عسكرية بريطانية.

(٨) اغتصاب أموال الناس تحت اسم «التبرعات للصليب الاحمر» فجاء ذلك ضريبة جديدة فادحة على القادرين وغير القادرين فى الريف وفى المدن، وكأنه لم تكف السلطات البريطانية ما قامت به من مصادرة أرزاق الناس وحاصلاتهم ومواشيهم ودوابهم، ولقد تولى أمر جمع هذه التبرعات المغتصبة

رجال الادارة من عمد ومأمورى المراكز فأصبح (ما كان أول الأمر تبرعا للصليب الاحمر) أموالا تجمع بالغصب والقهر والاكراه بعلم السلطة العسكرية البريطانية وموافقة الحكومة المصرية.

هذا وقد فتحت هذه العملية الظالمة كل أبواب السلب والنهب والمنكرات ولم يسلم منها غنى ولا فقير، وقد اعترف لورد ملنر نفسه بهذه الحقائق اذ قال فى تقريره:

«لقد اشتدت وطأة هذه المظالم على الناس لاسيما أن أسعار الاشياء الضرورية قد ارتفعت فى مصر ارتفاعا متواليا مطردا لم يسبق له مثيل، وخصوصا أسعار الحبوب والملابس والوقود فقد ثقلت وطأتها على الفقراء الذين لم تكن أجورهم تكفى للنفقة التى يقتضيها غلاء المعيشة بينما هم يرون عددا من الاجانب غير المحبوبين يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى رغد من العيش».

(٩) الاعتداءات المستمرة على المصريين عامة وعلى الباعة المتجولين وأصحاب الحوانيت خاصة والذين ارتكبوا هذه الاعتداءات هم جنود بريطانيون واستراليون ونيوزلنديون فاذا دافع أحد المصريين عن نفسه أو ماله أو بضاعته كان نصيبه المحقق الضرب والايذاء، ومن عجب أن هذه الجرائم كانت ترتكب نهارا وليلا فى الشوارع والميادين على مرأى ومسمع من رجال البوليس المصرى الذين كانوا بلا حول ولاقوة، فكانوا يشاهدون وهم عاجزون عاجزون عن حماية الاهلين.

(١٠) التزايد المطرد فى عدد الموظفين الانجليز فى جميع وزارات الحكومة ومصالحها وفروعها وكل أقسامها، وفى الجيش والبوليس، وكان استيلاء الانجليز تاما على جميع الوظائف الرئيسية من الدرجة الرابعة فما فوقها، بل وما دونها فى بعض الاحايين، هذا فضلا عما بدا من كثير منهم من الغطرسة والتعالى على الموظفين المصريين الذين شعروا بالمهانة، فامتلأت نفوسهم حقدا

وغيظا وكمدا واستعدادا للاضراب أو الثورة فى أول فرصة مواتية.

(١١) تعطيل الجمعية التشريعية حتى لايرتفع صوت بين جدرانها بنقد أو حتى باقتراح لايرضاه المستعمرون المحتلون، فتأجلت اجتماعاتها مرة بعد مرة حتى تم تعطيلها نهائيا.

(١٢) اغتصاب الحكومة البريطانية لنفسها الحق المطلق فى تعيين الجالس على عرش مصر، فعينت أولا الأمير حسين كامل وبعد وفاته عينت الامير أحمد فؤاد سلطانا علىٰ عرش مصر ثم وعدت بوضع نظام للوراثة بالاتفاق بينها وبين السلطان فؤاد عندما ترى الوقت مناسبا لذلك.

(١٣) استغلالها ضعف رشدى باشا رئيس الوزارة المصرية طوال مدة الحرب حتى نالت منه ومن مصر ما لم يخطر لها على بال، فوثقت به واطمأنت إليه واعتمدت عليه، وقد بلغ من تفانى رشدى باشا فى الولاء للانجليز وخدماتهم خدمة فاقت كل حد معقول أنه ارتكب الاعمال الثلاثة الآتية نسوقها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

أ- فى ٢٠ من اكتوبر ١٩١٧ استصدر مرسوماً بإمضاء السلطان دعا فيه الناس إلى التطوع فى خدمة السلطة العسكرية البريطانية وعرض عليهم امتيازات تحثهم على هذا التطوع. وعلى أثر ذلك زادت حركة مصادرة الابل والدواب على أختلاف أنواعها فى جميع القرى والمراكز، وأمر أصحابها أن يحضروا كل ما لديهم من هذه الدواب إلى المراكز والاقسام لمعاينتها توطئة لشرائها كما أمروا بألا يتصرفوا فيها أو ينقلوها من جهة إلى أخرى إلا بأذن خاص من المأمور المختص، وكل جمل أو ناقة أو حمار أو حصان لايصلح للاعمال فى خدمة السلطات البريطانية كان يدمغ بعلامة مخصوصة بحيث اذا وجد حيوان غير مدموغ بتلك العلامة قبض على صاحبه ووقع عليه عقاب صارم.

ب- فى ٩ من مارس ١٩١٨: جمع رشدى باشا مجلس وزرائه واستصدر منه

قرارا عجيبا يقضى بأن تقدم حكومة مصر منحة قدرها ثلاثة ملايين جنيه ونصف المليون إلى الحكومة البريطانية.

ج- والادهى من هذه المنحة التعليل الذى ساقه لتبريرها، فقد سجل رشدى باشا فى القرار «أن المنحة اعتراف بجميل بريطانيا العظمى التى حمت البلاد من خطر الغارات».

ومعنى هذا أن الحماية البريطانية التى أذلت مصر أوجع إذلال وحققت بها بريطانيا هدفها الاستعمارى الثالث هى نعمة وبركة فى نظر رشدى ووزارته التعسة.

وأنه لهوان ما بعده هوان أن يشكر الغاصب على اعتدائه وعدوانه ثم يكافأ بالمال الجزاف وهو السالب لحرية البلاد واستقلالها، المعذب لأبنائها، المدمر لكيانها، المذل لكل رأس فيها.

وإنها لمصيبة أن يكون الانسان مظلوما مغلوبا على أمره ولايشعر بأنه مظلوم ولايدرك مبلغ هوانه على ظالمه.

وأنها لمصيبة أدهى وأفدح أن يعرف ظالمه ومظالمه وأثامه، ثم هو يثنى عليه ويظهر الحب له والاعجاب به ويغدق المال عليه كمكافأة على تصرفاته الجائرة الخانقة القاتلة ولاتفسير ولاتعليل لهذا إلا.. ماذا أقول؟ نوم الضمير!! أو هل هو «موت الضمير» !!

وإن الانسان ليعجب ويتساءل: فى سبيل أى مقابل قبل رشدى باشا كل هذا؟؟ هل اشترط شرطا واحدا أو أخذ عهدا من الانجليز تستفيد منه بلاده فى المستقبل؟

كلا!! لم يشترط شرطا بل لم يحاول أن يفكر فى الحصول على أى وعد من الانجليز لخير البلاد فى المستقبل.

وفيما يلى شهادة قاطعة حاسمة مقنعة من أحد كبار المؤرخين الانجليز.

كتب كولونيل فى كتابه عن «مصر تحت الحماية» ما تمت ترجمته الحرفية:

«لو أن وزيرا أقوى من رشدى باشا فى مكانه لعمد إلى المساومة. ولكنه لم يشترط شرطا واحدا وساءت العافية بمصر من جراء هذا الاهمال، وليس فى وسع رشدى باشا ان يقول كلمة واحدة تخفف من وقع تسليمه وآثاره».

هذا رأى المؤرخ الانجليزى المنصف رغم انجليزيته يشهد بما لحق مصر من غبن وظلم، وما كان عليه رشدى من تخاذل وضعف، والحق ما شهد به الاعداء، ولكن ما هو رأينا نحن المصريين الذين عشنا هذه الحقبة التعسة من تاريخ وطننا؟

إننا وخمسة [1] من أصدقائى الشبان كنا فى مطلع العشرين من عمرنا ونجتمع مساء كل يوم نفكر ونتحادث وننفعل بمشاعر حارقة وكان اجماعنا فى الرأى والشعور يتناول النواحى الآتية:

(١) حكام مصر من وزراء وأمراء ضعاف وخونة جديرون بالاحتقار لتعاونهم وتآمرهم مع المحتلين المستعمرين.. وهذا أقل ما يستحقونه من جزاء.

(٢) شعب مصر شعب أصيل صبور فقير أرهقه الظلم والاستغلال ينحنى للعواصف والازمات ولكنه لاينكسر ولايموت. قد ثار فيما مضى وابتلع الغزاة وسيرد عاجلا أو آجلا لا محالة.

(٣) ليس لنا أن نيأس ولكن لابد من زعيم وطنى شجاع مصرى أصيل يتولى التوجيه فى القيادة ويمثل روح الفداء. لقد ظلت الاحقاد تتراكم وتتزايد من عام الاحتلال سنة ١٨٨٢ والثورة آتية لاريب فيها ولكن متى تكون؟؟ هذا رأينا الاجماعى.

ما الذى ينقص مصر حتى تنفجر فيها ثورة عارمة؟

لقد بلغت الروح الحلقوم!! نحن الان فى السنة الرابعة والاخيرة من الحرب،

١- أحمد أمين .محمد فريد أبوحديد .والأستاذ الزيات، وحسن مختار ، ومحمد خلاف.

كل طبقة وكل طائفة، وكل جماعة وكل فرد، متعلما كان أو غير متعلم، فلاحا كان أو عاملا، شيخا كان أو شابا أو مراهقا، أصبح ما بين حانق وحاقد وغاضب وساخط وبائس ويائس. إن جميع المصريين تحركهم مشاعر كاوية شاوية حارقة اللهم إلا اذا استثنينا رشدى باشا وحفنة وزرائه الخاضعين الخانعين..

حقا ان قبضة الانجليز على البلاد وحكومتها وماليتها وجيشها وبوليسها لاتسمح بقيام ثورة على أى نطاق لاسيما أن الاحكام العرفيةوقانون التجمهر والاعتقالات تمارس على أوسع نطاق، ولكن من جهة أخرى لايمكن أن يموت الشعب المصرى خنقا وكبتا ويأسا.

والآن يعرض سؤال خطير وفى الاجابة عنه مفتاح الموقف كله:

ما الذى تحتاج إليه الثورة إذن لكى تنفجر كالبركان ويعدم لهيبها كل مكان؟

الجواب عن ذلك غير بعيد..

الثورة مازالت فى حاجة إلى ثلاثة عوامل جديدة أراها على جانب عظيم من الاهمية لكى تخرج من الكبت والكتمان إلى الانفجار والفوران وهى:

١- الأمل الحافز المثير.

٢- والزعيم القائد القدير.

٣- والشرارة التى تحدث الانفجار.

أما الأمل الحافز فقد توهج فى النفوس وتفتحت أبوابه بفضل مبادىء الرئيس ولسون، والتصريح البريطانى الفرنسى للعرب.

وأما الزعيم فقد تجلى فى سعد زغلول أصلح رجل فى مصر للزعامة والقيادة والتوجيه غير منازع.

وأما الشرارة فقد كانت فى اعتداء الانجليز على الزعيم باعتقاله ونفيه إلى مالطة مع البارزين من أعوانه وزملائه.

والآن لابد من بعض التفاصيل لكل من هذه العوامل الثلاثة.

الفصل الرابع



١ - الأمل.. الحافز الـ

مبادىء الرئيس ولسون

فى ٨ يناير ١٩١٨ ألقى الرئيس ولسون «رئيس الولايات المتحدة» خطبة ضافية فى الكونجرس حدد فيها مبادئه الاربعة عشر والتى وصفها بأنها «البرنامج الوحيد لاقرار السلام» وقد دخلت الحرب سنتها الاخيرة فأراد ولسون أن يمهد لالمانيا طريق الاستسلام ويضع للعالم قواعد السلام.

وقد حرصت على تسجيل كل هذه المبادىء هنا لاهميتها التاريخية البالغة واثارها البعيدة المدى:

المبدأ الأول: خاص بالمعاهدات. تكون المعاهدات صريحة لضمان السلام ويجرى وضعها علانية «ولاتحتوى على شروط سرية».

المبدأ الثانى: خاص بحرية البحار: تكون حرية البحار مكفولة فى زمن السلم وفى زمن الحرب.

المبدأ الرابع: تخفيف السلاح فى الدول إلى أقصى حد مستطاع ويتفق مع الأمن الداخلى لكل منها.

المبدأ الخامس- حق تقرير المصير: وينص على «تسوية المشاكل المتعلقة بالسيادة». أو الاراضى أو المطالب الاستعمارية على أساس قبول تلك التسوية قبولا اختياريا من جانب الشعب صاحب الشأن مع مراعاة مصالح الحكومة التى يعنيها الأمر.

المبدأ السادس: الجلاء عن جميع الاراضى الروسية.

المبدأ السابع: الجلاء عن بلجيكا وإعادتها كما كانت.

المبدأ الثامن: الجلاء عن المقاطعات الفرنسية المحتلة واعادة الاجزاء التى تم غزوها وانصاف فرنسا من الغبن الذى لحقها عام ١٨٧١ وذلك باعادة مقاطعتى الالزاس واللورين إليها.

المبدأ التاسع: تعديل الحدود الايطالية تعديلا واضحا يتواءم مع المطالب القومية.

المبدأ العاشر: شعوب مملكتى النمسا والمجر يمنحون فرصة الحكم الذاتى.

المبدأ الحادى عشر: رومانيا والصرب والجبل الاسود تتحرر ويتم الجلاء عنها وتعاد إليها المقاطعات المحتلة. وتمنح الصرب ميناء حربيا مع تأمين طريقها إلى البحر. والدول البلقانية ينبغى أن تكون على أسس التاريخ ومقتضيات القومية.

المبدأ الثانى عشر: خاص بتركيا، وينص على أن الولايات الداخلة فى الامبراطورية العثمانية يضمن لها حقها فى السيادة، والشعوب الخاضعة للحكم التركى تتحرر وتمنح الاستقلال ومضايق الدردنيل تفتح للتجارة لجميع الأمم بضمانات دولية.

المبدأ الثالث عشر: خاص ببولندة: تنشأ دولة بولندة المستقلة وتمنح ميناء بحريا مع تأمين طريقها إلى البحر.

المبدأ الرابع عشر: خاص بإنشاء عصبة الأمم.

يجب إنشاء عصبة للامم بمواثيق محددة لكفالة السلام ووضع الضمانات المشتركة للمحافظة على الاستقلال السياسى وسلامة الاراضى لجميع الدول كبيرها وصغيرها على السواء.

هذه المبادىء الاربعة عشر جعلت من الرئيس ولسون بطلا روحيا فى العالم بأسره وفتحت أبواب الأمل لجميع الشعوب وكانت حديث الناس فى كل أنحاء العالم.

وكان لذلك أسباب ثلاثة:

الأول: صدورها من رئيس أقوى وأغنى دولة فى العالم، الدولة التى كان مجرد دخولها فى الحرب فى ابريل سنة ١٩١٧ مرجحا هائلا لكفة الحلفاء نحو النصر وايذانا حاسما بقرب هزيمة المانيا من غير شك.

الثانى: أن هذه المبادىء نفسها بروحها الحرة الجديدة وبقيمتها الذاتية دستور جديد رائع للانسانية فى العصر الحديث، ووجد فيها كل شعب من الشعوب مبدأ واحدا أو أكثر فيه راحته وخلاصه ونجاته مما يعانيه من بلاء.

الثالث: أن دول الحلفاء نفسها (وفى طليعتها بريطانيا وفرنسا الاستعماريتان) قد رحبت بها واثنت عليها فلم يعد هناك شك فى إمكان تنفيذها وتحقيقها.

والان فلننظر كيف كان تأثير هذه المبادىء الرائعة فى مختلف الشعوب والحكومات والنتائج التى نجمت عنها:

(١) المانيا والنمسا والمجر:

لقد يئست شعوب هذه الدول وحكوماتها من النصر بعد دخول أمريكا إلى جانب الحلفاء فشعرت بالغبطة وضعفت فيها الرغبة فى استمرار الحرب وتحركت فى أعماقها الرغبة فى الاستسلام، ولا خطر من استسلام يصاحبه رجاء فى النجاة من ويلات الهزيمة المنتظرة والافلات من فتك المنتصرين وجبروتهم، وانتشر الشعور بأن فى الامكان إنهاء الحرب بأقل خسارة ممكنة، ولهذا يرى بعض المؤرخين أن مبادىء الرئيس ولسون قد أضعفت بل حطمت «إرادة القتال والمقاومة فى المانيا والنمسا». وعجلت بإنهاء الحرب العالمية الاولى.

(٢) بريطانيا وفرنسا الاستعماريتان:

لم يسعهما إلاّ الترحيب بتلك المبادىء تضامنا مع الولايات المتحدة ورغبة فى نصر قريب بعد الخسائر الفادحة الدامية التى حلت بهما، ومن العسير الاستمرار فى احتمالها، ولكن مما لاشك فيه أن الحكومتين قد أوجستا خيفة

من بعض تلك المبادىء التى من شأنها أن تحرمهما من كسب كل ثمار النصر بل قد تؤدى فى النهاية من حرمانهما من بعض ما فى أيديهما من شعوب منكوبة بالاستعمار البريطانى والفرنسى.

(٣) الاحرار فى جميع الدول:

اغتبط الاحرار بهذه المبادىء أشد اغتباط لانها تحتم الدبلوماسية المكشوفة والمعاهدات الصريحة وانتشر الشعور بأن عهد السياسة السرية والمؤامرات الخفية قد انتهى إلى غير رجعة.

(٤) ودول العالم المتحضر:

ولاسيما الأوربية منها اغتبطت كذلك اذ شعرت بقرب الخلاص من فداحة الضرائب التى أثقلت كواهلها بسبب أعباء التسليح والتجنيد الاجبارى وانتعشت أمال شعوبها بقرب انشاء جمعية دولية تسمى «عصبة الامم» يجتمع فى حظيرتها الممثلون الرسميون للدول بقصد خدمة غرض نبيل لم يسبق له مثيل وهو مناقشة الخلافات والمشاكل الدولية بالمفاوضات والوسائل السلمية ثم تنتهى بالطرق الودية لا بالحروب الدموية، ولذلك أطلق بعضهم على الحرب العالمية الاولى وصفا رائعا ؛بأنها الحرب الأخيرة التى تمنع كل الحروب فى المستقبل».

أو هكذا ذهب التفاؤل الشامل بالظنون والآمال..

(٥) والآن نأتى إلى بيت القصيد: مصر !!

لم يكن ما حدث فى مصر وما طرأ على المصريين مجرد اغتباط أو مجرد إبتهاج بل كان بعثا جديدا كاملا شاملا، ولكى نبين الصورة على حقيقتها لابد من كلمة موجزة عن الحالة النفسية للمصريين قبل ظهور مبادىء الرئيس ولسون والحالة المصرية بعد ظهور تلك المبادىء. وهى حقبة من الزمن عشتها وعرفتها واهتزت نفسى إلى أعماقها بأشد الانفعالات قبلها وبعدها ولكن شتان بين الانفعالين.

- **الحالة النفسية فى مصر قبل ظهور مبادىء الرئيس ولسون**

ساد الحزن والكمد والضيق والغيظ والحقد والمخاوف وسوء الظن العام الشامل.

هذا هو الوصف الموجز للحالة النفسية عند المصريين جميعا فى ذلك العهد الأسود، لقد مرت بهم هزائم تلو هزائم وخيبة آمال متكررة منذ اليوم الاول للاحتفال البريطانى، وهذه الحالة التعسة قد طبعت المصريين بطابع خاص فى السلوك وحددت أسلوبهم فى مواجهة الحياة.

وأسلوب السلوك هذا قائم على السلبية والشعور بالعجز فسادت روح الهزيمة وتوقع المكاره والمصايب واشتد الميل إلى التشاؤم لاسيما أن عدوهم القاهر الجبار على وشك أن يخرج منتصرا من أكبر حرب خاضها فى حياته وسيكون بطبيعة الحال أشد قهرا وضراوة مما مضى..

وليس هناك أشد فتكا للادارة وشلا للعزيمة من هذا الشعور القاتل للافراد وللشعوب وهو شعور السلبية المطلقة.

- **الحالة النفسية فى مصر بعد ظهور مبادىء الرئيس ولسون**

ماذا فى هذه المبادىء التى ذاعت وانتشرت فانتشت وأحيت ميت الآمال ثم ألهبت المشاعر فزادت طاقاتها الحيوية وبالخيال البناء برزت الروح الايجابية فى قوة ومضاء.

مبادىء ثلاثة هى السر فى هذا التطور الرائع:

(١) حق الشعوب فى تقرير مصيرها.

(٢) تحرير الشعوب العربية الخاضعة لسيادة تركيا ومنحها الاستقلال.

(٣) قرار انشاء «عصبة الأمم» لحل المشكلات الدولية بالعدل والانصاف.

وهكذا انتقلت بها الحالة النفسية من النقيض إلى النقيض. الفرح والانتعاش والجرأة وقوة العزيمة وروح الاقدام والامل المضىء الواثق والانتصار المؤكد، وهى كلها عناصر ايجابية فعالة مثمرة.

هذا هو الوصف الموجز للحالة المعنوية الجديدة.

وقد شجع على انتعاش هذه الحالة المعنوية الرائعة فى المصريين بدء الانكماش الذى ظهر على السلطات البريطانية فى مصر.. وكان انكماشهم هذا أمرا لامندوحة عنه ولا حيلة لهم فيه، فالحرب على وشك الانتهاء والمبادىء الجديدة التى ستحل كل المشاكل على أساسها قد ظهرت وانتشرت ورحبت بها جميع الشعوب وجميع الحكومات..

هذا هو الأمل المثير الحافز حقا الذى انتظره المصريون بفارغ الصبر أكثر من ثلاثين عاما، ولم تشأ المقادير فى رحمتها بمصر إلا أن تضيف إلى هذا الامل الرائع ما يزيده روعة وقوة وثباتا، وإلا أن تضيف إلى الروح المعنوية العالية المتصاعدة عند المصريين ما يزيدها قوة وعزما وانتعاشا وصعودا وتأكيدا.

وهذا المدد الجديد جاء فى شكل تصريح بريطانى فرنسى أصدرته الحكومتان البريطانية والفرنسية للشعوب العربية فى منطقة الشرق الأوسط.

التصريح البريطانى الفرنسى للعرب

فى نوفمبر ١٩١٨:

أصدرت حكومتا بريطانيا وفرنسا تصريحا مشتركا موجها إلى الشعوب العربية المحكومة بتركيا وقد جاء فيه:

(١) ان الغرض الذى تهدف إليه بريطانيا وفرنسا من مواصلة الحرب فى منطقة الشرق الأوسط هو تحرير الشعوب (التى طالما ظلمها الاتراك) تحريرا نهائيا وتأسيس حكومات وادارات أهلية تبنى سلطتها على اختيار الاهالى الوطنيين لها اختيارا حرا. وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم.

(٢) وتنفيذا لهذه النيات قد تم الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات وطنية أهلية فى سوريا والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما وكذلك فى البلاد التى يواصلون العمل لتحريرها..

(٣) والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من الحكم، وإنما همهم أن يحققوا بمعونتهم ومساعدتهم النافعة اقامة الحكومات التى يختارها أهلها لانفسهم، وأن يضعوا لهم قضاء عادلا واحدا للجميع، وأن يسهلوا انتشار العلم فى البلاد وتقدمها اقتصاديا وذلك بإثارة همم الاهالى وتشجيعهم، مع ازالة الخلافات التى استخدمتها السياسة التركية.

(٤) هذا ما تعهدت به الحكومتان الحليفتان على القيام به فى البلاد المحررة..

لم يكن وقع هذا التصريح الرسمى الخطير فى نفوس المصريين أقل من وقع مبادىء الرئيس ولسون فازداد الانتعاش حتى بلغ أقصاه وازداد التفاؤل حتى جاوز أبعد مداه.

وقد خفت الاحكام العرفية البريطانية حتى لم يشعر بوجودها انسان فى مصر وأجل تنفيذ أمر التجمهر حتى شعر الناس أنه زال وأخذ المصريون يكثرون من المقابلات والاجتماعات فى الأندية وفى المنازل ويتناقشون خفية وجهرة ويتحدثون بلا خشية من رقيب أو حسيب.. قالوا وما أكثر ما قالوا..

- لو كانت مصر مستعمرة تركية لنالت حريتها واستقلالها كما وعدت بذلك سورية والعراق فى التصريح البريطانى الفرنسى.

- ولكن مصر دولة مستقلة أصلا وتحت الحماية غصبا وقهرا. وهى حماية باطلة تنقضها نفس التصريحات البريطانية العديدة التى صحبت الاحتلال فى سنواته الأولى، فلاشك مطلقا فى أن مصر ستنال حريتها واستقلالها أسوة ببلاد دونها فى المستوى الدولى بل دونها بمراحل فى مستوى الثقافة والثروة والمدينة والانظمة الإدارية والحالة الاجتماعية.

- لن يقف فى وجه مصر بعد الآن أى معترض، ولن تستطيع بريطانيا نفسها أن تماطل بعد اليوم أو تتمحك بأية تعلة من التعلات.

- ما فى ذلك شك ولا أقل ظل من شك، فالحماية زائلة حتماً والاحتلال

البريطاني زائل بالجلاء حتماً، وأن الاستقلال آت لاريب فيه.

بهذا تحدث المصريون في خلواتهم وفي اجتماعاتهم وندواتهم. وهكذا فكروا في ثقة شاملة كاملة لايشوبها شك أو تردد.

وهكذا شعروا بنشوة وأمل وحماسة معدومة النظير..

وحمل البريد من الخارج الجرائد والمجلات التي صدرت في لندن وباريس وروما وواشنطون.. وفيها شتى الخطب والمقالات والتعليقات وانتشرت في مصر بين المتعلمين بعض ما ورد فيها من الافكار والاقوال وأذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

دعائم المعاملات بين الدول ستقوم في المستقبل القريب على مبادىء الحقوق والحريات والعدل والانصاف.

لايجوز بعد اليوم حكم الشعوب بسلطات مستبدة غير مسئولة أمام ممثلي الشعب.

عهد الغزو والفتح والتوسع قد مضى وانقضى إلى غير رجعة.

الشعوب، لايجوز أن تنتقل السيادة عليها من دولة إلى أخرى باتفاقات أو معاهدات كأنها سلع تباع وتشترى في الاسواق والمؤتمرات.

يجب أن يترك لكل شعب الحق في تقرير نظام حكمه. والحرية في تقرير السياسة التي يراها مؤدية إلى التقدم ومن غير إحراج أو تدخل من دولة أجنبية.

حق تقرير المصير يجب أن يتمتع بممارسته كل شعب، ويجب أن يكون الاساس عند البت في مصير كل أمة.

لايجوز أن الشعوب أو تحكم إلا بمحض إرادتها ورغبتها.

كل هذه الآراء وغيرها كانت غذاء صالحا للنفوس الجائعة إلى الأمل والتشجيع فازدادت ثقة المصريين بالمستقبل الباهر الذي ينتظرهم وينتظرونه لتحقيق أعز الآمال..

رأى لورد ملنر فى حالة مصر النفسية

لعل من المفيد هنا أن أسجل رأى الانجليز أنفسهم فى الحالة النفسية والعقلية التى طرأت على المصريين فى تلك الفترة السعيدة.

كتب ملنر فى تقريره المرفوع إلى الحكومة البريطانية العبارة الآتية:

«أن المبادىء التى جاهر بها الرئيس ولسون ووافق عليها الحلفاء قد أثرت تأثيرا سريعا وعميقا وحاسماً فى الرأى العام المصرى. فقد ظهر أن قبول جميع الدول لفكرة «حق تقرير المصير» جاء مؤكدا ومقويا لمشاعر كانت تختمر فى صدور الطبقات المتعلمة فى مصر من زمان طويل».

إلى أن قال:

ولقد نشطت الحركة الوطنية فى مصر واشتدت عزيمة أهلها بنشر التصريح البريطانى الفرنسى فى أوائل نوفمبر عام ١٩١٨ عن سوريا والعراق فقد جاء فيه أن بريطانيا وفرنسا تنويان تحرير الشعوب التى أنقذت من الظلم العثمانى تحريرا تاما، وأن تنشىء لهم حكومات وطنية تستمد سلطتها من القوانين التى يضعونها من تلقاء أنفسهم ومطلق حريتهم واختيارهم.

« هذ وقد أبان المعتمد السامى البريطانى فى مصر حينذاك أن هذا التصريح وهذه السياسة سيكون لهما صدى قوى فى مصر، هذا فضلا عن أن المصريين كانوا قد شاهدوا قبل ذلك بقليل انشاء مملكة مستقلة فى بلاد العرب التى لايزالون يعتبرونها متأخرة بمراحل فى مدارج الحضارة والارتقاء عن بلادهم التى تضارع بلاد الغرب بعض المضارعة».

والخلاصة أن الحالة المعنوية فى مصر قد بلغت أعلى ذروتها فعم التفاؤل

وأشتدت الآمال، ولم نعد نرى فى مصر خائفاً ولامترددا ولا متخاذلا ولا متشككا ولا يائسا ولا بائسا، بل كنت ترى كل مصرى متحفزا للعمل راغبا فى التكتل منتظرا ظهور الزعيم الذى يتقدم الصفوف ويتولى القيادة والتوجيه والتحدث باسم مصر والمصريين لانهاء الحماية والاحتلال وتحقيق الحرية والاستقلال.

ولم يطل انتظار المصريين، فقد ظهر الزعيم على الفور..



٢- ظهور الزعيم المنت

نحن الآن فى الشهر الاخير من الحرب، شهر أكتوبر سنة ١٩١٨.. انتشر شعور عام بأن الحرب وشيكة الانتهاء وأن شمس السلام تؤذن بالاشراق، فقد انهزمت تركيا واستسلمت، والجيوش الالمانية تنسحب باستمرار من كافة الميادين على غير سابق المهد. وأجمعت أنباء البريد والبرق على قرب عقد الهدنة..

فماذا أعدت مصر لهذا الحادث الجلل بعد أن تفتحت أمامها أبواب الأمل على مصاريعها؟

فى هذه الاثناء برز على كل لسان وفى كل مكان اسم الزعيم المنتظر «سعد زغلول باشا» فقد اجتمعت له صفات ومزايا لم تجتمع لأحد غيره من سائر المصريين أجمعين. إنه وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وقد تم انتخابه لعضوية الجمعية ثم تم انتخابه وكيلا لهذه الجمعية رغم جهود الوزارة فى محاربته ورغم معارضة الانجليز المحتلين فكان هذا النصر المزدوج له رغم العراقيل دليلا على مكانته ونفوذه بين المصريين.

ولقد أثبت بنشاطه وهمته فى جميع جلسات هذه الجمعية انه رجل كفاح وصراع فمقدت عليه زعامة المارضة، وكان مثيرا للاعجاب العام كلما وقف للكلام فى فصاحة وصراحة وقسوة ومنطق متين، شجاعا فى الحق وكثيرا ما تجاوز حدود الاقناع إلى الافحام وسبب للوزراء كثيرا من الاحراج والازعاج بما

كان يأخذه عليهم من القصور والاخطاء.

وقد انتشر على ألسنة أصحابه ومعارفه أن ما خفى من مزايا سعد ومواهبه أضعاف أضعاف ما ظهر منها حتى الآن. رجل فذ ممتاز، له من الشباب نشاطه وجرأته وحماسته، وله من الشيخوخة سنها ونضجها وحكمتها، وله من الرجولة عزم وإرادة لاتلين ولاتستكين، وصراحة تمازجها خشونة يرهبها الصديق والعدو على السواء، وشجاعة تحميه من الجزع والهلع فى الأزمات، فلا يضعف أبدا فى الملمات ويقابل المتاعب كلها بالتحدى ويعتبرها امتحانا لشجاعته وشخصيته وهيهات هيهات أن يسقط فى هذا الامتحان، فاذا واجهته أزمة ارتفع إلى مستواها واتخذ ازاءها قرارا لاتردد فيه وعملا ايجابيا ينتج ثمرات، بينما غيره يضطرب أو ينهار ويصاب بالقلق والارتباك وما إلى ذلك من المشاعر السلبية التى لاخير فيها على الاطلاق. ثم له فى الحياة علم مستفيض وتجارب ثمينة عديدة وله من وطنيته اعتداد رائع بمصريته حمله على كثير من التحدى والمفاخرة بأنه فلاح ابن فلاح من أجداد مصريين اقحاح، وكان شعوره بمذلة الاحتلال وإهانة الحماية شعورا عميقا غاية العمق قويا غاية القوة أليما غاية الالم..

هذا هو الزعيم المنتظر وهذه هى مواهبه وصفاته البارزة المعروفة لاصدقائه وخصومه على السواء وكأنى به وقد فصلته الاقدار تفصيلا رائعا يتواءم مع حاجات البلاد فى حاضرها الرهيب وما يدخره لها الغيب فى مستقبلها القريب.

تأليف الوفد المصرى

مازلنا فى هذا الشهر الأخير من الحرب..

ومصر كلها فى حماسة منتعشة الآمال، وفى نفوس أبنائها غليان وفوران وتوثب وترقب وانفعال وانتظار وسؤال واحد ظل يتردد على كل لسان صباح مساء

عدة أيام، «ما هو الطريق العملى الناجح للمطالبة بحقوق مصر؟».

لقد كثرت الروايات والاشاعات وتبلبلت الافكار إلى حد ما فترة قصيرة من الزمن. فمن قائل أن الأمير عمر طوسون يزاحم الزعيم فى تأليف وفد برئاسته.. ومن قائل أن وفدا يتكون من رجالات الحزب الوطنى.. ثم اختفت الاشاعات فجأة وظهر أن الزعيم سعد زغلول يعمل فى جد ونشاط وفى هدوء وسكون وخفاء على تأليف وفد يكون ممثلا ووكيلا للأمة المصرية..

وقيل أن نواة الوفد قد تكونت فعلا من خمسة وهم:

الزعيم سعد زغلول رئيسا وعبدالعزيز فهمى بك نقيب المحامين والسيد اليمنى فى الجمعية التشريعية وعلى شعراوى باشا عضو الجمعية ومحمد لطفى السيد بك.

والاخيران من رجالات مصر الاكفاء النابهين ومن أصدقاء الزعيم المقربين.

وفى ١٣ من نوفمبر ١٩١٨ ضموا إليهم عضوين آخرين من أعضاء الجمعية التشريعية وهما:

عبداللطيف المكباتى بك ومحمد على علوبه بك.

وبعد ذلك أعلن أن وفد مصر أصبح مكونا من سبعة أشخاص وفى هذه المرحلة من حياة الوفد وضعوا مشروع قانون أخص بالذكر منه خمس مواد وردت فيه وهى:

المادة الاولى: تنص على تأليف الوفد من هؤلاء الاعضاء السبعة.

المادة الثانية: تنص على أن مهمة الوفد هى السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا إلى استقلال مصر استقلالا تاما.

المادة الثالثة: على أن الوفد يستمد قوته من رغبة أهالى مصر التى يعبرون عنها رأسا أو بواسطة مندوبيهم فى الهيئات النيابية.

والمادة الخامسة: تنص على انه لايجوز للوفد أن يتصرف فى المهمة التى

انتدب لها فليس للوفد ولا لاحد من أعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود هذه الوكالة التى يستمد منها قوته وهى استقلال مصر استقلالا تاما وما يتبع ذلك من التفاصيل.

والمادة الثامنة: تنص على أن للوفد أن يضم إليه أعضاء آخرين مراعيا فى انتخابهم الفائدة التى تنجم عن اشتراكهم معه فى العمل.

وفى ٢٠ من نوفمبر قرر وفد السبعة أن يضموا إليهم اثنين معروفين بميولهما الظاهرة للحزب الوطنى وهما مصطفى النحاس بك القاضى بالمحاكم الأهلية والدكتور حافظ عفيفى.

ثم عقد الوفد جلسة بأعضائه التسعة وصدقوا على مشروع قانون الوفد فى ٢٣ من نوفمبر ١٩١٨.

وقد ضم الوفد إليه أعضاء آخرين لاستكمال بعض العناصر التى تمثل طبقات الأمة أو لتحقيق بعض الرغبات وهم: حمد الباسل باشا، اسماعيل صدقى باشا، محمود أبوالنصر بك، سينوت حنا بك، جورج خياط بك، واصف غالى بك، حسين واصف باشا، عبدالخالق مدكور باشا.

هذا وقد أنشأ الوفد لجنة مركزية فى القاهرة برئاسة محمود باشا سليمان وكان سكرتيرها العام عبدالرحمن فهمى بك ومهمتها جمع التبرعات واحاطة الوفد علما بما يهمه من شئون البلاد وتوجيه وتنسيق الجهود الوطنية لخدمة قضية الاستقلال.

فترة حافلة بالاحداث الجسام

فى هذه الفترة التى استغرقها الوفد فى تكوين نفسه وقبل أن يتمكن من اتمام تأليفه وينظم صفوفه وهى فترة استغرقت حوالى الشهرين وقعت أحداث ستة على أعظم جانب من الأهمية:

(١) تغير ظاهر ملموس طرأ على رشدى باشا وتجلى فى مواقفه وسلوكه.

(٢) ظهور مشروع برونيات الذى يهدف إلى تعديل أو تغيير جميع القوانين المصرية واللوائح والانظمة الداخلية بما ينسجم مع الحماية البريطانية ومقتضياتها.

(٣) انتهاء الحرب العالمية وإعلان الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨.

(٤) حدث تاريخى مشهور فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨.

(٥) البدء فى جمع توكيلات شعبية لتأييد الوفد وتمثيله للبلاد.

(٦) طلب الترخيص للوفد بالسفر إلى الخارج فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٨، حدث كل ذلك والوفد لايزال مكونا من تسعة أشخاص وقبل أن يضم إليه الفوج الاخير فى ٢٣ من نوفمبر ١٩١٨.

هل تغير رشدى باشا؟

والآن لابد من بيان موجز عن كل منها والاثار التى نجمت عنها:

ظهور مبادىء الرئيس ولسون فى يناير ١٩١٨، ومن بينها المبدأ الخاص الذى ينص صراحة على ضرورة تحرير الشعوب العربية فى منطقة الشرق الاوسط وتركها حرة تختار نظمها واقامة حكوماتها من غير أى تدخل أجنبى فى شئونها وحرية اختيارها واستقلالها.

وظهور الزعيم القوى القدير سعد زغلول ونزوله إلى الميدان والبدء فى تكوين الوفد.

وانكماش جبروت الانجليز فى مصر فى الشهرين الاخيرين من الحرب بعد أن أصبح النصر مضمونا والحرب وشيكة الانتهاء، فأهمل قانون التجمهور وأصبح المصريون يتحركون ويجتمعون فى غير خوف.

وموجة الحماسة والتفاؤل والنشوة التى عمت جميع المصريين فى جميع أنحاء البلاد.

كل هذه الحقائق والعوامل أثرت فى رشدى باشا أعمق الاثر وما كان فى استطاعته ألا يتأثر حتى لو أراد. ولقد تغير إلى حد كبير ملحوظ هو وعدلى والزملاء فى الوزارات وأصبح رشدى يتقرب إلى الزعيم فكثرت المقابلات بينهما وقيل أنه يؤيد الزعيم فى ضرورة تأليف الوفد وفى ضرورة العمل أو فى ضرورة تنسيق العمل الرسمى من ناحيته والعمل الشعبى من ناحية الزعيم وأصحابه وأنصاره، وهذا التعاون الظاهر قد زاد جو التفاؤل فى النجاح والتوفيق بفضل النيات الطيبة وتضافر الجهود الرسمية وغير الرسمية فى خدمة قضية الجلاء والاستقلال.

هذا كله ذاع وشاع وتجاوبت به الارجاء.

وتشاء المقادير أن تتاح الفرصة لرشدى باشا ليثبت أنه تغير وتطهر وتحرر وذلك برده الوطنى الحازم الحاسم.. الرافض الساخط على برونيات ومشروعه الخطير مما أرضى الزعيم حتى أثنى عليه، وعرف المصريون موقف رشدى فاغتبطوا به وقدروه.

والآن لابد من كلمة عن هذا المشروع..

مشروع برونيات

فى ٢٤ من مارس ١٩١٧ أصدر مجلس الوزراء برياسة رشدى باشا قرارا بتأليف لجنة مشتركة من مصريين وأجانب لاقتراح التعديلات الواجب ادخالها فى القوانين والنظم الادارية والقضائية التى تنسجم مع الحماية البريطانية وقد سميت «لجنة الامتيازات الأجنبية» على سبيل التعمية والتضليل وأفهام الناس أن الغرض هو الغاء الامتيازات الأجنبية وهو ما يشتهيه جميع المصريين.

وسير وليام برونيات هذا كان عماد هذه اللجنة وروحها ومسيرها وكان مستشارا للداخلية حينا ومستشارا للمالية بالنيابة حينا آخر حتى قيام الثورة. وكان إلى جانب هذا المستشار الأول فى دار الحماية البريطانية.

وقد أتمت هذه اللجنة وضع عدة مشروعات قوانين: قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات وقانون المرافعات وبعض فصول من القانون المدنى والتجارى والنظام القضائى الذى وضع على أساس ادماج القضاء الأهلى والقضاء المختلط ليكونا نظاما موحدا مختلطا فى قواعده وبنيانه مع تغليب العناصر الانجليزية، هذا وقد تقرر فعلا أن يكون النائب العام بريطانياً.

ولعل الأدهى من كل ذلك ما سمى فيما بعد «مشروع برونيات» وهو مشروع قانون نظامى لمصر (أى دستور) ينزل بمصر إلى الحضيض من مرتبة المستعمرات التى لاينفرد أهلها بالادارة والتشريع وحدهم بل يشترك معهم الاجانب فى كل ما له علاقة بالادارة والتشريع.

ويتلخص هذا المشروع العجيب فيما يلى:

١ - انشاء مجلس نواب مصرى مؤلف من المصريين، ولكنه استشارى محض أى ليست له أية سلطة قطعية حاسمة فى أى أمر من الأمور.

٢ - وانشاء مجلس شيوخ إلى جانبه يملك وحده السلطة التشريعية كلها ويؤلف من أعضاء رسميين هم الوزراء المصريون والمستشارون البريطانيون، ومن أعضاء منتخبين.. منهم ثلاثون مصريا وخمسة عشر أجنبيا. هذا ولقد لوحظ فى تكوين هذا المجلس أن الأغلبية فيه للاعضاء الرسميين والاعضاء الاجانب المنتخبين والاقلية للاعضاء المصريين المنتخبين، ولاشك أن تنفيذ مشروع كهذا معناه أن السلطة التشريعية فى البلاد قد أصبحت فى أيدى الاجانب وأصبح المصريون غرباء فى بلادهم.

هذا هو مشروع الدستور الجديد فى أساسه كما وضعه الانجليز.

وهذا هو مشروع برونيات الذى تسلمه رشدى باشا فى السنة الأخيرة من الحرب بعد أن طرأ على رشدى باشا ذلك التغيير الحميد الذى أشرنا إليه.

عرف المصريون أمر ذلك المشروع فأجمعوا على السخط عليه والزراية به.

وعرفوا رد رشدى باشا عليه ردا قويا حازما فى رفض واستنكار واستهجان فأجمعوا على الثناء عليه والاعجاب به وعفى الله عما سلف.

كان هذا وذاك من العوامل القوية التى جددت المرارة فى نفوس المصريين فارتفعت موجات السخط على السياسة البريطانية وعلى النيات التى يضمرها الانجليز للمصريين حتى فى هذه الاوقات المبشرة بظهور عهد جديد فى السياسة الدولية ومعاملة الشعوب على أسس من العدل والانصاف.

ولا أعرف مشروعا بريطانيا فى مصر أجمع عليه الشعب ووكلاء الشعب والوزارة القائمة بالسخط والاستنكار والاحتقار كهذا المشروع التعس..

هذا وقد اعترف ملنر نفسه فى تقريره بهذه الحقيقة اذ قال:

«ما كاد المشروع يعرف أمره حتى قامت القيامة عليه واشتد الاحتجاج ضده».

وهكذا مات المشروع وقبر إلى غير رجعة.

انتهاء الحرب وإعلان الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨

عمت الافراح فى جميع أنحاء مصر.

أما الانجليز وحلفاؤهم فقد سكروا وعربدوا فى فرحة لاضابط لها ولم يذكروا إلا دماءهم التى حفظت وحياتهم التى نجت من أخطار الحرب وويلاتها.

وأما المصريون جميعا فقد اشتشرت كذلك فرحتهم لشعورهم بقرب الخلاص من كابوس الاحتلال وذل الحماية وبدء عهد جديد من أجل الاستقلال وعز الكرامة والحياة الكريمة فى أمن وسلام.

وكانت مصر كلها بمزاجها الحاضر وعزمها الاكيد مصممة على إدراك كل ما تريد ولو بذلت فى ذلك الدماء وكل أنواع الفداء.

ولم يضيع الزعيم وقتا، فقد أتصل فى اليوم نفسه برشدى باشا وطلب إليه وساطته لدى المندوب السامى البريطانى لتحديد موعد لمقابلته ومعه اثنان من أعوانه، فنفذ رشدى الرجاء..

حديث ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الذى حدد للمقابلة مع سير ريجنالد ونجت المندوب السامى البريطانى وهو يوم١٣ نوفمبر ذهب الزعيم سعد زغلول باشا ومعه صاحباه عبدالعزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا إلى دار الحماية ودار بينهم الحديث التاريخى الآتى:

بدأ المندوب «سير ريجنالد» الحديث بقوله:

«إن الصلح قد اقترب موعده وإن العالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمانا طويلا، وان مصر سينالها خير كثير وأن الله مع الصابرين، وان المصريين هم أقل الأمم تألما من اضرار الحرب وانهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالا طائلة، وأن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت السبب فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم».

فأجاب سعد باشا:

«ما تكون بريطانيا فعلته خيرا لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها بالشكر». وخرج من ذلك إلى القول: «أن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف اثاره. وإنه يرى أن لامحل لدوام الاحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات وان الناس ينتظرون بفارغ الصبر زوال هذه المراقبة كى ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنوات».

المندوب: حقا أنا ميال لازالة المراقبة المذكورة وسأتصل فعلا مع القائد العام للجيوش البريطانية فى هذا الصدد. ثم استطرد فقال: لما كانت هذه المسألة عسكرية فانه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد العام سيكتب للحكومة البريطانية ويأمل الوصول إلى ما يرضى. ثم استمر قائلا: يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا انه متى فرغت بريطانيا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت إلى مصر وما يلزمها، ولن يكون الامر إلا خيرا.

سعد باشا: إن الهدنة قد عقدت، والمصريون لهم الحق فى أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم.

المندوب: يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم.

إن المصريين فى الحقيقة لاينظرون إلى العواقب البعيدة.

سعد باشا: إن هذه العبارة مبهمة ولا أفهم المراد بها.

المندوب: أريد أن أقول أن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر.

سعد باشا: لا أستطيع الموافقة على ذلك. فإنى ان وافقت أنكرت صفتى فإنى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة، وكان انتخابى بمحض ارادة الرأى العام مع معارضة الحكومة ولورد كتشنر فى انتخابى، وكذلك كان الامر مع زميلى شعراوى باشا وعبدالعزيز فهمى بك.

المندوب: انه قبل الحرب، كثيرا ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من رجال الحزب الوطنى وكان ذلك بلا تعقل ولا رؤية فأخرت مصر ولم تنفعها فما هى أغراض المصريين؟

على شعراوى باشا: إننا نريد أن نكون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر..

المندوب: اذن أنتم تطلبون الاستقلال؟

سعد باشا: ونحن أهل له. وماذا ينقصنا لكى يكون لنا الاستقلال كباقى الامم المستقلة؟

المندوب: ولكن الطفل اذا اعطى من الغذاء أزيد مما يلم يتخمر.

عبدالعزيز فهمى بك:نحن نطلب الاستقلال التام، وقد ذكرتم جنابكم ان الحزب الوطنى أتى من الحركات والكتابات بما اخر ولم يفد فأقول جنابكم أن الحزب الوطنى كان يطالب بالاستقلال وكل البلاد تطالب بالاستقلال، وغاية الامر ان طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان فيها ما يؤخذ

علينا، وذلك راجع إلى طبيعة الشبان فى كل جهة، فلاجل ازالة الاعتراض الوارد على أسلوب الحزب الوطنى فى تنفيذ مبدئه الاساسى الذى هو مبدأ كل الأمم وهو الاستقلال التام، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف فى الاجراءات وأسسوا حزب الأمة وانشأوا صحيفة الجريدة وكان قصدهم هم ايضا الاستقلال التام وطريقتهم أخف فى الحدة من طريقة الحزب الوطنى وذلك معروف للجميع، ولكن الغرض هو خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض، ونحن فى طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه، فإن أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الاسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثا.

المندوب: ولكن نسبة الاميين فى مصر كبيرة لا كما فى البلاد التى ذكرتها إلا الجبل الاسود والالبان على ما أظن..

عبدالعزيز فهمى بك: ان هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم، فان لمصر تاريخا قديما باهرا وسوابق هى الاستقلال التام وهى قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو دقة واحدة كبيرة العدد وبلادهم غنية، وبالجملة فشروط الاستقلال العام تتوافر فى مصر. ومن جهه نسبة الاميين للمتعلمين فان هذه مسألة لادخل لها فى الاستقلال كما قدمت، لان الذين يقودون الامم فى كل البلاد أفراد قلائل وانى لاعرف أن لانجلترا وهى بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبرى بحكومتها، ورجال الحكومة أفراد قلائل وهم الذين يقودونها وهى تتبعهم بلا منافسة فى كثير من الاحوال تسنده ثقتها بهم وتسليمها لهم. ولذلك فان مجلس نوابها ليس كل افراده من العاملين وانما العامل منهم فئة قليلة، فبلاد مصر يكفى أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بادارتها بدليل أن أولى الحل والعقد نسمع منهم فى كثير من الاحيان أن التعليم قد زاد فى البلد حتى صار فيها طائفة من المتعلمين العاطلين. وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم اذا غذى بأزيد من اللازم، فأسمحوا لى أن أقول أن مصر حاليا ليست مما ينطبق

عليها هذا التشبيه، فى الواقع اننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الاطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه، بل هو نفسه الذى يشعر بألم الداء ويرشد إليه، فالمصرى وحده هو الذى يشعر بما ينقصه من أنواع المعارك وما يفيده فى الاشغال العمومية وفى القضاء.

فالاستقلال ضرورى لرقينا.

المندوب: اتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير أمورها؟..

عبدالعزيز فهمى بك: ان معرفة ذلك راجعة إلى المستقبل ومع ذلك اذا كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحل قد أخذت استقلالها، فمصر بلاشك أجدر بذلك.

المندوب: قد كانت مصر عبدا لتركيا، أفتكون أحط منها لو كانت عبدا لانجلترا؟

شعراوى باشا: قد أكون عبدا لرجل فى الحالين ومع ذلك لاتسرنى كلتا الحالتين لان العبودية لا أرضاها ولاتحب نفسى أن تبقى تحت ذلها ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لبريطانيا صداقة الاحرار لا صداقة العبيد.

المندوب: لكن مركز مصر حربيا وجغرافيا يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير انجلترا.

سعد باشا: متى ساعدتنا بريطانيا على استقلالنا التام فإننا نعطيها ضمانة معقولة مع عدم تمكين أية دولة من أستقلالنا والمساس بمصالح بريطانيا. نعطيها ضمانة لتأمين طريقها إلى الهند وهى قناة السويس بأن نجعل لها الاولوية دون غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المخالفة من الجنود.

شعراوى باشا: يبقى أمر آخر وهو حقوق أرباب الديون من الاجانب، يمكن ابقاء المستشار الانجليزى بحيث تكون سلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى.

سعد باشا: نحن نعترف الان أن بريطانيا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية، واننا نعترف لها بالاعمال الجميلة التى باشرتها فى مصر ونحن نطالب باسم هذه المبادىء أن تجعلنا اصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر، اننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك ممثلا لهذه الدولة العظيمة، وعند الاقتضاء نسافر للتكلم بشأنها مع ولاة الامور فى انجلترا، ولانلتجىء هنا إلى سواك، ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانجليزية ونطلب منك بصفتك عارفا لمصر مطلعا على أحوالها ان تساعدنا للحصول على هذه المطالب.

المندوب: قد سمعت أقوالكم وإنى أعتبر محادثتنا غير رسمية بل بصفةودية فانى لا أعرف شيئًا عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد، وعلى كل حال فانى شاكر لزيارتكم وأرجو كل خير».

وهنا شكره الثلاثة على حسن وفادته وانصرفوا حيث كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا. (أى أن المحادثة استغرقت ساعة كاملة).

ملاحظة:

زعم بعض المصريين، أن هولاء الزعماء الثلاثة لم يطالبوا بالاستقلال التام والغاء الحماية عند مقابلتهم للمندوب السامى البريطانى، وانما اكتفوا بالمطالبة بما يشبه تنظيمَ الحماية، وهذا خطأ ولافتراء ظالم، وفيما يلى الدليل القاطع:

الحديث من الوثائق البريطانية

سجل ملنر فى تقريره إلى الحكومة البريطانية اشارة إلى هذا الحديث فقال: «.. فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ زار زغلول باشا ومعهُ اثنان من زعماء الصف الأول فى الحركة الوطنية المعتمد السامى البريطانى وأعربوا له عن رغبتهم فى السفر إلى لندن لعرض قضية الاستقلال التام لمصر»

جمع التوكيلات الشعبية للوفد

لولا رشدى باشا ما كانت قصة هذه التوكيلات وأزمة هذه التوكيلات.

أزمة أغضبت الوفد وأغضبت رشدى وأغضبت الانجليز وكشفت الانجليز، وقد أثبت رشدى بمسلكه فيها أنه يريد أن يخدم الوفد ويتعاون».

وذلك أنه فى مساء اليوم نفسه الذى جرى فيه الحديث بين الزعماء الثلاثة وبين المندوب البريطانى، اتصل رشدى باشا تليفونيا بالزعيم سعد زغلول فى بيته وطلب مقابلته فاتفقا على اللقاء فى نادى محمد على بعد ساعة واحدة من الحديث التليفونى، فلما اجتمعا قال رشدى لسعد أنه قابل المندوب السامى البريطانى فى دار الحماية حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وسأله عن أثر المحادثة فى نفسه فأجابه بأنها كانت ودية وغير رسمية، ثم تساءل المندوب فى شبه استنكار:

«بأى حق وبأى صفة يتحدث ثلاثة من المصريين باسم الشعب المصرى كله؟ قد يكونون من كبار المصريين ولكن هذا لايعطيهم أية صفة للتحدث باسم الأمة وطلبات الأمة».

فأجاب رشدى: «بانهم اعضاء فى الجمعية التشريعية. وأن سعد باشا هو الوكيل المنتخب لتلك الجمعية».

فأجابه سير ونجت المندوب البريطانى: «هذه ليست صفة تعطيهم حق التمثيل والتحدث باسم مصر.. أن الجمعية التشريعية نفسها ليست لها هذه الصفة».

ولم يشأ رشدى باشا أن يجيب بعد ذلك وانتهى الحديث بين رئيس الوزراء والمندوب البريطانى..

هذه الملاحظة العابرة من جانب المندوب السامى البريطانى وهذا الحرص من جانب رشدى باشا على نقلها إلى الزعيم كانا السبب المباشر فى اجتماع الوفد واتخاذ قرار حاسم.

كان الوفد لايزال فى مرحلته الثانية من التكوين، وعدد أعضائه سبعة فقط اجتمعوا برياسة سعد فى صبيحة اليوم التالى أى يوم ١٤ نوفمبر وقرروا ضرورة عمل شىء يثبت لهذا الوفد صفة التحدث عن الامة، ورأوا أن الوسيلة العملية الوحيدة لتحقيق ذلك هى وضع صيغة توكيل يوقعها أعضاء الهيئات النيابية كالجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البلدية وأكبر عدد ممكن من ذوى الرأى من المتعلمين والأعيان وسائر طبقات الشعب، ورأوا بحق أن هذا العمل هو بمثابة استفتاء عام للامة المصرية عن وكالة الوفد عنها، ووضعت صيغة التوكيل بالنص الآتى:

«نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات:

١- سعد زغلول باشا.

٢- على شعراوى باشا.

٣- عبدالعزيز فهمى باشا.

٤- محمد على علوبة بك.

٥- عبداللطيف المكباتى.

٦- محمد محمود باشا.

٧- أحمد لطفى السيد.

ولهم أن يضموا إليهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما».

طبعت هذه الصيغة ليلا بكميات كبيرة جدا وسافر بها عشرات المئات من الشبان إلى جميع أنحاء البلاد، فأقبل الناس فى حماسة بالغة على التوقيع عليها، وعاد بعضهم ومعهم مئات الالوف من الامضاءات إلى منزل الزعيم سعد زغلول. وأخيرا وبعد أسبوع واحد من اجراء هذه العملية التى نفذت على أوسع نطاق وبأسرع ما يمكن وبتأييد شفوى من رشدى باشا إلى المديرين، أدرك

المستشار البريطانى لوزارة الداخلية (مستر هينز) ما تنطوى عليه هذه العملية من أخطار على السياسة الاستعمارية البريطانية المتمثلة فى الحماية، ورأها محاولة ناجحة لتعبئة المشاعر الوطنية المصرية وإلهاب الوعى العام بالسخط الشديد على الحماية والعمل على ازالتها وتكتيل الشعب حول زعامة الوفد، فأصدر الأوامر الشديدة بمنع تداول هذه التوكيلات ومصادرة ما جمع منها واعتقال القائمين بها.

خطابات من الزعيم سعد زغلول إلى رشدى باشا

الاول: بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ وقد جاء فيه:

«ألفت مع جماعة من ثقات الامة ونوابها وأصحاب الرأى فيها وفدا لينوب عنها والتعبير عن رأيها فى مستقبلها، وشرعنا فى جمع هذا الرأى بصيغة توكيل خاص فوق ما للكثير منا من صفقة النيابة العامة، فأقبل الناس على امضاء هذا التوكيل اقبالا عظيما مع السكينة والهدوء، وهذا أقل مظهر نعرفه من مظاهر الاعراب عن رأى الأمة فى مصيرها ولكن قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن امضاء هذه التوكيلات.

إلى ان قال: «والتمس من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم يتمون عملهم المشروع.. الخ».

والثانى: فى اليوم التالى أى يوم ٢٤ نوفمبر، أرسله الزعيم سعد زغلول إلى رشدى باشا وجاء فيه ما يلى:

«ان رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع على التوكيلات بل تجاوزوه إلى مصادرة ما تم التوقيع عليه منها، فالفت نظر دولتكم إلى هذه المعاملة التى يأباها عدلكم ومبادىء العصر الحاضر».

رد رشدى باشا

وفى يوم ٢٥ من نوفمبر رد رشدى باشا على الخطابين قائلا بكل صراحة أن الاوامر انما صدرت بهذا المنع والمصادرة من مستشار وزارة الداخلية وأن السبب يرجع إلى وجود الاحكام العرفية وإلى عبارة التوكيلات مما قد يدعو إلى الاخلال بالنظام العام.

هذا ولهجة الرد وأسلوبه يدلان على تنصل رشدى باشا من تبعة هذه الأوامر والقائها على عاتق المستشار البريطانى.

وفى هذه الازمة الطارئة عم الغضب والسخط جهات ثلاثا.

أظهر الوفد غضبه وسخطه على المنع والمصادرة ولكن حقق ذلك كل ما أراد.

وأظهر الوفد غضبه وسخطه بالتنصل من التبعة والقائها على كاهل الانجليز.

وكتم الانجليز غضبهم وسخطهم على الوفد ورشدى وانكشفت نياتهم السيئة ولا حيلة لهم فى ذلك.

واذا كان الوفد قد فاته اتمام كل ما أراد من التوكيلات فقد سجل رسميا ما هو أهم منها. سجل منعها ومصادرتها بأوامر الانجليز وحدهم، ولايدل هذا المنع وهذه المصادرة إلا على شىء واحد لاثانى له وهو خوف الانجليز من الضياع اذا تمتع المصريون بممارسة حق تقرير المصير وطبقوه كمبدأ أساسى أقره الانجليز ضمن مبادىء الرئيس ولسون، تلك المبادىء التى تظاهروا بالموافقة عليها والاعجاب بها.

الفصل السادس

مشكلة سفر الوفد إلى الخارج



فى هذا الوقت برزت مشكلة المشكلات وأزمة الأزمات ولايمكن أن تنتهى إلا بقارعة على ما يظهر، لقد سبق أن بينت أن السلبية ومشاعرها العميقة قد انتهت بعد أن سادت وعمت منذ نكبت مصر بالاحتلال البريطانى ثم بالحماية، أما اليوم فقد أصبح سلوك المصريين ايجابيا قائما على تحديد الاهداف ورسم الخطط ثم العزم الصادق على العمل مهما تكن العقبات، ومهما تتلاحق التهديدات وتتفاقم الاخطار، وكيف يكون الامر غير ذلك وقد تجلى الأمل الحافز للنجاح وظهر الزعيم القوى الصالح للجهاد وتم تكوين الوفد وكيلا عن الشعب المصرى كله، وتحددت الاهداف فى إلغاء الحماية الكريهة والاعتراف بالاستقلال وانهاء الاحتلال بتحقيق الجلاء، ورسمت الخطط على أساس السفر إلى الخارج والعمل بالعزم الصادق الاكيد بعرض قضية الوطن أمام مؤتمر السلام فى فرسا والعقبة الوحيدة الكأداء الآن هى معارضة بريطانيا المنتصرة لكل ما أستقر عليه اجماع مصر، وهى فى مركز القوة المتحدية هذه المشكلة الكبرى..

لقد مرت هذه المشكلة فى خمس مراحل امتازت كل مرحلة منها بمعالمها الخاصة، ولكن كانت كل واحدة منها مقدمة ممهدة لما بعدها وهى:

أ- مرحلة المحاولات.

ب- مرحلة الاحتجاجات.

ج- مرحلة التحدى.

د- مرحلة النفر والثورة.

هـ- مرحلة الافراج والسفر.

مرحلة المحاولات

المحاولة الاولى: فى ٢٠ من نوفمبر ١٩١٨ طلب الزعيم كتابة من قيادة الجيش البريطانى جوازا له ولاعضاء الوفد بالسفر إلى انجلترا، وكان منح جوازات سفر إلى الخارج من اختصاص السلطة العسكرية البريطانية، فالكلمة الاولى فى البلاد هى لقائد هذه القوات العسكرية.

وفى اليوم التالى ردت السلطات العسكرية أن هذا الطلب سينظر فيه فى أقرب وقت ممكن.

المحاولة الثانية: بعد انقضاء أسبوع واحد أى فى يوم ٢٨ نوفمبر أرسل الزعيم خطابا آخر يستعجل النظر والبت فى طلبه.

وفى اليوم التالى ردت السلطة العسكرية البريطانية بأنه «قد عرضت صعوبات تمنع من اجابة الطلب فى الوقت الحاضر، ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر السلطات باعطائه وصحبه الجوازات التى يطلبونها».

المحاولة الثالثة: فى ٢٩ نوفمبر أرسل الزعيم خطابا إلى المندوب السامى البريطانى ذكر فيه انه كتب إلى السلطة العسكرية البريطانية بطلب جوازات سفر له ولاعضاء الوفد بقصد السفر إلى لندن لمفاوضة أولى الحل والعقد البريطانيين بشأن مستقبل مصر فرفضت تلك السلطة بحجة وجود صعوبات تمنع من اجابة الطلب فى الوقت الحاضر، ورجا المندوب أن يبذل وساطته للحصول على هذه الجوازات سريعا حتى يكون الوفد فى لندن قبل الاسبوع الاخير من شهر ديسمبر.

ومضى يوم أو يومان فلم يرد المندوب السامى البريطانى على هذه المكاتبة ولا هو كلف أحدا من مستشاريه أو كبار موظفيه ليتولى الرد وإنما كلف نائب سكرتيره الخاص أن يرد على زعيم البلاد..

ولما كان هذا الرد بشكله وموضوعه على أعظم جانب من الأهمية فقد رأيت أن أسجله هنا كاملا (مترجما عن النص الانجليزى الذى ورد به).

أول ديسمبر ١٩١٨

كلفت من قبل فخامة المعتمد السامى البريطانى باحاطتكم علما بوصول خطابكم المؤرخ فى ٢٩ نوفمبر الماضى واخباركم بأن فخامته قد رأى بعد استشارة حكومة جلالة الملك انه لايستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية فى هذا الموضوع، وأضيف إلى ذلك انكم اذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم فى مصر بما لايخرج عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل، فالافضل أن مثل هذه المقترحات تقدم كتابة إلى فخامته».

«وبهذه المناسبة ألفت نظركم إلى خطاب سير ملن شيتهام الذى أرسله بناء على أمر الحكومة البريطانية إلى المرحوم السلطان حسين عند توليته عرش مصر».

ج. س. بسميز

(السكرتير الخاص بالنيابة)

رأى الزعيم بحق ورأى معه أعضاء الوفد أن هذا الخطاب وضح فى أسلوبه وفى موضوعه وفى مصدره أو معناه أن الوفد لا يستطيع السفر إلى الخارج بل يظل سجينا فى مصر، ومعناه أيضا أن الوفد يحصر اقتراحاته فى دائرة الحماية وأن يقدمها إلى ممثل الدولة الحامية وهى أمور غير مقبولة ولامعقولة ولامحتملة، وهى مرفوضة رفضا باتا، بل هى أمور مثيرة إلى الدرجة القصوى..

ورأى الوفد أن يسجل اعتراضاته فى خطاب يرسله إلى المندوب السامى نفسه مرة أخرى.

المحاولة الرابعة: فى ٣ ديسمبر أرسل الزعيم خطاب الوفد إلى المندوب السامى البريطانى وفيما يلى أهم ما جاء فيه:

«أبادر بابلاغكم بأنه ليس فى وسعى ولا فى وسع أى عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لاتكون مطابقة لارادة الامة المصرية المعبر عنها صراحة فى التوكيلات التى اعطيت لنا. وإنى ألفت نظركم إلى أن هذه التوكيلات أقبل الشعب على التوقيع عليها فى شغف وحماسة، وكان فى الطليعة كبراء الأمة ومن بينهم اعضاء الجمعية التشريعية والهيئات النيابية الاخرى، وكان من المنتظر أن يصل هذا الاقبال إلى حد الاجماع لولا أن تدخلت الادارة فمنعت تداولها ثم عملت على مصادرتها.

- «وأن من المستحيل علينا أن نصل إلى غايتنا عن طريق مخابرات بسيطة تجرى بيننا وبينكم هنا فى مصر، فإن القضية التى نعدافع عنها يجب أن تعرض بادىء ذى بدء على الرأى العام البريطانى الذى لاشك فى انه فى حاجة إلى الحصول على تفصيلات لايمكن ان يبديها إلا الممثلون الطبيعيون للشعب المصرى ذاته».

- «وإن العراقيل التى وضعت فى سبيل سفرنا من شأنها أن تمنع تحقيق المهمة لاملقاة على عاتقنا وهى مهمة اظهار إرادة الشعب المصرى».

ومضت الايام ولا جواب من ممثل الدولة المحتلة، ولا حتى «من نائب سكرتيره الخاص».

ومع ذلك رأى الوفد أن يقوم بمحاولة محلية أخيرة فقام بها وهو شبه يائس من جدواها بل لعل قصاراها أن تبعد رشدى من حظيرة الانجليز وتقربه إلى صفوف المجاهدين.

المحاولة الخامسة

فى ٤ من ديسمبر أرسل الزعيم خطابا من الوفد إلى رشدى أبلغه فيه خلاصة محاولات الوفد للسفر إلى الخارج وردود الانجليز عليها بالرفض وناشده أن يبذل مساعيه ويستعمل نفوذه كرئيس للحكومة المصرية لتمكين الوفد من السفر.

ولكن هل لرشدى أو لأى مصرى نفوذ أو مكانة عند الانجليز إلى هذا الحد؟ سنرى!! لقد كان من مصادفات الاقدار فى ذلك الوقت بالذات أن رشدى باشا كان من ناحيته معتزما السفر إلى انجلترا ومعه زميله عدلى يكن باشا، ومشروع سفره هذا كان قد بدأ من قبل السلطان نفسه وكان يقصد بسفره هذا أن يعرض مطالب الحكومة المصرية على الحكومة البريطانية.

وماذا كانت مطالب رشدى وحكومته التى أراد أن يعرضها على الحكومة البريطانية؟

إنها لم تكن الغاء الحماية أو انهاء الاحتلال أو الاعتراف بالاستقلال كما يطلب الوفد، وانما هى شىء متواضع جداً وهو الحصول على ما يمكن الحصول عليه من الحكومة البريطانية!!

فإذا كانت الحكومة البريطانية قد رفضت سفر الزعيم والوفد إلى الخارج وهذه هى مطالبهم المحددة الكريهة إلى قلبها المعارضة لأهدافها الاستعمارية فى مصر، فهل يعقل أن ترفض الحكومة البريطانية سفر رشدى وعدلى إلى لندن لمفاوضتها ومطالبهما مقصورة على مجرد الحصول: «على أكثر ما يمكن من الحرية لمصر» كما سجل ذلك رشدى باشا على نفسه فى استقالته بتاريخ ٢ ديسمبر؟

سنرى!!

فى اليوم التالى أى فى ٥ ديسمبر اجتمع الوفد كالعادة فى منزل الزعيم وقد امتاز هذا الاجتماع بأمرين على أعظم جانب من الاهمية:

نبأ استقالة رشدى باشا ووزارته

ذكر الزعيم انه تقابل مع رشدى باشا مساء أمس فى نادى محمد على وسأله عما ينتوى عمله استجابة لخطاب الوفد الذى أرسله له صباح أمس، فأجاب رشدى باشا بأنه قدم استقالته إلى السلطان يوم ٢ ديسمبر لان الحكومة البريطانية رفضت سفره مع عدلى باشا إلى لندن، وأخرج من جيبه صورة الاستقالة وسلمها إلى الزعيم.

وهنا تلا الزعيم نص الاستقالة وقد جاء فيها ما نصه:

«عندما أخذت على عاتقى امام ضميرى وأمام وطنى وأمام التاريخ مسئولية منصبى فى عهد النظام الجديد: عاهدت نفسى عهدا أساسيا أن أطلب من الحكومة البريطانية عند الشروع فى مفاوضات الصلح أكثر ما يمكن من الحرية لمصر، والان وقد أوشكت هذه المفاوضات أن تبدأ طلبت من الحكومة البريطانية بعد تصديق عظمتكم أن نسمع أخوانى فكان جوابها بمثابة التسويف إلى ما بعد الصلح مع أننى بالعكس أرى أن الوقت الحاضر هو الذى ينبغى فيه عرض ما لمصر من الأمانى القومية وتأييده، فلهذه الأسباب أتشرف بتقديم استعفائى بين يدى عظمتكم من رياسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية. وان زميلى عدلى يكن باشا الذى عينتموه لمرافقتى ومهمتى يتمسك بمشاركتى فى هذا الأمر، فهو يقدم شخصيا استعفاءه من وزارة المعارف العمومية».

ثم قال الزعيم انه عندما اطلع على صورة هذه الاستقالة تأثر وتألم لان ردى لم يسجل فيها مسألة منع سفر الوفد الوكيل عن الأمة المصرية، وهى حادثة تاريخية كان يجب أن تذكر فى وثيقة رسمية ولم يسعه إلا أن يقول لرشدى معاتبا:

«انك جعلت من تسويف الانجليز لسفرك سببا لاستقالتك، أفما كان خليقا بك وأكرم لو أنك جعلت من رفضهم لسفر الوفد سببا آخر لاستقالتك وأنك لتعلم أن الوفد هو الوكيل الشعبى المختار المعبر عن رغبات الأمة المصرية؟

فإعتذر رشدى ووعد بذكر ذلك فى استقالته الثانية وقال: ان السلطان دعاه صباح أمس إلى مقابلته وأبلغه بأنه لايوافق على استقالته هذه، وأن المندوب السامى نفسه غير موافق ووعد بأنه سيعيد الكرة مع الحكومة الانجليزية عسى أن يفلح فى تلك المرة، فاذا لم يوفق فإن رشدى مصمم على تقديم استقالته من جديد.

أول قرار خطير يوافق الوفد عليه بالاجماع

بعد أن فرغ الوفد من مسألة استقالة رشدى وتعليقات الاعضاء عليها أبرز الزعيم من جيبه مشروع قرار أعده بنفسه وتلاه وطلب الموافقة عليه وهو مكون من خمس فقرات وهذا نصها:

١- العدول عن فكرة السفر إلى لندن والتحلل من خطة الاقتصار على مفاوضة الانجليز وحدهم.

٢- نقل القضية المصرية إلى الميدان الدولى والاتصال المباشر بممثلى جميع الدول الاجنبية.

٣- السعى الحثيث لسفر الوفد إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح فى فرساي.

٤- الاتصال بالرئيس ولسون ومسيو كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح بشتى الطرق، الوقت بعد الوقت، وفى كل مناسبة مادام أن الوفد سيظل ممنوعا من السفر إلى باريس.

٥- عدم تنفيذ أى أمر يصدر إلى الوفد من السلطات البريطانية عسكرية أو غير عسكرية إذا كان هذا الامر فيه أقل مساس بقضية البلاد، إلغاء الحماية

وإنهاء الاحتلال وتحقيق الاستقلال، أو كان فيه أقل تعطيل لنشاط الوفد وجهاده أو المساس بكرامته وحريته. ووسط الاعجاب الشديد وافق الوفد بالاجماع على هذا القرار الخطير..

وهذا القرار لايحتاج إلى تعليق طويل فهو آية تدل على صدق العزيمة والوطنية وروح التحدى والشجاعة والجهاد حتى الفداء.

مرحلة الاحتجاجات والاستقالات

فتح الوفد بهذا القرار صفحة جديدة فى الجهاد وأسلوبا جديدا فى العمل، ونقل قضية البلاد من ميدان ضيق إلى ميدان رحيب، إلى مؤتمر الصلح فى باريس، وأن مؤتمر الصلح هذا سيفتح أبوابه ويبدأ أعماله يوم ١٨ يناير ١٩١٩ أى بعد شهر ونصف الشهر تقريبا من هذا اليوم الذى عمل فيه الوفد من خطته القديمة ربما حملة سياسية تنفيذية جديدة بفضل قراره الخطير..

فى هذه الفترة القصيرة أرسل الوفد عددا كبيرا من البرقيات إلى رؤساء الدول المدعوة إلى هذا المؤتمر، وكان عددهم ثلاثين دولة وهى التى ساهمت فى الحرب ضد المانيا والنمسا وتركيا، وأخص بالذكر من هذه البرقيات ما يأتى على سبيل المثال لا الحصر لأبين كيف كان أسلوب الوفد فى الاحتجاج والمناشدة طلبا للمساعدة:

برقية احتجاج إلى رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج، «فى ديسمبر»:

يحتج الوفد المصرى بشدة على استبداد السلطات البريطانية فى مصر ومنعهم الوفد الممثل للشعب المصرى من السفر لعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح فى باريس كما يستنكر الوفد ما طلبه المندوب السامى البريطانى بأن يكتفى الوفد بتقديم اقتراحاته الخاصة بطريقة الحكم فى مصر إلى جنابه بشرط ألا تخرج عن دائرة الحماية التى أجمعت الامة المصرية على

رفضها واستنكارها وضرورة الخلاص منها وانهائها. ونرجو أن تعيدوا النظر فى هذا الموقف فى ضوء مبادىء الرئيس ولسون وحق تقرير المصير الذى أعلنتم على الملأ موافقتكم عليه وعليها نرجو ألا يحال بيننا وبين السفر طويلا.

وصول الرئيس ولسون إلى باريس يوم ١٣ ديسمبر:

لقد تسلم يوم وصوله برقية احتجاج من الوفد على منع بريطانيا لمصر من إسماع صوتها والافضاء بمطالبها فى مؤتمر الصلح وذلك بمنع الوفد ممثل الامة المصرية من السفر.

واستطرد الرئيس سعد فى برقيته هذه فقال:

«ان السلطات البريطانية فى مصر طلبت إلينا أن نبدى اقتراحاتنا عن طريقة ادارة مصر بشرط الا تخرج عن دائرة الحماية إلى ربتها بريطانيا وفرضتها على مصر فرضا. إنها بذلك إنما تطلب المحال منا لان مصر لم تقبل ولن تقبل هذه هذه الحماية، بل هى مناهضة حتى للاستقلال الذى كسبناه وتمتعنا به من تركيا، ولايمكن ان يرضيكم ان هذه الحرب التى انتهت فى ضوء مبادئكم يترتب عليها تضييق دائرة الحقوق التى سبق لنا ان كسبناها، بل على العكس يجب أن توسع تطبيقا لمبادئكم الجديدة التى تقضى باحترام حقوق الشعوب وفى طليعتها حق تقرير المصير».

وفى ١٥ ديسمبر أرسل الزعيم سعد احتجاج الوفد إلى جميع ممثلى الدول الاجنبية فى مصر على تعسف السلطات العسكرية فى خنقها للحريات جميعا ومنعها الوفد من السفر إلى الخارج، وانتهى بالجملة الآتية:

«إن كل قرار يمكن أن يتخذ بشأن مستقبل مصر وفى غيبة ممثلى مصر يعتبر عديم الجدوى، فلابد من سماع ممثلى الامة المصرية».

ومع الاحتجاج بيان بتحديد مطالب الوفد الوكيل عن الشعب المصرى، ورجاء بابلاغ هذه المطالب إلى حكومات بلادهم.

بيان بمطالب الوفد

١- تطلب مصر الاستقلال التام:

أ- لان الاستقلال حق طبيعي.

ب- لان مصر لم تهمل قط أمر المطالبة بهذا الاستقلال بل هى قد سفكت فى سبيله دم ابنائها ولقد كان ما حازته من النصر فى ميدان القتال كافيا لرد السيادة إليها، ولا اجماع الدول العظمى فى سنة ١٨٤٠- ١٨٤١ واكراهها على تقبل مطامعها إلى أدنى حد ممكن وجعلها تكتفى بالاستقلال الداخلى فقط وهو مع ذلك واسع النطاق يكاد يبلغ حد الاستقلال التام.

ج- أن مصر تعتبر نفسها خالصة من آخر رباط كان يربطها بتركيا وهو رباط السيادة الاسمية، اذ أصبحت تركيا بسبب نتائج الحرب لاتستطيع التمسك بتلك السيادة.

د- أن مصر ترى أن الوقت قد حان لان تعلن استقلالها التام الذى يؤيده مركزها الجغرافى وأحوالها المادية والادبية.

٢- تريد مصر أن تكون حكومتها دستورية وأن تراعى فى تفاصيل النظام حالة البلاد الخاصة من جهة ما للاجانب فيها من مصالح وأن تقوم بعمل اصلاحات اقتصادية وادارية واجتماعية تستعين على تحقيقها بذوى العلم من أهل البلاد العربية كما كانت تلك عادتها فيما مضى.

٣- تعلن مصر أن امتيازات الاجانب فيها ستحترم بكل دقة واذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو إلى تحوير أليق بمقتضيات الاحوال فانها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقديم البلاد من صيانة المصالح المتطورة بها وتكون فيما نعرضه من ذلك واسعة الصدر غاية فى الاخلاص والمجاملة.

٤- تتعهد مصر بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لاتقل أهميتها

بالنسبة للبلاد الاجنبية ذوات المصلحة مما كان متبعا قبل اتفاقية ١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى.

٥- تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات مفيدا للمحافظة على قناة السويس وحيادها.

٦- تعتبر مصر نفسها حائزة لاكبر شرف بوضع استقلالها تحت ضمانة عصبة الأمم وأن تشترك بقدر ما فيها من الوسائل فى تحقيق مبادىء الدول والحق على النمط الحديث.

نقف الآن عن سرد الحديث على الاحتجاجات من الوفد إلى خارج البلاد وداخلها لنرى ماذا تم فى أمر استقالة رشدى التى لم تقبل توطئة لاعادة الكرة والرجاء من جانب المندوب السامى لحكومته حتى توافق على سفر الوزيرين رشدى وعدلى ولنرى كذلك ماذا عسى أن يكون سلوك رشدى ازاء الوفد فى حالة الرفض أو الموافقة.

ملاحظة: علم الوفد يوم ٢٠ ديسمبر أن رد الحكومة البريطانية على الاستقالة قد وصل.

فى ٢٣ ديسمبر ١٩١٨ قدم رشدى استقالته الثانية إلى السلطان وقد جاء فيها ما نصه: «سبق أن رفع الرجاء إلى عظمتكم ألا تقبلوا استقالتى إلا بعد مراجعة لندن، فلم يكن جوابها الجديد إلا مؤيدا للجواب الأول: لهذا أصررت على الاستقالة، ومن ذلك الحين لم ترد تبليغات رسمية، ولكن حدثت مساع ومخابرات أخرى لم توصل إلى نتيجة ما، وفى هذه الاثناء تألف وفد من أعضاء الهيئات البرلمانية فى البلاد وطلبوا أن يسمح لهم بالسفر إلى لندن للدفاع عن مصالح مصر، فنصحت أن يؤذن لهم فى ذلك وأن نسمع أقوالهم، فلم يصغ لنصحى، ولم يكتفوا بذلك بل أبوا على أنا نفسى أن تسمع أقوالى فيما عساه أن يكون نظام الحماية، لهذا التصرف ستحرم مصر دون غيرها من الامم من أن

يسمع صوتها فى الوقت الذى يبت فيه فى مصيرها.

«وبناء على هذه الاعتبارات يلزمنى أن أعود فألح على عظمتكم مع الاحترام بقبول استعفائى».

●●●

يذكر رشدى- فى هذه الاستقالة- الوفد ولايذكر مهمة الوفد، وكان قمينا به ان يسجلها للتاريخ وأن المرء يتعجب كيف جاز فى عقل رشدى أن يتقدم فى وقت واحد بطلبين متماثلين بهدفين مختلفين:

إنه يطلب سفره إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية وهدفه هو تنظيم الحماية، ويحسب سفر الوفد إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية وهدفه هو إلغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال.

- كيف جاز فى عقله ذلك فيجمع بين النقيضين ولا يرى فى ذلك غضاضة رغم ما فيه من عبث ظاهر وحرج أكيد؟

لو أن رشدى قدم استقالته لسبب غير ذلك السبب وهدف غير ذلك الهدف وترك الميدان للوفد لكى يسافر وحده بناء على طلبه ونصحه لقدم بذلك خدمة عظيمة للوفد وخدمة أعظم لقضية البلاد، ولقلنا انه آثر المصلحة العامة ورفعها فوق كل اعتبار، ولكن ما فعله بهذه الاستقالة (أقل ما يقال عنه) أنه ينطوى على تناقض وإحراج، احراج لنفسه واحراج للوفد واحراج لقضية البلاد.

ومع أنه كان من حسن حظ البلاد فى ذلك الوقت أن الاستقالة لم تنشر ولم يعرف الناس محتوياتها. وكان هذا الجهل سببا فى أن ذاع وشاع أن رشدى قدم استقالته تضامنا مع الوفد فارتفع شأنه وعلا ذكره، واشتدت حماسة الجماهير وتزايدت موجات السخط والغضب على الانجليز.

ولم يمض أسبوع واحد، حتى قدم رشدى استقالته الثالثة إلى السلطان فى

٢٠ ديسمبر وقد جاء فيها ما نصه: «ياصاحب العظمة السلطانية: إن التأجيل فى قبول استعفائى قد يكون من عواقبه تحميل المسئولية التى أردت والتى أريد قطعيا اجتنابها وهى مسئولية قيامى بمنصب الوزير الاول لمصر وعدم اهتمامى مع ذلك بمصيرها فى الوقت الذى سيحصل فيه البت فى أمرها نهائيا. فاتوسل إلى عظمتكم بقبول ذلك الاستعفاء بدون ارجاء، ولكيلا أجعل سبيلا إلى تجديد التسويف أجاهر انه قطعى لارجوع فيه فلم يعد محلا للمفاوضات فيما يتعلق به ولم يبق سوى الاشتغال بتأليف وزارة جديدة.

هذه بلا شك استقالة حاسمة فى ظاهرها ولكنها ليست حاسمة فى طبيعتها لسببين:

الأول: لان الانجليز لم يكن فى استطاعتهم قبولها فى هذه الظروف الخطيرة التى تتحفز فيها مصر للثورة.

والثانى: لان رشدى ليس من قوة الارادة بالقدر الذى تحمله على القطع والبت الحاسم وهو مستعد دائما للتراجع وعرضة لسرعة التأثر وقبول الرجاء.

أما الانجليز فإنهم يدركون تمام الادراك أن محاولتهم تأليف وزارة جديدة بعد رشدى أمر عسير غاية العسر إن لم يكن مستحيلا للاعتبارات الآتية:

١- أن المصرى الذى يقبل تأليف وزارة جديدة، يقبل فى الواقع أن يتحدى الشعور الوطنى الفوار ويعنى أنه موافق على سياسة الحكومة البريطانية وتضامنه معها فى فكرة وضع المسألة المصرية على الرف حتى تنتهى بريطانيا من مؤتمر الصلح فى فرساى وحل كل مشاكلها.

٢- ويعنى أنه موافق على قرار الحكومة البريطانية فى منع الزعيم والوفد من السفر إلى الخارج وحبسهما داخل حدود مصر حتى لايتمكنوا من خدمة قضية الاستقلال.

٣- ويعنى أنه لايؤمن بالاستقلال لبلاده وأنه يؤمن بالحماية البريطانية الكريهة.

٤- وتؤكد البداهة أنه لايوجد مصرى واحد يجرؤ على البروز بهذه المظاهر المخزية ويرتكب جريمة الخيانة السافرة، وبينما وصل الشعور الوطنى إلى درجة الغليان وأوشك على الانفجار.

فماذا يعمل الانجليز؟ لقد عادوا إلى بذل المساعى مع رشدى حتى يعدل عن هذه الاستقالة أيضا، ووعد المندوب السامى ببذل مجهود آخر مع الحكومة البريطانية وقال إنه مسافر إلى لندن قريبا بناء على دعوة الحكومة البريطانية وطلب إلى رشدى أن ينتظر ويصبر قليلا، فقبل رشدى أن ينتظر ويصبر قليلا ووعد بسحب استقالته اذا قبلت الحكومة البريطانية ان يسافر هو وعدلى إلى لندن وأن يسافر الوفد كذلك. ورجا من المندوب السامى أن يرسل إليه برقية بجواب الحكومة البريطانية فى أقرب وقت مناسب بعد وصول المندوب السامى إلى لندن.

فما هى تلك المناسبة لارسال تلك البرقية المنشودة؟

مضى شهر وعشرة أيام على استقالته الاخيرة ولم يرد شىء من المندوب السامى فقدم رشدى استقالته الرابعة فى ١٠ فبراير ١٩١٩ إلى السلطان وجاء فيها ما نصه:

.. على أمر كتابى المرفوع إلى سدتكم العلية بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ الذى ألحجت فيه ذلك الإلحاح مع عصمتكم بقبول استعفائي، قد كنت رضيت من باب التوفيق بالاتفاق الآتى بيانه: وهو ان صاحب المقام الجليل المندوب السامى ينتهز فرصة سفره إلى لندن فيشرح شفهيا للحكومة البريطانية انه بعد وصول الحالة إلى الحد الذى بلغته أصبحت لا أكتفى بما عرض على وقتئذ

من سفرى أنا وزميلى عدلى باشا إلى لندن فى النصف الاول من فبراير وانتى استعفائى لسحب استقائى شرطا اسياسيا وهو إباحة السفر إلى اوربا لمن يطلب من المصريين. ومن ضمن ذلك الاتفاق ورود الجواب عن الحكومة البريطانية بالتلغراف فى بحر مدة مناسبة من وصول المندوب السامى إلى انجلترا وأنه اذا كان هذا الجواب سببا فان عظمتكم تقبلون استعفائى فورا، وأننى فى أثناء هذه الفترة، أباشر بصفة مؤقتة محضة تسيير الأمور المستعجلة، الامر الذى دعانى إلى التوقيع على مرسوم تجميد المحاكم المختلطة منعا لوقف سير القضاء. على انه قد مضى عشرة أيام على الأقل بعد الوقت الذى لابد أن يكون المندوب السامى وصل فيه إلى لوندرة ومع ذلك فلم يصل جواب ما.

«يستحيل على أن أقبل أى تأخير جديد وإننى أعتبر فى حل من القيام ولو مؤقتا بأى عمل حتى ولو كان مستعجلا. فأعود إلى التمسك بكتابى المشار إليه المؤرخ فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٨ والتمس من عظمتكم بكل إلحاح انهاء حالة شاذة قد زاد طول العهد عليها».

هنا قبلت الحكومة البريطانية سفر رشدى وعدلى وأرسلت إليهما الدعوة الرسمية ليكونا فى لندن فى أواسط شهر فبراير. أما سفر الوفد فقد رفضته الحكومة البريطانية مرة أخرى وقررت قرارها السابق من أنه لا فائدة مطلقا من السماح لرجال الوفد بالحضور إلى لندن.

وظلت استقالة الوزارة معلقة أكثر من أسبوعين، فأصر رشدى على موقفه وطلب قبول الاستقالة.

وأخيرا فى أول مارس قبلت الاستقالة، مع رجاء السلطان فى كتابه إلى رشدى على موقفه وطلب قبول الاستقالة.

وأخيرا فى أول مارس قبلت الاستقالة، مع رجاء السلطان فى كتابه إلى رشدى

«الاستمرار فى ادارة الاعمال إلى أن يتم تأليف الوزارة الجديدة». وهذا الرجاء المكتوب أعجوبة الاعاجيب، وزراء سابقون يستمرون فى ادارة أعمال الحكومة من منازلهم ورغم قبول استقالتهم. انه رجاء سلطانى غير قابل للتنفيذ.

وكانت النتيجة أن أعتكف رشدى ووزراؤه فى منازلهم لايمارسون أى عمل من الاعمال واختفت الحكومة المصرية من الوجود وأصبحت جميع الوزارات وأقسامها وفروعها والجيش والبوليس فى يدى الرؤساء الانجليز مباشرة، يأمرون وينهون وينفذون ما يشاءون بغير ضابط أو قانون أو مراعاة لأية مصلحة سوى المصلحة البريطانية وحدها دون سواها.

فترة حاسمة

فى مشكلة السفر إلى الخارج

فترة لاتكاد تتجاوز ثلاثة أشهر بذلت فيها محاولات للسفر إلى الخارج من جانبين: جانب الزعيم والوفد وجانب رشدى وعدلى.

انتهت هذه المحاولات بالنسبة لرشدى وصاحبه فى أول مارس ١٩١٩ ولم تنته بعد بالنسبة للزعيم والوفد.

والان فلننظر كيف عولجت مشكلة السفر إلى الخارج من كل من الجانبين.

إنها عوجلت بأسلوبين مختلفين وانتهت إلى نهايتين متباينتين:

١ - كان أسلوب رشدى أسلوبا سلبيا. رجاء ثم خيبة أمل وتألم ومسالمة وتسليم ثم تقديم الاستقالات على فترات متقاربة أو متباعدة، ولما قبلت استقالته النهائية فى أول مارس خرج من الوزارة ومن الحياة العامة معززا مكرما من السلطان والانجليز كما ظل طوال مدة الحرب معززا مكرما من السلطان والانجليز، ثم انزوى واعتكف عن كل نشاط، وعاش فى داره آمنا فى سربه مطمئنا هانئا ناعما بالحياة، مدخرا نفسه للعودة إلى الوزارة مرة أخرى عندما يحين الأوان.

فمسلكه فى الواقع قائم على الهروب من المسئولية وقبول الهزيمة والاعتزال.

٢- أما مسلك الزعيم والوفد فقد قام على التمسك بالواجب والاضطلاع بالمسئولية ورفض الهزيمة واستمرار النشاط حتى النصر، أو بعبارة أخرى كان أسلوب الزعيم أسلوبا ايجابيا. طلب ثم مغاضبة ومقاومة واحتجاج ثم عمل وكفاح وتحد وصدام ثم اعتقال ونفى وابعاد ثم ثورة وإفراج وانتصار ثم سفر.

بهذا تتجلى طبيعة الرجلين. وتبرز قيمة الاسلوبين. ولهذا كتب التوفيق والنجاح للزعيم والوفد فى حل مشكلة السفر إلى الخارج.

بينما كتب العجز والفشل لرشدى وعدلى.

ولهذا نترك رشدى الان حيث انتهى..

ولنتحدث عن الزعيم والوفد الذين ظلوا وقوفا عاملين فى ميدان الجهاد، معرضين لاشد الاخطار، مستعدين لاقصى الفداء..

لقد ظل الزعيم والوفد فى اجتماعات متصلة الحلقات يوميا، وظهر الزعيم فى حركة دائبة ونشاط متزايد. وتجلى ذلك النشاط الفريد فى برقيات الاحتجاج على نظام الانجليز يرسلها تباعا إلى رؤساء الوفود المجتمعين فى مؤتمر الصلح فى فرساى وفى الاجتماعات يعقدها فى داره أو يحضرها خارج داره، وفى الخطب المثيرة يلقيها وفى البيانات يصدرها إلى ممثلى الدول الاجنبية فى مصر: حتى ضاق الانجليز ذرعا بأمره واشتدت نقمتهم عليه. فماذا يفعلون مع هذا الزعيم الجرىء المستميت الذى لايهاب ولايهمد؟، لقد أكثروا من اجتماعاتهم العسكرية والمدنية وتساءلوا فيما بينهم وهم محنقون: ما فائدة الاحكام العرفية البريطانية؟ وما فائدة كل ما فى أيديهم من وسائل الردع والعقاب والتشريد والتعذيب اذا كان هذا الزعيم المصرى يتكلم ويفعل ما يشاء وينتقد الحماية ويحتج ويفضح الانجليز ويلعنهم كما يريد. مستخفا بهم ولايقيم

وزنا لجبروتهم، ويعلن الاستقلال جهارا نهارا وأنوف الانجليز فى الرغام!! هل يعتقلونه؟ هل يحاكمونه؟ هل يحاصرونه فى بيته؟ هل يعزلونه عن الناس بنقله إلى الريف بعيدا عن العاصمة؟ وهل ينفونه خارج البلاد، وأصحابه البارزون ماذا يفعلون بهم وكيف يشردونهم، ثم أنصارهم وهم أفراد الشعب المصرى كله ماذا يكون أمرهم؟

اسئلة خطيرة والاجابة عنها أشد خطورة، فلنتركها اذن مؤقتا إلى الأيام القليلة المقبلة، فليس بين انتهاء هذه الفترة الحاسمة وبدء الثورة العامة إلا أسبوع واحد.

وما الاسبوع الواحد ببعيد، ثم ما لنا نتعجل الاحداث الجسام؟

علينا أن نذكر ونسجل هنا بعض ما صدر عن هذا الزعيم فى تلك الفترة الحاسمة من برقيات وخطب وأعمال وتحديات حتى لايكون الكلام جزافا فى وصف الحال ومن غير دليل.

الاستمرار فى مرحلة الاحتجاجات

فى ١٠ يناير: أرسل الزعيم برقية إلى مسيو كلمنصو رئيس مؤتمر السلام جاء فيها:

«باسم الانسانية التى تابى أن تكره على أن تنقل من يد إلى يد أخرى كما تنقل ملكية السلع، تناديك من وراء البحار ألا تتخذ سكوتنا الاكراهى الذى هو النتيجة الطبيعية لحبسنا داخل حدود بلادنا، دليلا على رضانا بسيادة الغير علينا وألا تسمح بالحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا.

فى ١٢ يناير: وصل الوفد السورى إلى مصر فى طريقه إلى فرنسا لتمثيل بلاده فى مؤتمر الصلح فى باريس «فرساي» كما وصلت الانباء وذاعت عن

الترخيص لوفود من الهند والحجاز وارمينيا والعراق بالسفر إلى مؤتمر الصلح والاعلان عن مطالبها أمامه. فانتشرت في مصر موجات من السخط والحقد على الحلفاء عامة وعلى انجلترا خاصة، وانى لاميل إلى الاعتقاد بأن فى هذه اللحظة السريعة من يوم ١٢ يناير ١٩١٩ بدأ الشعب وزعماؤه ييأسون من الطرق السلمية التى يتبعونها للوصول إلى الاهداف القومية وفى طليعتها الآن مسألة السفر إلى الخارج.

وبدأ الشباب المصرى فى التفكير الجدى فى الثورة.

وفى ١٢ يناير أرسل الزعيم برقيتين أخريين:

برقية أولى إلى المسير كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح، وبرقية ثانية إلى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية، وهذا نصهما:

«أن الحالة فى مصر لاتطاق، إن الشعب المصرى بأسره من أكبر وزير إلى أصغر فلاح محبوسون داخل بلادهم لايسمح لاحد بالخروج من هذا الحصار الشديد.

ثم استطرد فقال: «انكم انتفعتم فى هذه الحرب برجال مصر وأموال مصر، وصرحتم فى مواطن شتى بان ذلك كان من أجل العوامل التى ساعدت على احراز النصر فى الشرق. والان بينما مصر المساعدة لكم تنتظر أن تعامل المعاملة اللائقة بها وببعض خدماتها لكم، اذ هى تراكم غداة الهدنة تتنكرون لها ظهر المجن، وحبستم اهلها داخل حدودها على الذل والهوان.. قد يكون مسموحا «على المبادىء القيمة» أن يكون رجل السياسة استعماريا، ولكن كيف يسمح اليوم لاحدى الدول أن يعميها حب الاستعمار ويجيز لها حصر أمة عزلاء ليس بينهما حرب، أنتم الذين قبلتم مبادىء الرئيس ولسون؟

مرحلة التحدى

لم يبق إلا خمسة أيام على افتتاح مؤتمر الصلح فى فرساى «باريس» وما زال الوفد عاجزا عن مشاركة مصر بحضور هذا المؤتمر وثورة الغضب ومرارة الكمد تملأن كل الصدور والسخط على الانجليز فاق كل الحدود، ومن اليسير جدا تصوره، ولكن من العسير جدا وصفه وصفا دقيقا.

فاتفق الزعماء على أن يقيم حمد الباسل باشا فى داره لرحبة حفلة شاى يدعو إليها جماعة من ذوى الرأى فى مختلف الطبقات ويلقى الزعيم فى الجمع الحاشد خطبة سياسية فيها من التحدى بقدر ما فيها من الاستفزاز، وفيها من الحقائق التى يجب أن تسجل وتعلن وتنعش المصريين بقدر ما فيها من السخط ضد المحتلين..

وهذه هى أول خطبة سياسية يلقيها الزعيم بعد الهدنة، قال:

« أيها السادة، إنى أشكر زميلى حمد الباسل باشا على أن هيأ هذه الفرصة التى انتهزها لاحدثكم عن تفاصيل هذه الازمة التى تجتازها مصر فى الوقت الحاضر حتى لايفوت بعض أولى الرأى عندنا شىء من اعمال الوفد الذى شرفته البلاد بتوكيلها للسعى فى قضيتها الكبرى، قضية الاستقلال.

«ليست فكرة الاستقلال جديدة فى مصر، بل هى قديمة تتأجج فى قلوب المصريين للشوق الى تحقيقها كلما بدت بسرعة أهل فيه، محبو داره كلما استطاعت القوة ان تخمد أنفاس الحق، وبعد كان الوقت الحاضر أنسب فرصة لتحقيق هذه الفكرة لان رابطة السيادة التركية أخذت تتضاءل حتى لم يبق شك فى انقطاعها، وان الاحتلال الفعلى لا يجد فرصة أنسب من هذه الفرصة لتحقيق رجاء لورد سالسبرى الذى قاله فى ٣ نوفمبر ١٨٨٦، «نحن لانبحث الا عن الخروج من مصر بشرف».

«قلب هذا الاحتلال الذى لم يكن له حق فى البقاء، إلى حماية فى بادى رأى الانجليز ومن غير اتفاق مع مصر، ولكنها هى أيضا باطلة بطلانا عاصيا امام القانون الدولى، ومخالف مخالفة صريحة للمبادىء الجديدة التى خرجت بها الانسانية من هذه الحرب الهائلة، فنحن امام القانون الانسانى أصبحنا احرارا من كل حكم اجنبى فلا ينقصنا الا ان يعرف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال فتزول العوائق التى تقف بيننا وبين التمتع به بالفعل.

«لهذا الغرض السامى المطلق لما فى نفوس المصريين جميعا ألفت أنا وأصحابى الوفد المصرى لنسعى فى الوصول إلى الاعتراف بهذا الاستقلال، ومصرحا بتوكيل الامة ايمانا، وما ضرنا أن أمرت الحكومة الناس بالكف عن تلك التوكيلات وبمصادرتها، لان ما لدينا منها ومن خطاب الوزير الاول الذى تعترف فيه الحكومة بعلمها ما يكفى فى الافادة بأن الامة مجمعة على طلب الاستقلال وإلغاء الحماية. هنا يرد على خاطرى أن اتساءل، هل بأمه حاجة لى أن يطلب رأيها فى الاستقلال؟ هل أمة كمصر مدنيتها أقدم المدنيات وفضائلها الاجتماعية التى تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ظاهرة الاثر من حيث وداعة الاخلاق وحب احترام القوانين والتماثل التام فى الميول، يمكن أن تسأل فى أمر استقلالها من غير أن نجرح مشاعرها المدنية بهذا السؤال؟ وهل أبناء المدنية الفرعونية والمدنية العربية غريب عليهم ان يستقلوا فيشاطروا فى تقدم المدنية فى خطواتها إلى الامام.

«غير أننا كنا مضطرين إلى هذا التوكيل لانه قد عزى إلينا أ ا لانطلب من الحياة الا الدرك الاسفل، أن نعيش آمنين طاعمين كاسين، فكان توكيل الأمة الجواب القاطع على هذا الاتهام.

«منعنا من السفر وصودرت الحرية فى اشخاصنا وفى المصريين جميعا فلم

نغادر مرجعا من المراجع الا احتججنا لديه على هذا التصرف الجائر، وها نحن أولاء لانزال نطمع فى أن يخلى بيننا وبين القيام بمهمتنا بأنفسنا.

«وان ما أؤكده لكم هو أن هذا المنع لم يزد زملائى الا حبا فى التقدم إلى العرض العام، وحده فى تضحية، كل ما تستدعيه من الضحايا، سالكين سبل الحق والعدل وما لنا غيره من سبيل».

وأستطرد بعد ذلك إلى التحدث عن مبادىء الرئيس ولسون وكيف أنها يجب أن تسود العالم، ولبيان مطالب الوفد التى يدعو إلى تحقيقها فقال:

«إن ايماننا بقواعد الحق والعدل هو عدتنا وكفى به عدة، وان إجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة، وما ينقصنا إلا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الامة، ولكن هذا الصوت سيصله حتما ولو من بعيد، يصله فينصت إليه على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذى يعقد بعد أيام قلائل أشبه ما يكون بما سبقه من المؤتمرات، هذا هو النحو الذى ننحوه فى قضيتنا».

وهنا شرح الزعيم مطالب الوفد كما حددها فى بيانه إلى معتمدى الدول الاجنبية فى مصر حوالى منتصف شهر ديسمبر الماضى، ثم شرح رأيه ورأى الوفد فى مسألة السودان والعلاقة الازلية بين السودان ومصر فاوجزها فى جملة صغيرة تغنى عن أطول مقال اذ قال: «ان من الفضلة ان نقرر بأن كل ما نقوله عن مصر ونطلبه لمصر ينسحب على السودان، لان السودان ومصر كل لا يقبل التجزئة، بل إن السودان كما قال المستشار المالى الانجليزى نفسه فى تقريره ١٩١٤: «أن السودان ألزم لمصر من الاسكندرية».

ثم انتقل الزعيم إلى شرح رأيه فى «مسألة الامتيازات الاجنبية» فقال: «قد يطيش الفهم فيظن أن هناك منافاة بين طلب الاستقلال والرضا بالامتيازات الاجنبية. كلا لا منافاة بين الاثنين فى الوجود وإن كان فيه تضييق لدائرة السيادة

العامة التى يقتضيها الاستقلال..» إلى أن قال: «أن تجيب الاجانب فى الاتفاق فى مصر وتسهيل سبل العمل لهم مفيد للبلاد أكبر فائدة، فلنقدم على طيب خاطر مرغبات هذه الاقلية، ولنسهل بما فى طاقتنا سبيل المزاحمة التعليمية والتجارية والصناعية، فانكم لاتتكرون ان هذه القرون الاخيرة قد عزلتنا عن الحركة العالمية بعض الشىء، وأن الاجانب فى مصر صلة أنعم بها من صلة بيننا وبين ينابيع العلم ومواطن الاختراع والاكتشاف، وان مصر المستقلة لابد لها من الدخول فى المسابقة العالمية، ولاشك فى أنه يهمها جدا أن تكون باكورات هذه المسابقة فى بلادها..».

وختم الزعيم هذه الخطبة باقتراح أرسال برقيةإلى الرئيس ولسون بتحيته والاعجاب بمبادئه وبأن المجتمعين «يعرضون عليه قضية مصر التى يتسلط عليها الانجليز تسلطا يأباه أهلها أجمعون».

فوافق الحاضرون على البرقية بالاجماع.

ملاحظة: هذه الخطبة لم تنشرها ولم تشر إليها أية جريدة فى مصر بأمر الرقيب، بل لم تشر إليها أية جريدة أجنبية، ولكن الوفد طبع منها بضعة آلاف نسخة وزعها على الناس فى العاصمة وفى الاقاليم.

ثم لابد هنا من كلمة أخرى يجب أن تقال فى هذه الخطبة بالنسبة للمقاييس الحالية. قد يراها بعض أبناء هذا الجيل أنها خطبة بسيطة أو معتدلة أو لاتدل على الجرأة والاقدام، وقد يراها البعض الآخر أنها خطبة مسالمة غير جديرة بزعيم يقال عنه أنه جرىء مقدام، ولكن هذا الرأى خطأ وظالم معا فى وقت واحد، لأنها بمقاييس الجيل السابق وفى الظروف التى ألقيت فيها من طغيان الانجليز وسيطرتهم على البلاد سيطرة تامة اداريا وعسكريا وعرفيا ومن فتكهم بالمصريين أفرادا وجماعات بسبب أو بغير سبب حتى بالشبهات، ومن

عجز المصريين العجز المطلق عن الدفاع عن أنفسهم، فى هذه الظروف اعتبرت تلك الخطبة مثلا رائعا للشجاعة واثارة الجماهير.

حسبها أنها تناولت الحماية البريطانية بالاستنكار والحكم عليها بالبطلان بطلانا أصليا وتناولت الاحتلال بالسخط عليه والحكم عليه بالبطلان كذلك، وضرورة انهائه فورا، وتناولت الاستقلال ومبادىء ولسون والحريات ومسألة السودان ومصر وقضيتهما المشتركة وعلاقاتهما الخالدة وما إلى ذلك.

أثارت هذه الخطبة المصريين، ونفخت فيهم روحا جديدة زادت وطنيتهم اشتعالا ونزلت على الانجليز كالصواعق اسخطتهم وأذهلتهم، اذ ما كانوا يظنون مصريا كائنا من كان يجرؤ على السخط علنا على الحماية التى وضعوها فوق متناول المناقشات بل فوق كل بحث أو تفكير.

والآن فلننظر كيف تطورت الأمور.

الحكومة البريطانية تسحب مندوبها السامى من مصر.

سافر من مصر فى ٢١ يناير، سير ريجنالد ونجت المندوب السامى البريطانى عائدا إلى بلاده بناء على دعوة من حكومته لاستطلاع رأيه واستشارته.

هذا ما أذيع لتبرير دعوة لم تعقبها عودة..

الحالة العامة قبيل سفره وبعدها

كان سفر المندوب السامى من مصر فاتحة لاستئناف عهد الارهاب البريطانى فى حكم البلاد وعودة العسكريين الانجليز إلى الظهور بالشدة والقسوة والطغيان.. كانت قبضتهم على مصر فى الشهرين الاخيرين خفيفة: خفة ملحوظة لا سيما بعد صدور التصريح البريطانى الفرنسى للعرب فى شهر نوفمبر الماضى وبعد عقد الهدنة وفى اثناء الاستعدادات والتمهيدات لعقد مؤتمر الصلح فى باريس وفى أثناء سفر الوفود لمختلف الدول لحضور ذلك المؤتمر.

خفت قبضتهم حتى تغافلوا وتغاضوا عن أمر التجمهر الذى يحرم اجتماع أكثر من خمسة مصريين فى أى مكان، فأخذ المصريون يجتمعون بالمئات والألوف وبدأت المشاعر الوطنية تلتهب علنا والسخط يظهر جهارا إلى آخر ما رأينا من نشاط الزعيم والوفد.

والآن تغير الحال: امتلأت الشوارع بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح وتجولت السيارات واللوريات الحربية البريطانية فى الشوارع والميادين لمنع المظاهرات ومنع الاجتماعات وكثرت الاعتقالات، فأصابت كل من يهمس بالسخط على الحماية أو التحدث عن الاستقلال.

الاجتماع المحرم

دعا الزعيم فى ٣١ يناير ١٩١٩، بعض ذوى الرأى والمكانة من المصريين إلى اجتماع خاص يعقد فى بيته، وما كانت الدعوة توجه قبل الاجتماع بيومين اثنين حتى سارع قائد القوات العسكرية البريطانية فى مصر فأصدر أمرا عسكريا بالمنع فلم يتم عقد هذا الاجتماع بالقوة القاهرة.. فهل سكت الزعيم؟ هل لان واستكان إزاء هذا المنع بالقوة القاهرة؟

كلا.. انه أرسل فى الحال ثلاث برقيات إلى الخارج، الاولى إلى رئيس الوزارة البريطانية والثانية إلى الرئيس ولسون صاحب المبادىء المشهورة والثالثة إلى مسيو كلمنصو رئيس مؤتمر الصلح فى باريس. وكلها برقيات احتجاج وسخط، ذكر فيها الزعيم عسف الانجليز ومنعهم حتى الاجتماعات الخاصة التى تعقد داخل المنازل وأن السلطات العسكرية البريطانية لاتقيم وزنا لابسط أنواع الحرية الشخصية، مع الرجاء بعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح بعد دعوة ممثلى مصر لسماع رأيهم أسوة بشعوب هى دون شعب مصر، مدنية وثقافة وتاريخا ومكانة وعراقة.

إن الزعيم وأعوانه لايعرفون اليأس ولايفكرون فى الاعتزال والانزواء، وما أكثر الفرص لمن يريد أن يعمل ويجاهد فى خدمة بلاده.

الاجتماع المباح

ومن عجب أن السلطات العسكرية البريطانية التى منعت عقد اجتماع خاص فى منزل الزعيم، أباحت بعد أيام عقد اجتماع عام فى مكان عام هو دار جمعية الاقتصاد والاحصاء والتشريع لكى يلقى أحد المستشارين الانجليز محاضرة نصفها قانونى ونصفها الاخر سياسى خاص بالحماية.

هذه هى فرصة الزعيم ليظهر ويعمل مرة أخرى، وقد ظهر واستغلها إلى أقصى حد يخطر بالبال..

خطبة الزعيم سعد زغلول

فى دار جمعية الاقتصاد والاحصاء والتشريع

فى ٧ فبراير ١٩١٩، أعدت جمعية الاقتصاد والتشريع اجتماعا فى دارها لسماع المحاضرة الثانية للمستر برسينال المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية، وكان معروفا أن المحاضرة ستتناول التشريع الجديد المنسجم مع الحماية البريطانية، فصمم الزعيم على حضور هذا الاجتماع وعلى الخطابة فيه عقب انتهاء المحاضرة تعليقا وتعقيبا على ما يسمعه وبهذا يرفع صوت مصر ببطلان الحماية.

وحضر مع الزعيم جميع أعضاء الوفد وعدد كبير جدا من الوطنيين وغصت القاعة بجمع حاشد من المستمعين ورجال القانون والمحاماة، وكان بين الحاضرين وزير الحقانية ووكيلها والمستشار البريطانى لوزارة الحقانية مستر أيموس.

وما كاد مستر برسينال ينتهى من القائه محاضرته، وكان يلقيها بالفرنسية،

حتى وقف الزعيم وأعتلى منبر الخطابة، وقال ان لديه ملاحظات يريد ابداءها، وبما أن المحاضر يفهم العربية فانه سيلقى ملاحظاته باللغة العربية. واذا بهذه الملاحظات تتقلب إلى خطة وطنية رائعة واذا بالزعيم يقلب الدعاية للحماية إلى الدعاية للاستقلال... قال:

«أيها السادة، انى أشكر حضرة المحاضر على ما قاله من انه يريد أن يكون لمصر فى المستقبل شرع خاص، ولكنى أقول لحضرته أن هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد.. إن أمتنا المصرية ليست من قبيل الاقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة وانما بلدنا بلد له حياة عريقة فى القوانين والشرائع، وأرى أن من حسن الحظ أن يعهد إلى تغيير كلى فى شرعه بدون أن تدعو الضرورة لذلك أو تهدى إليه التجربة والاختيار.

«إن قانون العقوبات المصرى المأخوذ عن القانون الفرنسى جرى عليه العمل منذ زمن طويل. فهو جزء من محصولنا القانونى تشربته أفئدة قضائنا ومحامينا. وسرى فى أخلاق الامة سير الدم فى الجسد. قد يكون فى المشروع الذى تكلم عنه حضرة المحاضر بعض نصوص صالحة فى ذاتها، ولكننى لا أرى محلا لقلب التشريع الموجود الان رأسا على عقب، من الارض إلى السماء ومن السماء إلى الارض، إن فى ذلك ضررا عظيما بما ألفه الناس فى هذه البلاد من المصطلحات القانونية، ولكن يظهر أن المراد هو التخلص من النظريات والتقاليد المؤسسة عليها هذه المصطلحات لاجل وضع نصوص قانونية مكان أخرى موجودة من قبل، ينبغى أولا أن تكون هذه النصوص الجديدة منطبقة مع أخلاق البلاد وعاداتها ومألوفاتها العلمية. وثانيا أن تقوم الادلة على ضرورة وضعها بالاحصائيات وقضاء المحاكم وأراء أهل الفن..

«لست أنكر الفائدة من مناقشة مشروع جديد بهذه الجمعية.

ولكن ألاحظ أن موضوع المناقشة الآن ليس مجرد مذهب علمى أو مسألة بعينها، وانما هو أعظم من ذلك كثيرا، هو أمر يمس حالتنا السياسية والاجتماعية مما لايصح أن يأخذ هذا المبدأ أداة له..» ونستميحكم القول بأنى أخشى كثيرا أن يكون فى بحث هذا الموضوع فى هذه الجمعية العامة خروج بها عما وضعته له، وان يتخذ ذلك وسيلة للقول برضاء الامة بهذا التقنين، وانه يستغنى به عن مناقشات الجمعية التشريعية التى هى الاداة التشريعية النظامية فى البلاد.

«إن حضرة المحاضر قد أشار إلى انه تحول على الجمعية التشريعية مشروع يتضمن تعديلا فى نصوص القانون الخاصة بالضربات والجروح ولم تفعل فيه شيئا. نعم ان هذا المشروع تحول على لجنة الحقانية التى أنا رئيسها، فرأت اللجنة انه يلزمها للامتناع بضرورة التعديلات المعروضة بيانات واحصاءات طلبت من وزارة الحقانية تقديمها إليها، وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى انتهى دور الجمعية ولم ترد هذه البيانات..

«رأيت من واجبى أن أبدى لحضراتكم ما قدمت من الملاحظات ولكن هناك أمر آخر هو أهم ما يجب التنبيه إليه. قد تكلم حضرة المحاضر عن الباب الثانى من الكتاب الثانى من المشروع. وفى هذا الباب ما يتعلق مجاله بسياسة لا وجود لها الان بمصر.. إن بلادنا لها استقلال ذاتى ضمنته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وأعترفت به جميع المعاهدات الدولية الأخرى، وعبثا يحاولون الاعتماد على ما حصل من تغيير هذا النظام السياسى أثناء الحرب.

«انكم أيها السادة تعلمون وكل علماء القانون الدولى يقررون أن الحماية لاتنتج إلا من عقد بين أمتين، تطلب احداهما أن تكون تحت رعاية الاخرى وتقبل الاخرى تحمل أعباء هذه الحماية، فهى نتيجة عقد أى طرفين موجب وقابل، ولم يحصل فى مصر ولن يحصل منها مطلقا شىء من ذلك.

«فى سنة ١٩١٤، أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلها الامة المصرية، فهى حماية باطلة لاوجود لها قانونا، بل فى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها، ولايمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة».

وما كاد الزعيم ينتهى من خطبته ويختمها ببطلان الحماية حتى دوى المكان بالتصفيق الحاد المتواصل من جانب المصريين وهم الكثرة من قضاة ومحامين وموظفين وسامعين. أما الموظفون الانجليز وعلى رأسهم المستشار الانجليزى لوزارة الحقانية والمحاضر نفسه مستر برسيتال فقد فوجئوا مفاجأة قوية، وظهر عليه الغضب والانفعال والارتباك والحيرة والاضطراب، ولكن ماذا يفعلون إزاء هذا الزعيم المصري الجريء الذى صفعهم ورمى بالحماية فى وجوههم وسفه مزاعمهم فى الوقت الذى يتيهون فيه بالنصر وبالثقة العمياء بأنفسهم ويجبرونهم فى مصر..

أنصرف الحاضرون وكانوا فريقين، وخرجوا بحالين.. أما المصريون فقد خرجوا منتعشين مبتهجين باسمين متهللين. وأما الانجليز فقد خرجوا منقبضين مغتاظين عابسين راغبين فى الانتقام.

الشهر السابق للثورة

لقد ثبت للانجليز الان أن الحالة بينهم من جهة وبين الزعيم والوفد من جهة أخرى، قد بلغت غاية الحرج وأصبحت تنذر بالمتاعب التى لانهاية لها وأصبح الناس جميعا من مصريين وأجانب يدركون أن الكفاح قد بلغ أقصاه ولابد من عمل حاسم..

أن المصريين شعبا ووفدا وزعيما، قد أبرموا حبال المزيمة على الاستمرار فى الجهاد مهما بلغت تكاليفه وأخطاره، وأن الوفد لابد أن يسافر إلى الخارج ويتصل بمؤتمر الصلح لالغاء الحماية وانهاء الاحتلال ونيل الاعتراف بالاستقلال، وأما

الانجليز فقد علموا الان علم اليقين أن هذا الزعيم المصرى الجرىء لاينوى أن يقصر جهوده على البرقيات والرسائل التى ينشرها فى الداخل أو يرسلها إلى الخارج وإنما هو رجل مستميت وعنيد ينوى أن يقتحم كل باب ويخطب فى كل اجتماع ويثير الناس باستمرار ولايبالى بالنتائج.. إن ساعة الصدام قد قربت وهى آتية لاريب فيها..

انقضى شهر فبراير كله فى استعدادات على أوسع نطاق من الجانبين، الانجليز والمصريين. كان الانجليز يستعدون للقارعة، ويستعدون لعمليات الفتك الشامل بالمصريين وزعمائهم، وكانوا يعالجون مسألة استقالة وزارة رشدى فى مرحلتها النهائية.. وكانوا يحتلون بجنودهم مواقع أخرى فى المدن والريف غير ما فى أيديهم وهو كثير وفى كل مكان، وكانوا يبثون العيون ويزيدون فى نشر الجواسيس بواسطة بعض الاجانب المستوطنين فى مصر من زمان طويل، يغشون الاندية والقدامى والحوانيت وكل اجتماع كبير أو صغير فى أى مكان. وبدأوا فى مراقبة منازل أعضاء الوفد عامة ومنزل الزعيم خاصة وأحاطوها بما يشبه الحصار نشرا للارهاب ومنعا من الزائرين بقدر الامكان..

ثم كانت امامهم كبرى المشاكل، وهى مشكلة الزعيم والوفد: كيف يحلونها؟ بالاعتقال، بالحبس، بالمحاكمة، بالغرامات، بالنفى، بالمصادرة، بالاعدام، بالتعذيب؟ كل شىء جائز والاستشارات مستمرة بين العسكريين منهم فى مصر وبين الحكومة البريطانية للاهتداء إلى الحل الصحيح.

وكان الزعيم والوفد من جهة أخرى يستعدون لساعة الفداء عن طيب خاطر، واستمروا ينظمون اللجان فى المواصم والريف» ويعملون على تكتيل الشباب بوسائل غير مباشرة، ووقع الاختيار على عدد غير قليل من المطابع لطبع المنشورات الوفدية وتوزيعها على الشعب المتعطش لكلماته.

وانضم عدد كبير من الموظفين المصريين ورؤسائهم إلى الحركة الوطنية فى شكل حماسى رائع حتى اذا وقعت الواقعة كان الشعب كله والموظفون المصريون جميعا على أهبة الاستعداد للعمل والثورة، وكان لهؤلاء الكبار من الموظفين المصريين اجتماعات خاصة بهم، واتصالات بالوفد وبالزعيم بواسطة بعض أفرادهم وبطرق غير مباشرة..

وهكذا كانت روح المجازفة والشجاعة والتحدى تنعش نفوس المصريين جميعا وتصهرهم وتزيد استعدادهم لملاقاة الساعة الحاسمة فى اقبال تغلب عليه الحماسة الفياضة.

كان الاجماع فريدا ورائعا حقا اذ كانوا جميعا شيوخا وشبانا رجالا ونساء يتحدثون عن السجن والاعتقال والموقف فى استهانة واستخفاف كأنها مسائل عادية ومنتظرة. وكل شيء وكل عذاب يهون فى سبيل الوطن، هكذا فكروا وهكذا شعروا وتحدثوا، روح فدائية سيطرت على أفراد الشعب جميعا.

وأخيرا وليس هذا بأقل أهمية من كل ما سبق، أقام الوفد من بين أعضائه لجنتين لاعداد الوثائق والمستندات والمذكرات الضافية المستفيضة عن القضية المصرية قديمها وحديثها لتقديمها إلى مؤتمر الصلح فى باريس عندما يسافر الوفد إلى باريس..

وبهذا أثبت الوفد أن روح التفاؤل وروح الفداء يمكن أن يكونا معا متجاورين ومتعاونين فى كيانه وأنهما لعاملان من أقوى وأنشط عوامل الحياة..

ولعل هذا هو السر فى قوة الوفد وصموده فى وجه بريطانيا وفى نشوة انتصارها فى أكبر حرب خاضتها فى حياتها وفى ذروة قوتها وجبروتها واتساع سلطاتها وعظم نفوذها بين الدول جميعا.

الفترة القاصمة الحاسمة

نحن الان فى أول مارس سنة ١٩١٩، وليس بيننا وبين الثورة إلا أسبوع واحد، كيف انقضى هذا الاسبوع باحداثه الجسام؟ فلأذكر أهم الاحداث يوما بيوم.

اليوم الاول فى أول مارس: قبلت استقالة رشدى ووزرائه كما سبق أن بينا، وبدأ السلطان والانجليز يفكرون ويعملون لاختيار خلف له يؤلف الوزارة الجديدة.

قنبلة الوفد الاولى

كتاب الوفد إلى السلطان

فى اليوم الثانى فى ٢ مارس:

أرسل الوفد كتابا إلى السلطان هذا نصه:

ياصاحب العظمة

« يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الامة ما يلى:

«لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحق والعدل اساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فى حكم نفسها أخذنا على عاتقنا السعى فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها امام مؤتمر السلام مادام أن حق الاقوى قد زال من ميدان السياسة، ومادامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لان الحماية التى اعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الامة المصرية باطلة، ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب.. واعتمادا على الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم فى صف القائلين بحماية حرية الامم الصغرى لا يكون لدى مؤتمر السلم ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها.

«عرضنا رغبتنا فى السفر، على كبير وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه أننا انما نعبر عن رأى الامة كافة، فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفه، ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء فى منصبه فى حين أن الشعب يصادر فى مشيئته، أستقال هو وزميله صاحب المعالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما.

«ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما فى وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن أحد يتوقع أن يكون أخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى الالغاء وتمكينا للعقبة التى ألقيت فى سبيل الإدلاء بحجة عدم الذهاب إلى المؤتمر وإيذانا بالرضى بحكم الأجنبى علينا إلى الأبد».

«قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرض أبيكم العظيم الذى خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين، ولكن الامة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرض فى زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لإرادة الامة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب لخير بلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا إلى الأمة فى هذا الظرف العصيب».

«إننا نطلب منكم يا أرشد أبناء محررنا الكبير محمد على، أن تكون لها العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك فإن همتكم أرفع من أن تحددها

الظروف. كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل»؟

«عفوا يا مولانا، قد تكون مداخلتنا فى هذا الأمر وفى غير هذه الظروف غير لائقة، ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الأمين».

«أن لمولانا أكبر مقام فى البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها. وفيه أكبر رجاء لها وأنا لانكذبه النصيحة إذا تضرعنا إليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قرارا نهائيا فى أمر الأزمة الحالية، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد فى رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها ألا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة بين الامة وبين طلبتها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة. لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التى هى الآن أشد ما تكون رجاء فى استقلالها، وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدى الاستعمار، والتى تطلب إليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها، وأنه على ذلك لقدير».

«وأننا نتشرف بأن نرفع عبارات الإخلاص إلى مقام عظمتكم الكريمة».

توقيعات

سعد زغلول وجميع أعضاء الوفد

هذا الكتاب رجاء وتضرع ونداء فى ظاهره، أما فى باطنه فهو احتجاج وتحد وإنذار..

احتجاج على السلطان لأنه قبل استقالة رشدى، وهذا القبول ينطوى على أمرين خطيرين: الأول، منع الوفد من السفر إلى الخارج منعا نهائيا حتى لا

يحضر مؤتمر الصلح فى باريس ويعرض قضية إلغاء الحماية وإنهاء الاحتلال والاعتراف بالاستقلال.. والثانى، حرمان مصر دون سائر الدول من أن يسمع صوتها فى الوقت الذى يبت فيه فى مصيرها كما سجل ذلك رشدى فى استقالته.

وتحد للسلطان حتى لا يفكر أو يحاول تعيين خلف لرشدى وأنه لن يجد مصريا يقبل على ضميره أن يخرج على إجماع الأمة ويرتكب خيانة وطنية كبرى..

ثم إنذار للسلطان حتى لا يخرج هو نفسه على هذا الإجماع وأن من الواجب عليه أن يحترم إرادة الأمة مهما تكن ظروفه الخاصة وأن ينضم إلى جانب أمته إذا لزم الأمر.

هذا كتاب ناعم فى ملمسه غاية النعومة ولكنه خشن غاية الخشونة فى معناه ومغزاه والغاية منه. معناه مطالبة السلطان أن يؤثر الوقوف إلى جانب الأمة، فهذا هو واجبه ومغزاه ألا تكون فى مصر أية حكومة مصرية بعد اليوم. والغاية منه كشف الإنجليز أمام العالم أجمع وفضيحتهم فى الأوساط الدولية، إذ تظهر مصر فى هذه المرحلة

متحدة شعبا وقيادة ووزارة مستقلة وسلطانا، ويظهر الإنجليز فى صف معارض، يحكمون مصر بالعنت والاستبداد والحديد والنار. حينذاك يرى العالم الاستعمار البريطانى على حقيقته ويفهمون معنى حمايته وفى ذلك خير دعاية لمصر بل فى ذلك خير دفاع عن قضيتها لايقل عن دفاع الوفد أمام مؤتمر السلام.

٣- اليوم الثالث ٣ مارس:

تكهرب الجو اذ منعت الرقابة البريطانية نشر كتاب الوفد إلى السلطان بل حتى مجرد الإشارة إليه، ولكن هذا لم يمنع أن قامت بعض المطابع فى الخفاء

بطبع مئات الألوف منه ووزعت على أوسع نطاق وأصبحت النسخ فى متناول الناس جميعا فى المدن والريف، فى المحافظات وجميع المديريات. بينما يصادر البوليس النسخ إذا وجدها ويعتقل حامليها أو قارئيها إذا عثر عليهم، واشتدت حماسة الناس وجاوزت أبعد مداها..

ويجتمع الإنجليز صباحا وظهرا ومساء فى مركز القيادة البريطانية وفى دار الحماية ونشطت الدوريات البريطانية فى جميع الشوارع والميادين..

قنبلة الوفد الثانية

احتجاج الوفد لدى ممثلى الدول الأجنبية فى مصر

٤- اليوم الرابع ٤ مارس:

فى هذا الجو المكهرب وجه الوفد ضربة ثانية قاصمة للإنجليز، فقد أرسل الزعيم صباح اليوم الاحتجاج الآتى نصه باللغة الفرنسية إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر:

جناب المعتمد:

«قضى الأمر وبلغ المسف غايته، لم ينفع مصر أن كانت مشرقا لأقدم أشعة المدنية فى العالم، ولا أنها زينت صحف التاريخ بآثار مجدها الخالد، لم ينفعها أن نالت حريتها من قبل بسفك دماء أبنائها، ولا أنها مازالت دائبة يوما بعد يوم من عهد محمد على الكبير إلى الآن على أن تستعيد المركز الذى لها حق الوجود فيه بين الأمم، لم ينفعها ما قدمته لقضية الحلفاء أثناء الحرب من معونات متنوعة أفادتهم أعظم فائدة وأعترف بفضلها ساستهم وقوادهم، ومع ذلك افتتحت بريطانيا العظمى تلك الحرب بإنزالها بمصر أشد ضروب التصرفات السياسية ظلما وهو إعلانها الحماية. لم ينفع مصر ما لها من وحدة العنصر ونبوغ الطبقة

الراقية، وما عليه أهلها من الشغف بالنظام وحب الحرية والتسامح العظيم، تلك الخصائص التى تجعلها جديرة بالاستقلال..

«إذن فكل شيء يجب أن يتوارى أمام مطامع الاستعماريين اللامتناهية. أن المصريين دون جميع الأمم التى غيرت الحرب مركزها السياسى، هم وحدهم الذين بطشت بهم يد القوة فحرمتهم حتى من حقهم فى أسماع صوتهم فى مؤتمر السلام: ظلم صارخ يزيد فى إيلامه للأنفس ما يصلنا كل يوم من الأنباء عن المطالب القومية التى يعرضها على المؤتمر نواب الحجاز وأرمينيا وفلسطين وسوريا والعراق ولبنان، تلك البلاد التى كانت بالأمس ولايات تركية.. ها نحن وحدنا محكوم علينا بالبكم نعلك فيه شكيمة الغيظ والحزن المبرح نلبس ثياب الحداد كمدا على حريتنا المسلوبة..

«إن الدول التى تسومنا هذا الخسف ما لبثت أن قررت نهائيا قطع الطريق علينا إلى المؤتمر، ساخرة بوعودها كأنها لم تقصد بتلك الوعود سوى أن تفوت على الأمة فرصة نفيسة وأن تخيب آمال بنيها.

«إن الوزارات التى اندفعت بوطنيتها إلى انتهاج ما يوافق القضية المصرية قد اضطرت إلى الاستقالة لأنها لم تستطع المتابعة على مثل هذا الانتهاك اللاحق بأقدس حقوقنا ونحن نعتقد أنه لا يوجد مصرى واحد جدير بأن يدعى مصريا يستطيع أن يؤلف وزارة يكون مفروضا عليها حتما أن تسير على برنامج يومى إلى خنق مصر والقضاء على البقية الباقية لها من الحقوق..

«إننا أبلغنا جنابكم من قبل أمانى البلاد ومطالبها، فمن الفضلة تكريس بيانها الآن، وغير خاف على جنابكم أيضا جميع أساليب الدهاء المستعملة لابتلاع مصر جملة تحت ستار ما يسمونه إصلاحات سياسية وقضائية وادارية وليس يعنينا الآن إلا أن نشهدكم على المعاملة الجائرة التى ترزأ بها مصر كل

تبلغوا حكومتكم انه على الرغم من العهود التى التزمت بها بريطانيا على رؤوس الأشهاد، وعلى الرغم من المبادىء التى أقرها الحلفاء بالإجماع، مازالت فى العالم أمة واحدة تتحكم فيها القوة الغاشمة لخدمة مصالح لا تتفق مع دواعى المدنية، بل هى أقل اتفاقا مع كل مبادىء الحق والإنصاف».

الجو يتكهرب إلى درجة الانفجار

اليوم الخامس: ٥ مارس:

طبعت صور من هذا الاحتجاج ووزعت بنفس الطريقة التى اتبعت فى كتاب الوفد إلى السلطان، ولم يعد هناك الآن أقل شك فى أن الوفد بدأ المعركة مع الإنجليز بقنبلتين مصريتين، وما هى إلا ساعات معدودات حتى يبدأ الصدام.

إنذار السلطات العسكرية البريطانية

اليوم السادس: ٦ مارس:

استدعى ميجر جنرال واطسون قائد القوات العسكرية البريطانية فى مصر صبيحة هذا اليوم، الزعيم سعد زغلول وأعضاء الوفد للحضور إلى مركز القيادة بفندق سافوى بميدان سليمان باشا. وفى الموعد المحدد فى الساعة الثالثة بعد الظهر عقد الاجتماع وكانوا جميعا وقوفا فألقى عليهم القائد البريطانى البلاغ الآتى باللغة الإنجليزية وهذه ترجمته:

«علمت أنكم تضمون مسألة وجود الحماية موقع المناقشة، وأنكم تقيمون العقبات فى سير الحكومة المصرية تمت الحماية بالسعى فى منع تشكيل وزارة جديدة، وحيث إن البلاد لاتزال تحت الأحكام العرفية «العسكرية» لذلك يلزمنى أن أنذركم أن أى عمل منكم يرمى إلى عرقلة سير الإدارة، يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية».

وبعد الفراغ من تلاوته بالإنجليزية ألقى ترجمته بالفرنسية ضابط بريطانى.

وأراد الزعيم أن يتكلم فرفض الميجر البريطانى أن يسمع وقال بالإنجليزية «لامناقشة»، وتركهم وانصرف، ثم تقدم الضابط البريطانى وسلم الزعيم نسخة من الإنذار بنصه الإنجليزى.

قنبلة الوفد الثالثة
رد الوفد على الإنذار البريطانى

لم يتراجع أعضاء الوفد أمام هذا الإنذار وأسلوبه الوقح. بل قاوموه ورفضوه وتحدوه وأعلنوا على الملأ أنه لن يثنيهم عن أهدافهم ولن يفت فى عضدهم، وتجلى ذلك فى مسلكهم الرائع الذى برز للعيان بعد ساعات معدودات.

فقد عقدوا اجتماعا بعد وصولهم إلى منزل الزعيم وأسفر الاجتماع عن برقية أعدوها ووافقوا عليها بالإجماع أرسلها الزعيم إلى رئيس الوزارة البريطانية وفيما يلى أهم ما جاء فيها:

«أن السلطة العسكرية البريطانية أنذرتنا اليوم بأننا نضع الحماية موضع البحث والمناقشة وأننا نعرقل تأليف الوزارة الجديدة وتوعدتنا بأحد العقاب العسكرى. على أنها فيما يظهر تجهل أننا نطالب بالاستقلال التام ونستنكر الحماية ونرى أنها غير مشروعة. أن تلك السلطة العسكرية البريطانية لاشك تعلم أننا أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن أدائه بالطرق المشروعة مهما كلفنا ذلك، وحسبنا أن نذكر لكم هذا التصرف الجائر الذى يجر على أصحابه سخط العالم المتمدين، ونرجو أن تفكروا فى حل هذه الأزمة بسفر الوفد حتى يرتاح بال الشعب المصرى».

حال لا يطاق

لو أن دارسا للتاريخ عنى بجميع الأسباب المتعددة للثورات التى قامت فى هذا العالم قديما وحديثا لوجد أن هذه الأسباب قد اجتمعت وتوافرت فى مصر، خنق الحريات جميعا للانفراد والجامعات، اضطهاد واستبداد ومظالم لا أمل مطلقا فى إزالتها بالوسائل السلمية، عنف الحكام وعنتهم وغطرستهم وجبروتهم وجمودهم ومخالفتهم لكل مبادىء المروءة والإنسانية والحق والعدل والإنصاف، تفور الشعب وغيظه وسخطه المتزايد المستمر على حكامه الإجانب الطغاة ونظام الحكم الفاسد المدمر لكل أمن وطمأنينة وكرامة شعور عام بالمهانة وإجماع الرغبة فى الانتقام. استحالة التوفيق بين الحياة العزيزة وهذه المعيشة الكريهة المحمومة المسمومة التى يضيع فيها كل شعوره بالشرف وحب الحياة، ثم ذكريات مريرة طويلة عميقة مثيرة عن مظالم واعتداءات وإهانات وقسوة واعنات بعد اعنات استمر أكثر من ٢٧ عاما من ١٨٨٢-١٩١٩. لقد توافرت للثورة المصرية كل العناصر والمسببات للثورات قديما وحديثا، فالثورة أمر واقع ليس له من دافع، وغدا تبدأ شرارتها وأن غدا لناظره قريب.

الفصل السابع



شرارة الثورة

اعتقال ونفى الزعيم

يوم السبت ٨ مارس ١٩١٩:

فى الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم حضر إلى منزل الزعيم ضابط بريطانى ومعه مترجم قبرصى وخمسة من الجنود الإنجليز المسلحين بالمسدسات فى سيارة كبيرة بريطانية تحمل مدفعا رشاشا «متراليوز» ووقف ثلاثة من هؤلاء الجنود على الباب الخارجى للمنزل ودخل الضابط والمترجم وجنديان على الزعيم فى مكتبه وهو يجمع أوراقه ويستعد لفترة الراحة بعد الغداء، وأبلغه الضابط الإنجليزى الأمر باعتقاله فورا بلا مناقشة فخرج وركب معهم سيارتهم الحربية وأنطلقوا به إلى ثكنة قصر النيل. وبعد حوالى نصف ساعة لحق به ثلاثة من زملائه هم محمد محمود باشا وإسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا، اعتقلتهم السلطات العسكرية البريطانية بنفس الطريقة من منازلهم فى الساعة الثالثة بعد الظهر كذلك وفى ثكنة قصر النيل حيث قضوا جميعا ليلتهم، وقد أحضرت لهم حقائبهم بملابس تكفى شهرا لكل منهم[1].

وفى صبيحة اليوم التالى ٩ مارس نقلوا إلى بورسعيد فى ديوان خاص بهم

١-تم كل هذا فى سرعة خاطفة ولم تنشر الجرائد أى نبأ عنه ولا حتى مجرد اشارة وأول من عرف خبر الاعتقال هم بطبيعة الحال بقية أعضاء الوفد وقد عرفوه تليفونيا بعد وقوعه بدقائق معدودات.

بقطار الصباح وكان فى حراستهم ضابط بريطانى وعشرون جنديا من الإنجليز شاهرى السلاح، وما أن دخلوا إلى الميناء حتى أصعدوهم إلى باخرة صغيرة وهى نقالة بريطانية تقل ألفين من الجنود البريطانيين فى طريقهم إلى بلادهم.

وبعد ثلاثة أيام من إبحارهم وصلوا إلى جزيرة مالطة التى اختارتها الحكومة البريطانية لتكون لهم منفى ومستقرا..

كتاب احتجاج إلى السلطان
من بقية أعضاء الوفد

فى الوقت الذى كان فيه قطار بورسعيد المقل للزعيم وزملائه الثلاثة، ينهب الأرض نهبا كان أعضاء الوفد الباقون فى مصر مجتمعين فى بيت الأمة «منزل الزعيم» يدرسون مشروع كتاب أعده الأستاذ عبدالعزيز فهمى بك توطئة لإرساله إلى السلطان.

وقبل أن يصل القطار إلى بورسعيد وصل الكتاب إلى يد السلطان فى سراى عابدين وهذا نصه:

«ياصاحب العظمة»:

«يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى يرفع ما يلى إلى مقام عظمتكم السامى؛ قبلتم استقالة الوزيرين رشدى باشا وعدلى باشا فلما فهمنا أن هذا ربما كان الحل الوحيد لمسألة سفر الوفد المكلف بالدفاع عن قضية بلدكم الأسيفة، وأنه حل لا يسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يقبل تأليف الوزارة مادام الوزيران المستقيلان علقا سحب استقالتهما على أمر سفر الوفد، عرضنا لسدتكم العلية متضرعين أن تتعرفوا رأى الأمة قبل البت نهائيا فى هذا الأمر وأن تعيدوا النظر فى الخطة التى اختطها مستشاروكم وأن تبدو للأمة آية من آيات ما جبلتم عليه من حبها فتكونون فى صفها مدافعين عنها لتنال

غرضها. تضرعنا بذلك إلى مولانا وليلتنا متطلعين بكمال الثقة فى أن ابن اسماعيل الجالس على عرش محمد على الكبير سيرينا من نفحاته ما يحقق الأمل..

«غير أنه لم يمض إلا يومان حتى استدعتنا السلطة العسكرية البريطانية فى ٦ مارس، وأبلغتنا أنها علمت أننا نضع مسألة الحماية موضع البحث وأننا نلقى العراقيل فى سبيل الحكومة المصرية تحت الحماية بمحاولة منع تشكيل الوزارة، وأنذرتنا بالعقاب العسكرى الشديد أن أتينا عملا يرمى إلى تعطيل سير الإدارة، ثم منعتنا من مناقشتها فى هذا البلاغ. لم تصب السلطة فى رأيها، فأن هذه الحماية باطلة ولكل إنسان الحق المطلق فى أن يضعها تحت البحث والمناقشة القانونية، وأما عدم نجاح الحكومة فى تشكيل الوزارة فإنما هو النتيجة الطبيعية للخطة التى اتخذت فى مسألة سفر الوفد، فان كل مصرى ذى كرامة لا يمكنه حقيقة أن يقبل الوزارة فى هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده.

«ولم يقف الأمر عند هذا الإنذار، بل قبضت السلطة أمس على رئيسنا سعد زغلول باشا وزملائنا محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وإسماعيل صدقى باشا وزجوهم فى قصر النيل ثم سيق بهم اليوم إلى بورسعيد فإلى حيث لا نعلم، وذنبنا فى ذلك أننا نطلب حريتنا السياسية طبقا للمبادىء الشريفة التى اتخذت قاعدة للسياسة العالمية الجديدة والتى قبلتها بريطانيا نفسها، وبينا أننا لم نتعد حدود القانون، فلم نهيج فى البلاد طائرا ولم نحرك ساكنا، بل قبلنا توكيل الشعب إيانا أن نأتمر بأمره ونسعى لتحقيق مشيئته عند الذين يقولون إنه لم يبق فى العالم شعب سيد وشعب مسود، بل العالم الإنسانى فى الإخاء الإنسانى سواء..

«وفى هذه الاعتبارات يصعب علينا يا مولانا أن نفهم مبرراً لهذه الخطة القاسية التى جرتها علينا السياسة الإنجليزية تحت ثوب الأحكام العسكرية

لتلك الاحكام التى لا ندرى ما يسوغ وجودها إلى الآن بعد الهدنة بأربعة أشهر وبعد أن أمتحنت مصر فى أشد ظروف الحرب حرجا، فلم يكن منها إلا إطاعة للأوامر العسكرية من غير بحث وإخلاد إلى السكينة التى لم يكن لها مثيل حتى فى بريطانيا العظمى نفسها.

«إليكم ياصاحب العظمة وأنتم تتبوأون أكبر مقام فى مصر وعليكم أكبر مسئولية منها، نرفع باسم الأمة أمر هذا التصرف القاسى، فإن شعبكم الآن يحق له أن يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا فى صفه، مدافعين عن قضيته العادلة.

وإننا مع كمال الاحترام نتشرف برفع آيات إخلاصنا إلى مقام عظمتكم الكريمة».

توقيعات أعضاء الوفد

٩ مارس ١٩١٩

هذا الكتاب فى الواقع إنما هو صرخة من الوفد إلى السلطان لكى يتحرك، وعتاب قوى لكى يستيقظ ضميره ويتدخل، ثم هو مناشدة صريحة لكى يقف إلى جانب الشعب فى محنته فى هذه الأزمة العصيبة عسى أن يكون فى تدخله ووقفته فى صف الشعب ما يحمل الإنجليز على العدول عن مظالمهم، وهو على أية حال مكسب هائل لقضية البلاد لو أنه تم. ولكن السلطان لم يتحرك ولم يتدخل ولم يتأثر وظل وليا صميما للإنجليز، فذهبت صرخة الوفد فى القضاء إذ وقعت على أذن صماء..

ومهما يكن من أمر فإن طبع هذا الكتاب وتوزيعه على الشعب بالطريقة السرية المعتادة أحدث دويا قويا فى جميع أنحاء البلاد بعد أن كشف أمر الاعتقال والنفى وكل الحقائق، كشفا واضحا مؤثرا..

وفى اليوم نفسه أرسل الوفد برقيات ثلاثا إلى كل من لويد جورج رئيس

الوزارة البريطانية ومستر ولسون صاحب المبادىء المشهورة ومسيو كليمنصو رئيس الحكومة الفرنسية ورئيس مؤتمر الصلح فى فرساي، وقد انطوت هذه البرقيات الثلاث على الاحتجاج الشديد على أعمال السلطة العسكرية البريطانية فى الاحتجاج الشديد على أعمال السلطة العسكرية البريطانية فى مصر من اعتقال الزعيم وأصحابه الثلاثة ونفيهم إلى مالطة والاستنكار الشديد لتحدى بريطانيا للمبادىء التى قام مؤتمر الصلح على أساسها، ثم العزم الأكيد على مواصلة الوفد فى جهاده لتحقيق استقلال البلاد وإزالة الاحتلال والحماية عن مصر.

فصادر الرقيب البريطانى هذه البرقيات الثلاث، ومنع خروجها من مصر ولكنها طبعت سرا ووزعت فى مصر.

الثورة

فى ٨ مارس سنة ١٩١٩:

كان اعتقال الزعيم وصحبه كما قلنا الشرارة المنتظرة لقيام ثورة عارمة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البلاد، ولكن أى شكل أو أسلوب اتخذته الثورة؟

إن الثورة لم تنفجر بالشرارة انفجار القنبلة ذات الدوى القوى القصير السريع المؤقت، ولا كانت كانفجار البركان يرمى بالحمم المتأججة والمنصهرات المتدفقة ذات التخريب المريع ثم يسكن ويخمد..

ولكن الثورة كانت أشبه بحريق هائل شامل بدأته شرارة زحفت وزحفت حتى وصلت إلى هشيم مملوء بالديناميت وشتى أنواع المتفجرات، وهذا هو الوصف الصادق الصحيح لنفسية الشعب المصرى أفرادا وجماعات فى تلك الفترة العصيبة، واستمر الحريق الهائل المدمر يتزايد ويتفاقم وقد بذل الإنجليز أقصى ما يملكون من قوة وجهد وعنف وقسوة لإطفائه وإنهاء الثورة فأزعجهم

ذلك وأعيانهم، فاضطروا اضطرارا إلى الإفراج عن الزعيم وصحبه بعد شهر واحد من اعتقالهم ونفيهم إلى مالطة، أى بعد ثلاثين يوما لا أكثر من قيام هذه الثورة المباركة، وكان ذلك فى ٧ أبريل سنة ١٩١٩.

ولكن مالنا نسارع فنسبق الحوادث، نذكر نتيجتها قبل أن نصف هذه الثورة العارمة الموفقة فى هذا الشهر الأول من قيامها. إنها ثورة شعبية كاملة هائلة لم تعرف مصر لها مثيلا فى تاريخها الطويل فلنر الآن..

لقد مرت الثورة فى مراحل ثلاث تداخل بعضها فى بعض وتفاعل بعضها مع بعض، والعجيب أن المراحل الثلاث استمرت متعاونة ومتساندة طوال الشهر فلم تنته إحداها بظهور الأخرى بل كان من تعاونها جميعها وتساندها وتفاعلها واتساع دائرتها ما جعل لهيبها وسعيرها يعم البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها، ومما جعل أثرها أقوى وأنجع وجعل بركانها أعم وأشمل وأبقى.

المرحلة الأولى: مرحلة المظاهرات العامة

سبق إن قلنا أن الاعتقال تم فى سرعة خاطفة وفى خفية كاملة واستعداد مرتب منظم من جانب الإنجليز، تم كتم الأمر عن الناس أجمعين بدقة مدروسة وحرص معدوم النظير، فمنعت الجرائد حتى من مجرد الإشارة والتلميح إلى تلك الأحداث المزعجة المذهلة، واشتملت سيطرة الرقابة العسكرية البريطانية حتى على وسائل البرق والبريد فما عرف الناس شيئا عما حدث..

هكذا فعل الإنجليز بعد أن فكروا ودبروا وتآمروا وقدروا فسخرت منهم المقادير، ولكن الشرارة قد وجدت على كل حال، وهى ككل شرارة حية أخذت تزحف ثم تزحف، وقد زحفت وتنقلت بالافواه فى سرعة بلغت حد الإعجاز..

حسبك أن تعلم أنه لم يمض يوم واحد حتى عرفته القاهرة كلها، ولم تمض ثلاثة أيام حتى عرفه المصريون أجمعون فى الريف والحضر. ففى اليوم التالى

للاعتقال أى يوم ٩ مارس قامت مظاهرات سلمية فى القاهرة فبدأت بقيامها بوادر الثورة.. قام بها طلبة المدارس العالية، «الحقوق والهندسة والمعلمين والطب والزراعة والتجارة وغيرها» خرجوا من مدارسهم بإعلامهم. ففتك الجنود البريطانيون بهم بإطلاق الرصاص عليهم لتفريقهم فقتلوا وجرحوا عشرات بل مئات. وفى اليوم التالى بل الأيام المتتالية استمرت المظاهرات على نطاق أوسع وأشمل وأكمل قام بها طلبة المدارس جميعا «العالية والثانوية والابتدائية» وطلبة الأزهر والمعاهد الدينية وانضم إلى المظاهرات جميع فئات الشعب: عمال المنائر والسكك الحديدية والمحامون الأهليون والشرعيون ورجال القضاء والأطباء والمعلمون، كما اشترك فى جميع المظاهرات المسلمون والأقباط فى إقبال وحماسة وتضحية على السواء، وكان خطباء المسلمين يدخلون الكنائس ويخطبون فيها، وخطباء الأقباط يدخلون المساجد ويخطبون فيها. فلم يخل شارع ولاميدان فى القاهرة والإسكندرية من مظاهرات قابلها الجنود البريطانيون بقسوة بالغة اذ أمطروا المتظاهرين كل يوم وابلا من رصاص المدافع الرشاشة فسقط عدد كبير جدا من القتلى والجرحى، ولم يكن المتظاهرون حينذاك قد ارتكبوا أية جريمة اللهم إلا مجرد التظاهر السلمى والهتاف بسقوط الحماية والمناداة بحياة الزعيم والنداء بالاستقلال..

هذا العنف الدموى الشديد من جانب السلطات العسكرية البريطانية حتى معاملتهم لمظاهرات جنازات الشهداء.. لم يكن القصد منه إلا سحق الحركة الوطنية وإرهاب المصريين وقتل الروح الوطنية بأسرع ما يمكن، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ زادت المظاهرات عدداً وزاد اشتراك جميع الهيئات والأفراد على اختلاف مراكزهم وأعمارهم حتى السيدات المصريات قمن بمظاهرات ضخمة فخمة فى ١٦ مرس وهن مازلن تحت الحجاب، وقد حاصرهن الجنود فى بعض الشوارع وحول بيت الأمة وتركوهن واقفات محصورات ساعات طوالا

تحت شمس حارة فى يوم عاصف وكان من مظاهر الجلال لهذا النضال الباسل أن المتظاهرين والمتظاهرات ازدادوا إقبالا واستماتة وتحديا واستخفافا بالموت والتعذيب كلما زاد الجنود البريطانيون فتكا بالمظاهرات وتقتيلا وتعذيبا.

روح الوطنية ما أعجبها وما أعمقها! وشجاعة ما أنبلها وما أروعها!! وعقلية فدائية تجلت بوادرها وظهر اتساعها. وليس معنى الروح الفدائية أن يتحمل الإنسان التعذيب والموت فى جرأة واستخفاف فحسب، بل فى أن يصب الإنسان التعذيب والموت على خصومه وأعدائه كذلك، ولقد تجلى ذلك إلى حد ما فى المرحلة الثانوية ثم تجلى إلى أبعد الحدود وفاق كل حسبان فى المرحلة الثالثة من الثورة حيث جرى التقتيل والتعذيب على أوسع نطاق. ورد المصريون الصاع صاعين للإنجليز حتى أرعبوهم وأذهلوهم.

المرحلة الثانية: مرحلة الإضراب العام

بدأت مرحلة الإضراب العام بعد مرحلة المظاهرات بوقت قصير جدا لا يزيد على يوم واحد، بل إن بعض الإضرابات وقعت فعلا فى نفس الوقت الذى قامت فيه أول مظاهرة، فمظاهرات طلبة المدارس العالية وإضرابهم عن الدراسة حدثت جنبا إلى جنب باستمرار، ثم جرت الإضرابات بعد ذلك تباعا على اختلاف جهاتها متتالية متلاحقة متزايدة. أضرب طلبة الازهر والمعاهد الدينية وتلاميذ المدارس جميعا. أغلقت المتاجر والدكاكين. أضرب عمال الترام وسيارات التاكسى وعربات الأجرة «الحناطير» فتعطلت جميع المواصلات داخل العاصمة واقتصر الانتقال سيرا على الأقدام أو ركوبا على الحمير كلما وجدت. ثم أضرب المحامون الأهليون والشرعيون فتعطلت المحاكم وتم بذلك إضراب القضاة وإضراب عمال المنابر «السكك الحديدية» وهم أكثر من خمسة آلاف فتعطلت المواصلات بين القاهرة والمديريات والمحافظات يومين كاملين استطاع

الانجليز بعدهما بواسطة جنودهم السائقين السابقين للقطارات فى بريطانيا أن يعيدوا تسيير بعض القطارات، وكان المضربون ينزلون إلى الشوارع فى مظاهرات بأعلامهم فلم ينقطع سيل المظاهرات يوما واحدا رغم ما استباحه الإنجليز لأنفسهم من الفتك بالمتظاهرين بالمدافع الرشاشة والقبض على العشرات بل المئات لتعذيبهم فى السجون أو لتقديمهم إلى المحاكم العسكرية البريطانية التى كانت تصدر ضدهم أحكاما حارقة نمت عن القسوة البالغة والرغبة فى الانتقام.

ثم أضرب عدد غير قليل من الموظفين فأسرع القائد العام للقوات البريطانية إلى توجيه إنذار شديد اللهجة إليهم، طالبهم فيه بضرورة اجتناب الحركات السياسية والاستمرار فى أعمالهم وإلا عرضوا أنفسهم لأشد العقاب بمقتضى الأحكام العرفية.

هذا ولم تقتصر حركة الإضرابات على القاهرة وحدها بل عمت جميع المدن والمحافظات حتى وقع الشلل فى بعض الأجهزة الحكومية فى بعض المصالح والإدارات.

المرحلة الثالثة - مرحلة الثورة الإيجابية ونشاط

الفدائيين وحرب العصابات وأعمال التقتيل والتحطيم والتخريب فى جميع أنحاء البلاد

رأينا كيف اندمجت الإضرابات فى المظاهرات وأصبحت المرحلتان فى الواقع ظاهرة واحدة شاملة، فالمضربون متظاهرون والمتظاهرون مضربون، وتعطلت الأعمال وماجت الشوارع والميادين بجموع زاخرة من المتظاهرين الساخطين الحانقين وكان فتك الجنود البريطانيين بالمتظاهرين وبالسائرين المشيعين لجنازات الشهداء شنيما فظيعا قاسيا باغيا بوحشية معدومة النظير. حسبى الآن أن أقدم دليلا رسميا مكتوبا فى ذلك الوقت العصيب بأقلام رجال مسئولين

يثبت صحة الأوصاف عن عمليات الفتك الاستعمارية، وهذا نص الوثيقة:

مستشفى قصر العيني: القاهرة في ١٥ مارس سنة ١٩١٩ جناب مدير مصلحة الصحة العمومية «تحولت فيما بعد إلى وزارة الصحة».

«نحن الموقعين على هذا أطباء مستشفى قصر العيني ومدرسة الطب والأطباء الشرعيين لدى المحاكم الأهلية نتشرف برفع هذا لجنابكم «وهو مدير إنجليزي».

إنه يحزننا أن نرى السلطة العسكرية البريطانية قد استعملت ضرب الرصاص والمدافع الرشاشة في تفريق الجماهير المجمعة لغرض سلمي وهي غير مسلحة مطلقا ورأينا من بين المصابين أطفالا ونساء قتلى وجرحى، ولا يمكن مطلقا أن يكون قد وقع منهم أي اعتداء على السلطة، كما رأينا أن عددا ليس بالقليل من الجرحى مصابون إصابات خطرة متهتكة في البطن والصدر مما يدل على أن ضربهم بالرصاص كان اعتباطا وبغير مبالاة، ولم يكن الغرض منه كما هو اللازم مجرد تخويفهم وتفريقهم، مع العلم بأنه كان يكفي لتفريق اجتماعات مثل هذه وليس بها شخص واحد مسلح قط، طرق أخرى غير ضرب الرصاص من المدافع الرشاشة والبنادق جزافا.

«لذلك نحتج أشد الاحتجاج على هذا، ونطلب من جنابكم بصفتكم مديرا عاما لمصلحة الصحة المصرية تبليغ هذا الاحتجاج إلى جهة الاختصاص منعا لما ينتج عن مثل هذه الأعمال في المستقبل خصوصا وأن العاطفة التي دفعت المتظاهرين إلى عملهم عاطفة بشرية توجد في جميع الأمم».

التوقيعات

من جميع الأطباء وعلى رأسهم الدكتور سليمان عزمي

ذهب هذا الاحتجاج صرخة في واد ونزل على آذان بريطانية صماء، وتعرض هؤلاء الأطباء أنفسهم إلى كثير من اللوبو والإنذارات والإعنات والتهديد من

جانب رؤسائهم الإنجليز. فكان إذن لابد من انتقال الثورة إلى مرحلة جديدة حاسمة فإن للصبر نهاية وللاحتمال حدودا، وما كان فى طاقة البشر أن يتحملوا التقتيل والتعذيب والإذلال وهم صاغرون مكتفون بالصراخ والعويل والاحتجاجات والمظاهرات والمكاتبات بالبرق والبريد.

من هنا كان حتما أن تبدأ المرحلة الثالثة الإيجابية حرب العصابات ونشاط الفدائيين وأعمال القتل والانتقام[1] والتحطيم والتخريب على أوسع نطاق لكل ما من شأنه شل الإنجليز فى جميع أنحاء البلاد. فانتشر فى جميع القرى والمدن فى الوجهين البحرى والقبلى كثيرون من الطلبة ورجال الثورة الفدائيين فأصبحت فى حالة غليان للعمل الجدى واستعداد للقيام بعمليات التحطيم والتخريب والتقتيل وإشعال الحرائق فى محطات السكك الحديدية، وقطعت أسلاك البرق والتليفون على أوسع نطاق وانتزعت بعض قضبان السكك الحديدية فى أكثر من مكان، فتعطلت جميع المواصلات والاتصالات وأصبحت المراكب الشراعية فى النيل وسيلة الانتقال الوحيدة بين القاهرة وسائر المدن وقرى الريف..

فماذا يفعل القائد العام للقوات العسكرية البريطانية؟ لقد استفحلت الأمور وخرج الزمام فى حكم البلاد من أيدى المستعمرين أو كاد، ولكنه أصدر ثلاثة إنذارات متتالية نشرت فى جميع الجرائد بالخط العريض ولصقت على الجدران فى جميع الشوارع.

الإنذار الأول: فى ١٤ من مارس يحذر وينذِر بأن كل من يتلف مواصلات

١- فى بحر الأسبوع الأول لهذه المرحلة الايجابية للثورة وقعت حوادث خطف واغتيال لأكثر من عشرين جنديا انجليزيا فى شوارع القاهرة ليلا وخمسة وعشرين باسكندرية واثنين فى بورسعيد حتى اضطر الجنود المسلحون بالمدافع الرشاشة ألا يتحركوا وينتقلوا فرادى بل خمسات وعشرات لمن يسيرون متجولين فى الشوارع حينذاك جن الانجليز من تطور الثورة إلى هذا الشكل الخطير واتخاذها هذا الأسلوب لرهيب وقد ساعد على ذلك تحطيم الناس لعدد غير قليل من فوانيس الشوارع، فاشتد الظلام وأصبحت الشوارع مهجورة فى المدن لاسيما فى القاهرة والاسكندرية فى شكل مقفر وليس فيها إنسان ولا حيوان اللهم إلا الجنود البريطانيون يتنقلون فى اللوريات فى الشوارع والميادين وآخرون يحتلون مداخل الشوارع الكبيرة منها والصغيرة..

السكك الحديدية أو التلغراف أو التليفون أو يلحق أى عطل بها أو يعبث بها بأى وجه من الوجوه يعرض نفسه للإعدام رميا بالرصاص بمقتضى الأحكام العرفية البريطانية.

فماذا كانت النتيجة؟ لقد زادت أعمال التخريب فى قضبان السكك الحديد وأسلاك البرق والتليفون وأحرق عدد غير قليل من محطات السكك الحديدية وحطمت بقية فوانيس النور فى شوارع القاهرة وسائر المدن فى أنحاء البلاد، فتحول الليل إلى ظلام حالك.

الإنذار الثانى: فى ١٧ مارس وجاء فيه ما يلى:

«إن القرى الواقعة بقرب خطوط السكك الحديدية التى يحدث تلف فى قضبانها تكون مسئولة عن جميع نفقات الترميمات. وكذلك التعويضات فى حالة إحراق المحطات أو حدوث نهب وسلب».

فماذا كانت النتيجة؟ ازدادت الحرائق فى المبانى الحكومية وتعددت أعمال التخريب والتدمير وأمتدت إلى مساكن الإنجليز وسياراتهم وخطوط السكك الحديدية التى علق الإنجليز عليها كل أهمية وكل اهتمام.

الإنذار الثالث: فى ٢٠ مارس، وهو أشد وأعنف من الإنذارين السابقين إذ جاء فيه: «كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الأخرى يعاقب عليه بإحراق القرية التى هى أقرب من غيرها إلى مكان التدمير، وهذا آخر إنذار».

فماذا كانت النتيجة؟ اتسعت دائرة التخريب بدل أن تضيق وزاد عدد الحرائق والاغتيال بدل أن يقل. لقد ظهر جليا أن من العبث والسخف الاستمرار فى إصدار مثل هذه الإنذارات التى لم تطفىء حريقا ولم تمنع تخريبا ولم ترهب أحدا بل لعلها زادت الثورة قوة واتساعا وتفاقما وثبت للمصريين الثائرين أنهم الآن على الطريق المستقيم فى الثورة، وأن هذه الأعمال الإيجابية أصبحت كاوية

شاوية للإنجليز ومحطمة لزهوهم وغطرستهم وتحديا سافرا لقوتهم وطغيانهم وجبروتهم وهم الذين خرجت بلادهم من الحرب العالمية الكبرى أقوى نفوذا وأشد بأسا وأوسع سلطانا مما كانت عليه قبل الحرب.

فماذا يفعل الآن القائد العام للقوات العسكرية البريطانية وهو الحاكم بأمره فى البلاد؟ كيف يسيطر على الموقف؟ كيف يعيد الأمن والنظام والاستقرار؟ لقد ثبت بصورة مقنعة واضحة أن الانحلال والتفتت فى الإدارة الحكومية يعمان البلاد كلها وأن حرية العمل قد انتقلت فى الحقيقة إلى أيدى المصريين الثائرين الذين بدأوا الثورة متظاهرين سالمين فأصبحوا الآن عمالقة أقوياء يضربون فى الصميم ضربات مدوخة قاتلة لعدوهم الطاغية.

وفيما يلى ما فعله القائد العام بعد تلك الإنذارات الفاشلة:

١- دعا لمقابلته فى مركز القيادة البريطانية بعض الأعيان والوزراء السابقين وأنذرهم فى غلظة وعنف بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم لتهدئة الأهالى ومنعهم من إحداث القلاقل والقيام بأعمال التخريب حتى لا يضطر إلى الإلتجاء إلى حرق القرى والبلاد وتخريب البيوت وتدمير العمائر وختم انذاره بتحذيرهم من حمله على انتهاج خطة تكون عاقبتها وبالا على مصر كلها.

٢- ا م الإنجليز الطائرات الحربية لحماية خطوط السكك الحديدية نهارا.

٣- استخدموا كذلك كتائب من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة «المتراليوز» لتجوب البلاد فى اللوريات والسيارات المصفحة وكانوا يطلقون الرصاص على كل جماعة يشاهدونها فوقعت خسائر كبيرة من القتلى والجرحى.

٤- منعوا الناس من الخروج من منازلهم ليلا من التاسعة مساء حتى الرابعة صباحا إذ وجدوا بالتجربة أن تخريب الخطوط الحديدية لايحدث إلا ليلا..

٥- منعوا حتى الخفراء المصريين من السهر للمحافظة على خطوط

السكك الحديدية بعد غروب الشمس وتولى القيام بهذه المهمة الجنود البريطانيون.

٦- أرسلوا تجريدات عسكرية تأديبية مسلحة فى لوريات إلى بعض بلاد الوجه البحرى مثل الإسكندرية ورشيد وبورسعيد وزفتى وطنطا والمحلة الكبرى وبركة السبع وقلين وميت غمر ودسوق وشبين الكوم والمنصورة وغيرها وكانت خسائر المصريين جسيمة فى القتلى والجرحى. كما أرسلوا إلى الوجه القبلى تجريدات عسكرية مسلحة بواسطة البواخر النيلية التى حملت معهم كميات كبيرة من مدافع المتراليوز والذخائر الحربية.

٧- أصلح المهندسون الانجليز عددا قليلا من خطوط السكك الحديدية الرئيسية مثل خط القاهرة- الإسكندرية، خط القاهرة- الإسماعيلية- بورسعيد، وخط القاهرة- قنا- الأقصر.

وأعلنوا أنه لايسمح بالسفر على هذه القطارات إلا لفئات معينة وهم الأوربيون المرخص لهم بالسفر إلى الخارج وموظفو الحكومة الذين يحملون معهم ترخيصا موقعا عليه من أحد رؤسائهم الانجليز، والمصريون الذين يحصلون على ترخيص خاص من السلطة العسكرية البريطانية نفسها.

وبعد يومين اثنين من هذا الإعلان وقع تخريب فى أكثر من مكان فى هذه الخطوط الجديدة، فأعلن القائد البريطانى أنه سينفذ وعيده وإنذاره بإحراق القرى المجاورة لمناطق التخرب وإعطاء الأهالى درسا لن ينسوه حتى لا يعودوا إلى مثل هذه الأعمال التخريبية مرة أخرى، وقد نفذ فعلا وعيده بأعمال التقتيل الوحشية على أوسع نطاق وتحصيل الغرامات الباهظة لعمليات الإصلاح الجديدة لمحطات السكك الحديدية التى أحرقت والقضبان التى أتلفت. وأسرع المهندسون البريطانيون فى إصلاح ما خرب وعادت هذه الخطوط إلى الاستعمال مرة أخرى.

القرى التى أحرقت - والفتك بالأهالى على أوسع نطاق

من المسير المؤلم أن نذكر هنا على سبيل الحصر جميع القرى التى احترقت وجميع الأعمال الإجرامية التى ارتكبها الإنجليز ضد الإهالى الآمنين حتى بغير استثناء للشيوخ والنساء والأطفال. فلنذكر بعضها وأهمها على سبيل المثال:

ديروط ودير مواس:

هاجم الثوار القطار القادم من الأقصر إلى القاهرة عند وقوفه فى هاتين المحطتين وكان به بعض الضباط والجنود الانجليز فقتلوا ثلاثة من الضباط وخمسة من الجنود المسلحين ودارت معركة داخل القطار وخارجه فقتل عدد كبير من الثائرين وأشعلت النار فى القريتين ولكن سرعان ما تمكن الأهالى من إطفاء الحريق قبل أن يستفحل ثم عاد الانجليز بعد يومين وأتموا إحراق القريتين.

أسيوط:

بلغت فيها الثورة ذروتها، فتحصن الضباط والجنود البريطانيون فى مبنى المدرسة الثانوية ومعهم من المدنيين البريطانيين حوالى ٢٠٠ شخص مسلح وتمكن الثوار المصريون المهاجمون من اختراق الأسوار الخارجية لمبنى المدرسة وقتلوا عددا من الجنود البريطانيين الذين أطلقوا على الثوار كل ما فى أيديهم من الداخل بالرشاشة فقتلوا مئات منهم، ومع ذلك استمرت المعركة ثلاثة أيام حتى وصلت نجدة عسكرية بريطانية وسبقتها بعض الطائرات التى ألقت قنابلها على الثوار واستمرت النجدات تصل إلى أسيوط بواسطة البواخر النيلية وقد أحرقت بعض القرى المجاورة لأسيوط وامتد الحريق إلى أسيوط نفسها.

العزيزية والبدرشين:

انقض على هاتين القريتين النائمتين بعد منتصف الليل شرذمتان بريطانيتان مكونة كل منهما من أكثر من ٢٠٠ جندى مدججين بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية عدا المسدسات وطلبوا من العمدة فى كل من القريتين أن يسلم ما فيها

من أسلحة قبل مضى ربع ساعة، وهو مطلب عسير بل مطلب مستحيل. فلما انقضى الزمن المحدد بدأوا فى إحراق القريتين فى وقت واحد، فخرج الأهالى من بيوتهم مذعورين للحرائق ومن ضرب الرصاص بغير وعى ولا حساب، ولم يتركهم الجنود يهجرون القريتين بل يحاصروهما وأخذوا فى تفتيشهم، وكان بعضهم يحمل معه أعز ما يملك «مال وحلى» فاستولوا عليها اغتصابا، وحتى النساء فتشوهن بوقاحة سافرة وحاولوا الاعتداء على بعضهن، فدافع عنهن أزواجهن الذين فقدوا حياتهم برصاص المسدسات دفاعا عن نسائهم وشرفهم. فازدادت ثورة الأهالى وسخطهم وهاجموا الجنود بكل ما يملكون من عصى ونبابيت وحجارة وقتلوا من هؤلاء الجنود المعتدين أكثر من عشرين جنديا عدا الجرحى، ومات من الأهالى عشرات بل مئات.

إمبابة والعياط:

أشعلت فيهما الحرائق وارتكبت جرائم القتل كذلك على أوسع نطاق.

نزلة الشويك:

ارتكبت فيها فظائع زادت عما حل بالقرى الأربع التى ذكرتها آنفا. فقد وصل إليها قطار مسلح يحمل قوة كبيرة من الجنود المدججين بالسلاح، وبعد اقتحامهم لمنازل القرية ظهرا، سلبوا كل ما فيها من مال وحلى للنساء ثم حاولوا الاعتداء على أعراض النساء فوقعت ملاحم دموية قتل فيها كثيرون من الرجال والنساء ولكن مقاومة الأهالى الباسلة أسفرت عن مقتل خمسة عشر جنديا بريطانيا، ثم أشعل المجرمون البريطانيون النار فى منازل القرية فاحترق منها ١٤٤ بيتا من ٢١٠ بيوت هى كل القرية الصغيرة.

هذا فيما يختص بالوجه القبلى.

ووقعت فى مديريات الوجه البحرى وقراه أمثال هذه الجرائم والفظائع نخص بالذكر منها ما يأتى:

الشبانات:

«مركز الزقازيق» أحرقت وظلت النيران مشتعلة فيها يومين كاملين حتى دمرت ثلاثة أرباع القرية.

صفط الملوك مركز إيتاى البارود بمديرية البحيرة:

أحرقت مع القرى القريبة منها واستمرت الحرائق فيها يوما كاملا..

ووقعت أمثال هذه الفظائع الوحشية فى بلاد عديدة أخص بالذكر منها رشيد وقليوب وفاقوس والواسطى وملوى والمنيا.

هنا سؤال بل أسئلة تقحم نفسها وتصرخ بطلب الجواب:

- ماذا كان من أثر هذه الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية فى الصورة المصرية؟

- هل أخمدت الثورة أو أضعفتها أو عدلتها أو خففتها كما أمل المستعمرون؟

- هل نشرت الإرهاب والذعر بين المصريين وجعلتهم يؤثرون الاستكانة والسلامة؟

- هل انتهت حركة الإضرابات وأعمال التخريب وقتل الانجليز حيثما وجدوا فى المدن والقرى؟

- هل منعت أو قللت نشاط الفدائيين وإشعال الحرائق هنا وهناك وفى مساكن الانجليز أنفسهم؟

الجواب على ذلك كله بالنفى القاطع الحاسم. فلم تتغير الثورة فى سيرها أو اتجاهها؟ أو أهدافها أو قوة انطلاقها وعليائها. بل إن الثورة قد زاد لهيبها واتسع نطاقها وكأنها كانت فى أشد الحاجة إلى تلك الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية لتزداد قوة وجرأة وثباتا وانتشارا وعزما واتساعا. وآية ذلك أن تخريب خطوط السكك الحديدية استمر ولم ينقطع، وإذا كان الانجليز قد أسرفوا فى إشعال الحرائق فى القرى وتقتيل الأهالى فإن الثوار المصريين قد

ثأروا لأنفسهم إشعال الحرائق فى المحال التجارية الانجليزية فى المدن وفى العاصمة بصفة خاصة مثل محلات دافز براين ومخازن روبرت هيوز، كما برعوا فى صنع القنابل اليدوية وقذفها على الجنود البريطانيين من النوافذ والأسطح، وقتلهم نهارا وليلا بأساليب حيرت وأذهلت الانجليز كلهم من عسكريين ومدنيين.

والآن لابد لنا من وقفة ونظرة فاحصة لهذه الثورة بدل الاسترسال فى تكرار وصف بقية المآسى التى جرت كلها على وتيرة واحدة.

ظاهرتان بارزتان

إن هذه الثورة قد امتازت بظاهرتين بارزتين على جانب عظيم من الأهمية:

الظاهرة الاولى:

إن الشعب المصرى بجميع أفراده وطبقاته وهيئاته قد قام بها واكتوى بنارها واشترك فيها بروح فدائية عجيبة. الطلبة والمثقفون والعمال والفلاحون والأزهريون والموظفون وأصحاب المهن الحرة، حتى النساء المحجبات خلعن البراقع ونزلن إلى الشوارع فى مظاهرات عديدة وجرأة فريدة وتعرضن للحصار بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح فضلا عما لقينه من الاعنات والمتاعب القاسية.

الظاهرة الثانية:

لم يتول قيادة الثورة فرد معروف، بل كانت هناك قيادات شعبية محلية متفرقة فى كل مدينة وفى كل حى وكل قرية. لم يتلقوا الأوامر والتوجيهات من أية جهة، بل كانوا يجاهدون ويكافحون ويقودون بروح المنافسة والفداء وكانت هناك جوائز تسع لمن كان أعظم جرأة وأكبر فدائية وأخطر عملا.

ألم أقل أنها ثورة شعبية كاملة شاملة هائلة لم تعرف مصر لها مثيلا فى تاريخها الطويل؟

أليست هذه معجزة ثورية؟ أن المصريين المعروفين بالمسالمة والوداعة قد أصبحوا محاربين صامدين وزهادا فدائيين يستخفون بالحياة والموت على السواء، فما عادوا يرون للحياة قيمة ولا للموت رهبة، فإما الخلاص والكرامة والاستقلال وأما الموت والفناء.. والإنسان لا يموت إلا مرة..

لقد أصبح جليا للعيان أن أمام الانجليز من عسكريين ومدنيين حلين للأزمة لا ثالث لهما ولابد من اختيار أحدهما.

إما الاستمرار فى سياسة القمع والتنكيل والتعذيب والقتل والاحراق حتى يتمكنوا من أبادة الشعب المصرى كله وإزالته من الوجود.

أو الإفراج عن الزعيم وصحبه وتمكين الوفد كله من السفر إلى مؤتمر الصلح فى باريس وعرض قضية البلاد القائمة على أساس إلغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال وانهاء الاحتلال بتحقيق الجلاء..

واختارت الحكومة البريطانية الحل الثانى بعد شهر واحد من قيام هذه الثورة المباركة العارمة، ولكن كان لابد من تمهيد لهذا الحل حتى لا تبدو هزيمة الحكومة البريطانية كالحة كاملة وحتى لا تبدو أنها بدلت سياستها إزاء مصر رأسا على عقب فى لمح البصر. فكيف كان هذا التمهيد؟

التمهيد للإفراج عن الزعيم وصحبه

فى ٨ مارس ١٩١٩ أعتقل الزعيم وصحبه كما ذكرت.

- فى ٢١ مارس ١٩١٩ عين اللنبى مندوبا ساميا فوق العادة فى مصر والسودان، وأذيع فى لندن بيان رسمى جاء فيه «بسبب خطورة الحالة عين الجنرال اللنبى مندوبا ساميا فوق العادة فى مصر والسودان. ووكل إليه أن يقوم بالسلطة العليا فى جميع المسائل العسكرية والمدنية وأن يتخذ جميع الوسائل التى يرى ضرورتها ومناسبتها حتى يعيد القانون والنظام فى هذه البلاد وحتى يدبر

جميع الشئون إذا لزم الأمر ناظرا إلى ضرورة تأييد حماية جلالة الملك على مصر على قاعدة ثابتة وعدالة».

فى ٢٥ مارس وصل اللنبى إلى القاهرة.

فى ٢٦ مارس أدلى بالتصريح الآتى على بعض أعيان القاهرة الذين دعاهم لسماعه: «لقد تعطف جلالة الملك [١] بتعيينى نائبا عن جلالته فى مصر ورغبتى وواجبى يقضيان علىّ أن أساعد على إعادة السلام والأمن والراحة إلى البلاد ولى أغراض ثلاثة وهى:

١- أن أضع حدا ونهاية للاضطرابات الحالية.

٢- أن أعمل تحريات دقيقة فى جميع الأسباب التى حملت أهل البلاد على الشكاوى.

٣- أن أزيل كل الشكاوى التى تستوجب العدالة إزالتها..

«وفى استطاعتكم أنتم أن تقودوا الشعب المصرى والواجب يقضى عليكم أن تعملوا لمصلحة بلادكم، ولست أظن أن أحدا منكم يحجم عن مساعدتى بكل ما فى طاقته لإدراك الأغراض التى أسعى إليها. وإنى مستعد أن أعتمد عليكم لتبدأوا بالعمل فورا بقصد تهدئة الخواطر المتهجية الآن. وبعد اعادة الأمن إلى البلاد فإن لى ملء الثقة بأنكم تعتمدون علىّ بأن أنظر بلا محاباة فى جميع أسباب الشكاوى وبأن أوصى بإجراء كل ما يلزم لسعادة الشعب المصرىَ وراحته».

استمرت الثورة فى رحلتها التالية عنيفة مطردة الخطى كما سبق وصفها رغم نداء الإعيان والكبراء بتهدئة الحالة.

فى ٢٨ مارس: استدعى اللنبى رشدى باشا وأعضاء وزارته المستقيلة ليعرف آراءهم فى أسباب الثورة «وكأنه يجهلها» ثم دعا لمقابلته أعضاء الوفد المصرى

١- بلغ من صلف الانجليز وتعاليهم على البشر أنهم إذا قالوا جلالة الملك فمعنها عندهم ملك بريطانيا العظمى لا شريك له بلا حاجة إلى تعيين أو تحديد عكس ما تفعله الممالك الأخرى.

الباقين فى القاهرة وسألهم كذلك عن أسباب الاضطرابات والثورة ولم يتركهم يشرحونها له بل طلب منهم بعد دقيقة واحدة من مقابلته أن يسجلوها له كتابة فى تقرير أو مذكرة. ثم وقف إيذانا بانتهاء الاجتماع. وفى اليوم الثانى مباشرة أى فى يوم ٢٩ مارس قدموا له مذكرة من ثلاث صفحات نسبوا فيها الثورة إلى أسباب مباشرة وأسباب غيرة مباشرة. أما الاسباب المباشرة فهى فى نفى الزعيم وصحبه إلى مالطة ومنعهم ظلما وعدوانا من السفر إلى باريس ونسف قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح. وأما الأسباب الأخرى فتنحصر فى سخط المصريين جميعا على نظام الانجليز وقسوتهم بإعلان الحماية على مصر. واشتد استياء المصريين بصفة عامة لعدم معاملتهم بالمساواة مع الأمم الأخرى حتى الصغيرة منها.

ثم قالوا فى ختام المذكرة: «إن المصريين قد نفد صبرهم ودفعهم اليأس من الإنصاف إلى إظهار ما فى نفوسهم، كل يترجمه على شاكلته، فالرجال المسئولون من رسميين وغير رسميين قد ترجموه بالاحتجاجات المختلفة وبالامتناع عن العمل كالمحامين والقضاة والمدرسين والشبان بالمظاهرات السلمية والبعض الآخر بالاعتداءات المختلفة ردا على فظائع الانجليز فى قمع المظاهرات. تلك هى حقيقة الوضع الذى فيه بلادنا الآن بسطناها إلى فخامتكم باختصار لهذا نرجو أن تأمروا بتحقيقها والرجاء معقود أن تفرجوا عن الزعيم وصحبه المنفيين وأن تزيلوا هذا الاستياء بالقضاء على أسبابه فإن الأخذ بناصر أمة بأسرها أقدس واجب على عظماء الرجال».

خطبة كيرزون تخدم الثورة

لم يمض يوم واحد على هاتين المقابلتين اللتين قام بهما اللنبى مع رشدى ووزرائه السابقين ومع أعضاء الوفد الباقين حتى ثارت موجات من السخط الشديد بين جميع موظفى الحكومة ورجال الجيش المصرى ورجال البوليس ذلك

لأن الجرائد هنا فى مصر نشرت خلاصة الخطبة التى ألقاها وزير خارجية بريطانيا لورد كيرزون فى مجلس اللوردات يوم ٢٤ مارس، وقد جاء فيها ثناء على هذه الفئات الثلاث، الموظفين ورجال الجيش المصرى ورجال البوليس، وإشادة بسلوكهم فى أثناء الاضطرابات واستنتاج بأن عقلاء الأمة المصرية لم يشتركوا فى الثورة، ثم زعم بأن هذا كله برهان على صداقتهم للانجليز وعدم رضائهم عن الثائرين.

وانه ثناء من عدو مهين مثير للنفوس، وأنه لاستنتاج باطل سخيف بأن الإجماع غير منعقد على المطالبة بتحقيق المطالب الوطنية التى قامت من أجلها تلك الثورة الشعبية العارمة الكاملة الشاملة.

فماذا كانت النتيجة؟

قرر الموظفون جميعا الإضراب العام ثلاثة أيام فى جميع الوزارات والإدارات والمصالح التابعة لها احتجاجا على ما صدر من وزير خارجية بريطانيا من اتهام كاذب خطير لوطنيتهم وعدم اشتراكهم فى ثورتهم، وكان الاتهام فى شكل ثناء كاذب واستنتاج باطل وعلى غير أساس من الصحة.

وبهذا صدر التكذيب فورا لمزاعم كيرزون من جميع موظفى الحكومة المصرية بإضرابهم الكامل الشامل وسنعود إلى الحديث فيما بعد عن هذا الإضراب الرائع الذى كان حاسما فى نجاح الثورة التى ازدادت حدتها وشدتها وقوتها بهذا الإضراب، والثورة فى مرحلتها الثالثة وقد بلغت الذروة بهذا التعاون الجديد من جانب جميع موظفى الحكومة المصرية فأصيبت الإدارة الحكومية بشلل تام.

هذا وقد ورد فى الخطبة نقطتان أخريان تلفتان النظر، ومغزاهما على أعظم جانب من الأهمية.

الأولى: ثناء على رشدى وعدلى وأسف لعدم تمكينهما من السفر لانجلترا مع أن وجودهما فى انجلترا يقابل بمنتهى الرضا والارتياح للخدمات التى قدماها

لمصر وللأمبراطورية البريطانية خلال الحرب، ثم قال: «إننا نرى دائما أن من أهم الأمور أن نتفق معهما على تحديد الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى مستقبل الأيام.

الثانية: سخط على الزعيم سعد زغلول وصحبه، إذ قال:

«إن الحال مع سعد زغلول باشا يختلف كل الاختلاف عنها مع هؤلاء لأنه وأعوانه أعداء لبريطانيا وهم الذين دبروا هذه الاضطرابات وأنهم قوم غير مسئولين، وغرضهم هو إخراج الانجليز من مصر وقد اختاروا وقت انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس موعدا للقيام بهذه الحركة الثورية، فلا سبيل للمناقشة معهم لأن وجودهم هنا فى انجلترا كان يساء فهمه فى مصر ويتخذ دليلا على أننا راضون بالبحث معهم عن التخلى عن تبعاتنا نحو تلك البلاد تخليا تاما، وكان فوق ذلك يهيىء الأسباب لعرقلة وإحباط المباحثات التى تنتظرها ولانزال ننتظرها إذا ما حانت الفرصة الملائمة لوضع تسوية تكون مرضية لمصر وللدولة الحامية».

ما معنى هذه الخطبة فى الحقيقة وماذا تكشف عنه؟ إنها تكشف أمرين أو حقيقتين:

الأولى: أن الحكومة البريطانية تحب رشدى وعدلى وتثق فيهما وتريد المفاوضة معهما لتنظيم الحماية البريطانية وتحديد الشكل الذى ستكون عليه فى مستقبل الأيام، وهى تنتظر الفرصة الملائمة لذلك.

الثانية: أن الحكومة البريطانية تكره الزعيم سعد زغلول ولا تطيقه ولن تتفاوض معه لأنه يهدف إلى إخراج الانجليز من مصر وإلغاء الحماية البريطانية وبريطانيا لاتريد ذلك.

فهل سيتحقق لهذه الحكومة الاستعمارية ما تريد؟ هيهات هيهات!! وسنرى عما قريب.

إضراب جميع موظفى الحكومة

الإضراب العام من جميع موظفى الحكومة جدد النشاط فى المظاهرات فازداد ما فيها من دفع ثورى وماجت بها الشوارع والميادين كأول العهد بها وجدد الحيوية فى الاضطرابات العامة الأخرى فازداد عددها واتسع نطاقها ودفع الدم الجديد فى عروق الفدائيين والثائرين فى كل مكان، وبهذا كله عادت الثورة بمراحلها الثلاث تعمل متعاونة متفاعلة متدافعة شديدة الوهج والهياج، وبعد أن كانت شعبية فقط أصبحت شعبية وحكومية معا، وتجلى الكذب والبهتان فى مزاعم وزير خارجية بريطانيا الذى استثنى الموظفين ومن سماهم بالعقلاء من الاشتراك فى الثورة بحماسة وإجماع.

فى ٢ أبريل:

بدأ هذا الإضراب الفعلى الشامل لجميع موظفى الحكومة فخلت المصالح والدواوين من جميع الموظفين واتخذت القاهرة من ذلك اليوم مظهرا غير مألوف فقد أغلقت دور الحكومة وجميع المتاجر فى جميع الأحياء وحقق الإضراب فى أيامه الثلاثة الأولى كل الغرض الذى أريد منه وهو نفى مزاعم كيرزون عن الجمود الذى نسبه إلى الموظفين ازاء الحركة الوطنية فهل عاد الموظفون إلى وظائفهم بعد هذه الأيام الثلاثة؟ كلا، لقد لمسوا فوائد الإضراب فى خدمة الثورة وخدمة قضية البلاد، فقرروا إطالة الإضراب إلى أجل غير مسمى تقوية للعوامل الفعالة فى خدمة قضية الوطن وأعلنوا فى منشورات إذاعها زعماؤهم أنهم لن يعودوا إلى وظائفهم إلا إذا أجيبت مطالب الامة وهى الإفراج عن الزعيم وصحبه المنفيين ورفع كل قيد عن سفرهم وسفر الوفد إلى مؤتمر السلام.

وفى يقينى أن هذا الإضراب الشامل لجميع موظفى الحكومة قد بلغ بالثورة إلى ذروتها، وكان الحد الفاصل بين عقيدة الإنجليز فى قدرتهم على سحق الثورة وبين يأسهم وخوفهم منها ما لم يذعنوا ويقرروا الإفراج عن الزعيم وصحبه.

الفصل الثامن



قرار الإفراج عن الزعيم و...

وفى ٧ أبريل سنة ١٩١٩: أعلن الفيلد مارشال اللنبى قراره بالإفراج عن الزعيم سعد زغلول وصحبه وإباحة السفر للمصريين.

وقد جاء فى إعلانه هذا ما نصه: «بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان، أعلنأنه لم يبق حجر على السفر وأن جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم هذه الحرية، وقد قررت علاوة على ذلك أن كلا من سعد زغلول وإسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر».

الإمضاء

نائب جلالة الملك الخاص

أ. هـ.هـ. اللنبى

النتائج الأولى لقرار الإفراج

١ - مظاهر الفرح والتفاؤل:

فرحة شاملة كاملة عمت جميع المصريين فى جميع أنحاء البلاد، عمت الريف والحضر والقرى والمدن، وعادت الشوارع والميادين تموج بالمظاهرات الشعبية، ولكن سبحان مغير الأحوال، بعد أن كانت مظاهرات مظاهرات غضب

وسخط وهياج واحتجاج وتقاتل بالحديد والنار أصبحت مظاهرات فرح وبشر وتفاؤل وابتهاج وتقابل بالغبطة والابتسام والازدهار. تدفقت المظاهرات رافعة الأعلام وهاتفه بحياة الزعيم والاستقلال وسقوط الحماية والاحتلال، وسارت عربات الترام وعربات النقل مزينة بالأزهار وأغصان الأشجار، وفتحت المقاهى والمحال التجارية وهى مزدانة بالرايات أو الازهار والرياحين. ابتسامات فى كل مكان، ونشوة سرت فى جماهير الشعب وجميع المثقفين ما بعدها نشوة هى السعادة بعينها.

لماذا كل هذا؟ أهو إسراف فى المزاج المصرى؟ أهى خفة فى النفس المصرية؟ أهى هوية؟ كلا.. بل شعور طبيعى سليم، لقد عشت هذه الثورة فى مطلع شبابى واكتويت بنارها، اشتركت فيها وانفعلت بها، شقيت فيها وسعدت بها وعرفت روحها معرفة المديم الخبير فلأسجل مشاعرنا فى ذلك الوقت.

رأى مصر فى قرار الإفراج

كان قرار الإفراج قرارا بهزيمة الحكومة البريطانية فى الواقع وانتصارا للثورة المصرية بعد شهر واحد من قيامها، أى بعد حرب مريرة بين الشعب المصرى الأعزل وقوات الاستعمار البريطانى المسلحة أكمل تسليح حرب سقط فيها آلاف من المصريين موتى وجرحى ومشوهين وأحرق بأيدى الانجليز عدد كبير من القرى المصرية ووقع فى البلاد من أعمال التخريب ومختلف الخسائر ما يقدر بملايين الجنيهات وتعرض المصريون لشتى أنواع التعذيب والاعنات والالام مما ليس إلى وصفه من سبيل. والان يرفع الانجليز بهذا القرار الراية البيضاء بالتسليم. يسلمون فيما كانوا يعارضونه ويمنعونه. سفر الزعيم والوفد إلى مؤتمر الصلح عارضوه فى قوة وعزم وضراوة، واليوم يوافقون عليه صاغرين ومطالبة مصر بإلغاء الحماية وملحقاتها منعوها فى قسوة وغطرسة

وتعذيب وتقتيل بالحديد والنار، واليوم لا يمنعون وتركوا المصريين يعرضونها حيث شاءوا.

والذين عارضوا ومانعوا أول الأمر هم أنفسهم الذين عدلوا عن سياسة المنع والمعارضة.

فما معنى هذا الأمر؟

إن بريطانيا قد رفعت الراية البيضاء إيذانا بالتسليم ورجوعا عن المنع والمعارضة. اذا لم يكن هذا انتصارا باهرا فأى اسم نطلقه عليه؟ لقد فعل الشعب المصرى بمظاهرات الفرح والابتهاج يوم انتصاره كما فعل الإنجليز أنفسهم بمظاهرات الفرح والابتهاج يوم الهدنة وخروجهم من الحرب منتصرين، هكذا تفعل كل الشعوب فى ساعات الانتصار ونشوتها، فلا إسراف هناك ولا خفة..

رأى الإنجليز فى قرار الإفراج

كان رأيهم بلا شك أن «لابد مما ليس منه بد» فقد عجزوا من سحق الثورة المصرية التى أصبحت بعد شهر واحد أكثر اتساعا وأشد مراسا وفى ازدياد مطرد، وعجزوا عن تأليف وزارة مصرية تحكم البلاد أو يحكمون بواسطتها البلاد. فقد ظلت مصر أربعين يوما بغير وزارة وظل الإنجليز وحدهم يحكمون حكما مباشرا بالحديد والنار فى الوقت الذى يجلسون فيه فى مؤتمر الصلح فى فرسايل يقررون مبدأ حق تقرير المصير ويطبقونه على شعوب أقل ثقافة وحضارة وثروة وسكانا وتاريخا من الشعب المصرى. إنها لفضيحة لهم ما بعدها فضيحة فاضطروا إلى الإفراج اضطرارا، ولهم من وراء ذلك أربعة أهداف.

الهدف الأول:

التمكن من تأليف وزارة مصرية تحكم البلاد أو يحكمون البلاد بمساعدتها وبأسلوب غير مباشر.

الهدف الثانى:

إنقاذ سمعتهم فى المحافل الدولية لاسيما فى مؤتمر الصلح فى باريس.

الهدف الثالث:

تخفيض حدة الحقد والغيظ والحفيظة التى فاضت بها قلوب المصريين بسبب الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية التى ارتكبوها فى البلاد.

الهدف الرابع:

تهيئة الجو السياسى للمحادثات والمسالمة ثم المفاوضات.

ولاشك أن هذه أهداف بريطانية تبرر الإقدام على قرار الإفراج، على ما فيه من اعتراف بالهزيمة لبريطانيا.

ويا عجبا كل العجب! لم يمض إلا يوم واحد على قرار الإفراج حتى تمكن الانجليز من تحقيق هدفهم الأول.. ففى ٩ أبريل ألفت وزارة مصرية مرة أخرى برياسة رشدى باشا.

سفر الوفد إلى باريس

يوم ١١ أبريل سنة ١٩١٩:

سافر أعضاء الوفد المصرى من القاهرة إلى بورسعيد بقطار الصباح وأبحروا على الباخرة كاليدونيا فى طريقهم إلى مالطة وهم: عبدالعزيز فهمى بك. أحمد لطفى السيد بك. محمد على علوبة بك. واصف غالى بك. حسين واصف باشا. سينوت حنا بك. على شعراوى باشا. عبداللطيف المبكاتى. مصطفى النحاس بك. جورج خياط بك. الدكتور حافظ عفيفى. الأستاذ ويصا واصف. محمود أبوالنصر بك.

يوم ١٥ أبريل:

وصلت الباخرة إلى مالطة فابحر عليها المنفيون وهم: الزعيم سعد زغلول

باشا. إسماعيل صدقى باشا. محمد محمود باشا. حمد الباسل باشا.

وبهذا اجتمع شمل الوفد المصرى وكيل الأمة.

يوم ١٨ أبريل:

وصل الوفد إلى مرسيليا.

يوم ١٩ أبريل:

وصل الوفد إلى باريس حيث لقى صدمة أليمة مذهلة إذ فى اليوم نفسه اعترف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر.

على أنه فى اليوم السابق لسفر الوفد إلى باريس تألفت لجنة مركزية تنوب عن الوفد مدة غيابه عن مصر برياسة محمود باشا سليمان وسكرتيرها العام عبد الرحمن بك فهمى.

والآن أتناول بالبيان ما يلى:

١- الحالة فى مصر بعد تأليف وزارة رشدى.

٢- الحالة فى باريس بعد وصول الوفد إليها وآثار الصدمة فى نفوس أعضائه.

٣- الحالة فى بريطانيا، ماذا جرى وماذا أتجه التدبير إليه فى سياسة الحكومة البريطانية!!

تطورات الحالة فى مصر بعد سفر الوفد إلى باريس

بعد قرار الإفراج بيوم واحد وبعد انقضاء أربعين يوما والبلاد بغير وزارة، وفى الوقت الذى كانت فيه مصر تهتز وتموج بمظاهرات الفرح والابتهاج والتفاؤل وتنعم بنشوة الانتصار. ألف رشدى باشا وزارته الرابعة فى ٩ أبريل فى سرعة مفاجئة خاطفة، ولم يذكر فى كتاب تأليف الوزارة كلمة واحدة عن الحماية أو الاستقلال أو أفراح البلاد أو سفر الزعماء إلى باريس بعد المنع والمعارضة، ولا

كلمة واحدة عما ينتويه أو يرجو أن يعمله بوزارته الجديدة وكل ما هنالك عبارة غامضة مبهمة وهى «نظرا لما فى الظروف الحاضرة من مصاعب وأملا فى حل يرضى الأمة أرى من واجبى القيام بالمهمة التى اقتضت إرادتكم السنية إحالتها على عهدتى»..

وتلقت الأمة تأليف هذه الوزارة على هذه الصورة الغامضة المبهمة بشىء كثير من الريبة وسوء الظن، وكان جميع موظفى الحكومة فى الوزارات والمصالح مضربين عن العمل منذ ٢ أبريل، وقد ألفوا من بينهم لجنة من اثنين وثلاثين عضوا كهيئة تنفيذية تجتمع وتقرر بالنيابة عن جميع الموظفين، وكان أول ما عملته هذه اللجنة الاستمرار فى الإضراب حتى تجاب المطالب الآتية:

١- أن تعترف الوزارة بصفة الوفد الرسمية.

٢- أن تعلن الوزارة أن تشكيلها لا يعنى الاعتراف بالحماية.

٣- الغاء الأحكام العرفية.

٤- سحب الجنود البريطانيين المسلمين من الشوارع ومن المدن والقرى.

٥- تفويض حفظ الأمن والنظام إلى رجال البوليس المصرى.

وفى يوم ١٢ أبريل أصدر رشدى باشا بيانا من رياسة مجلس الوزراء ناشد فيه الموظفين بالعودة إلى أعمالهم وإنهاء الإضراب وهذا نص البيان:

«الآن وقد رخص للمصريين بالسفر وتألفت وزارة شعارها الاخلاص التام فى خدمة الوطن ومشاطرة الأمة شعورها ومقدرة لامانيها حق قدرها فإن الحكومة تدعو الأمة إلى الهدوء والسكينة، كما أنها تدعو الموظفين وغيرهم ممن أضربوا عن العمل تأييداً للمطالب القومية إلى العودة إلى أعمالهم. وان الإصرار على الإضراب فى الحالة الحاضرة يؤدى إلى ارتباك الأعمال وانتشار الفوضى، فليتدبر المضربون عن العمل المسئولية الهائلة التى تقع عليهم بإزاء بلادهم اذا ما أصروا على موقف يعرض البلاد إلى مثل تلك الأخطار والحكومة على يقين

بأن الكافة يدركون أن اهتمام عظمة السلطان بتأليف الوزارة كان أول باعث عليه وضع مقاليد الأمور فى يد السلطة المدنية مقدمة لإناطة المحافظة على النظام والأمن برجال السلطة المصرية والرجوع إلى الحالة العادية».

ورأت لجنة الموظفين أن هذا البيان لا يحقق مطالبها وقررت عقد مؤتمر عام.

وفى يوم ١٦ أبريل:

عقد مؤتمر وطنى عام فى الأزهر برياسة المفتى وحضور جمع زاخر من الموظفين وممثلى جميع الهيئات وقرروا ضرورة الإضراب والتضامن مع الموظفين فى مواقعهم من استمرار الإضراب وعدم العودة إلى العمل. هذا وقد أعلن كثيرون من التجار والعمال والمحامين وأصحاب المهن الحرة عزمهم على الإضراب كذلك.

استقالة الوزارة الرشدية

فى ٢١ أبريل:

استقالت وزارة رشدى باشا بعد أن شعرت بعجزها عن إقناع الموظفين بالعودة إلى العمل وبعد أن رأت أن حركة الإضراب أخذت تتسع وتتفاقم لاسيما بعد أن تضامن العمال مع الموظفين.

وكان من دواعى الأسف أن رشدى لم يسجل هذه الحقائق كتابة فى استقالته وإنما علل الاستقالة بأسباب صحية، ومع ذلك فإن مجرد الاستقالة فى هذه الظروف كبيرة المعنى غزيرة المغزى.

معناها أن الرأى العام الثورى بلغ من القوة بحيث يجبر وزارة على الاستقالة على الرغم من أن السلطان يؤيدها والحكومة البريطانية تسندها وترحب بها، ومغزاها أن الانجليز فقدوا هدفهم الأول من قرار الإفراج بإقامة وزارة مصرية

تتعاون معهم فى حكم البلاد وتعمل على تهدئة الخواطر.

ولقد بلغ من غيظ الانجليز وكمدهم بسبب هذه الاستقالة أن نشرت جريدة المورننج بوست بأن الصراع القادم سيكون بين اللنبى وموظفى الحكومة المصرية وأن المعركة آتية لا ريب فيها إذ لا يطاق أن يترك الموظفون المصريون متزعمين للثورة يقيمون الوزارات ويسقطونها بتدخلهم فى السياسة وفى حكم البلاد.

ثم ختمت الجريدة مقالها بالتهديد الآتى: «إذا لم يعد الموظفون إلى أعمالهم فورا ويقلعون عن الإضراب فإن الواجب يقضى بفصلهم جميعا من وظائفهم، وتولى الانجليز الحكم المباشر فى البلاد كما هو الحال فى المستعمرات وأن الذنب فى ذلك سيكون على الموظفين لأنهم لا يريدون الاشتراك فى إدارة الحكم فى بلادهم ولايدركون ما عليهم من مسئوليات».

أما المصريون عامة والموظفون خاصة فقد اغتبطوا بقوة اتحادهم وثمراته واعتبروا استقالة الوزارة الرشدية ترضية لهم، فلا معنى لاستمرار الإضراب ولهذا قررت لجنة العشرة عودة جميع الموظفين إلى العمل وهى اللجنة التنفيذية الممثلة للجنة الموظفين الكبرى فى هذا الشأن، وصدر هذا القرار يوم ٢١ من أبريل، وفى اليوم التالى أى فى صبيحة يوم ٢٢ أبريل أذاع اللنبى بلاغا رسميا أنذر فيه الموظفين بالعودة فورا إلى أعمالهم ووظائفهم وإلا شطبت أسماؤهم من سجلات موظفى الحكومة.

ومن الطريف أن أغلب الموظفين كانوا فى مكاتبهم فى اليوم نفسه استجابة لقرار لجنة العشرة.

وفى ٢٥ أبريل اجتمعت لجنة الموظفين بكامل أعضائها وأثرت قرار ممثلى اللجنة معلنة أن عودة الموظفين قد بنيت على استقالة الوزارة لا على تهديد اللنبى.

وتجلى غيظ المصريين وكمدهم مرة أخرى فى سلوك الرؤساء الانجليز إذ

أخذوا يهينون الموظفين بعد عودتهم إلى العمل مما أثار الحفيظة والحقد عليهم أضعافا مضاعفة.

هذا وقد ظلت البلاد بغير وزارة مصرية ثلاثين يوما ثم فوجئت يوم ٢١ مايو ١٩١٩ بتأليف وزارة برياسة محمد سعيد باشا، فقوبلت بمظاهرات شعبية عدائية وسخط عام ووقعت اعتداءات متكررة على بعض الجنود البريطانيين وفي خلال هذه الثلاثين يوما كان اللنبي يحكم بأمره يفعل ما يشاء كما يشاء فأصدر قانون الميزانية بقرار منه بصفته القائد العام للقوات البريطانية في مصر وخول وكلاء الوزارات سلطة الوزراء في بعض الشئون والاختصاصات وكان هؤلاء الوكلاء أربعة من المصريين وأربعة من الانجليز هم روسن وكيل المالية ولانجلي وكيل الزراعة وتوتنهام وكيل الأشغال وموريس وكيل الداخلية.

كل هذا والثورة مستمرة في رحلتها الثالثة بغير هوادة من جانب الثائرين المصريين وجانب المستعمرين البريطانيين.

اعتراف ولسون بالحماية

في نفس اليوم الذي وصل فيه الزعيم والوفد إلى باريس، أعلن الرئيس ولسون اعترافه بالحماية البريطانية على مصر وهو توافق مدبر وتوقيت عجيب وتآمر مدروس منظم من جانب الاستعمار البريطاني قصد به من غير شك أن يكون صدمة عنيفة أليمة مريرة للثورة في مصر وللوفد في باريس. ولا أنكر أن الضربة كانت نافذة موجعة، أثارت اليأس والكمد في بعض النفوس وأثارت النخوة والغضب والعزيمة في البعض الآخر، ولقد سبق أن أبديت في الفصل الرابع كيف كانت مبادىء ولسون وخطبه من أكبر الحوافز للثورة فتفتحت بها أبواب الأمل في النجاح، اليوم يتنكر ولسون لمبادئه ويثبت للعالم أنه رسول سلام مزيف وأنه وقع فريسة للمستعمرين حين جلس معهم في مؤتمر الصلح وأنه

أصبح ذيلا لمستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ورئيس وفدها فى مؤتمر الصلح والسلام، فأثبت أنه رجل ضعيف منخوب الفؤاد.

وأخذ الناس فى مصر يتساءلون فى دهشة وألم ومرارة عن سر هذا الاعتراف وأهدافه وبواعثه، كيف يعترف ولسون بحماية فرضت على مصر قهرا وقصرا من دولة تعهدت أكثر من ستين مرة بالجلاء، وكيف يبرر اعترافه بغير حياء أو رعاية لمبدئه المقرر لحق الشعوب فى تقرير مصيرها؟ ولماذا أسرع إلى الاعتراف فى يوم وصول الوفد إلى أبواب مؤتمر الصلح ليطالب بالاستقلال؟

وعشرات أخرى من أمثال هذه الأسئلة والإجابة عنها كلها واحدة وهى مؤامرة استعمارية بريطانية استغلت ضعفه لإدخال اليأس فى قلوب المصريين عامة والوفد خاصة وإفهامهم جميعا وإقناعهم بخيبة المسعى فى معارضة السياسة البريطانية ونفوذها فى كل مكان.

فهل نجحت هذه السياسة الاستعمارية؟ كلا، لقد كانت مبادىء ولسون مصدر إثارة دائمة لمصر وكان تنكره لها واعترافه بالحماية صدمة مؤقتة وخيبة طارئة للأمل ثم زال أثرها زوالا تاما.

وتطلع المصريون جميعا إلى باريس ليعرفوا مسلك الوفد وماذا هو صانع.

كتب سعد فى مذكراته العبارة البليغة الآتية: «لقد تعمد الانجليز أن يصدموا الوفد باعتراف ولسون بالحماية يوم وصولنا أملا فى أن تتزعزع ثقتنا فى أنفسنا وفى النجاح. وما كان تبريرهم فى الإفراج عنا ثم استقبالنا فى باريس بهذه الصدمة إلا كتدبير السجان الذى يطلق أسيره ثم يرصد له على أبواب السجن من يدهمه ويغتاله ليحيق به الكيد فى ساعة الفرح والاستبشا بالخلاص والأمل فى المستقبل».

والخلاصة كانت الصدمة قاسية مريرة فى الوفد كله وانقسم أعضاء الوفد

فى مدى الشعور بها ومبلغ الألم منها فقد يئس بعضهم يأسا تاما من جدوى البقاء فى باريس والسعى للاستقلال، وآثروا العودة إلى مصر طلبا للسلامة، فى الحقيقة، وتظاهروا بأن العمل فى مصر أجدى وأنفع. ومن هؤلاء إسماعيل صدقى باشا ومحمود أبوالنصر بك وحسين واصف باشا.

وعادوا فعلا إلى مصر وقرر الوفد اعتبارهم منفصلين من عضويته.

ورأى بعض الأعضاء ضرورة الاقتصار على الاتصال بالحكومة البريطانية ذلك لأنهم فى قرارة نفوسهم يمنون باستحالة التغلب عليها فى مثل هذه الظروف ولاسيما أن مؤتمر الصلح فى قبضة يدها وأن ولسون ذيل للويد جورج.

ومنهم من رأى أن المنافسة الدولية من شأنها أن تحمل الحكومة البريطانية على الإصغاء لمطالبنا.

وأما الزعيم نفسه فقد رأى ضرورة البقاء فى باريس ذلك لان الرجاء ليس معقودا على الحكومات وحدها بل على الشعوب من وراء هذه الحكومات وأن الطريق إلى الشعوب مفتوح لمن يحسن السير فيه ويقوى على صعابه وإذا كان الرجاء فى مؤتمر الصلح فى باريس قد زال فإن وراء المؤتمر شعوبا حية ومترابطة فلا يجوز اليأس من التأثير فى الشعب الأمريكى مثلا والشعب الفرنسى والشعب الانجليزى نفسه. والدول كالأفراد تحرص على حسن السمعة ولا تقوى على تحدى الفضائح التى تنسب إليها والمظالم التى تصدر منها.

قال الزعيم لأعضاء الوفد (كما علمت فيما بعد):

«إذا عاد إلى مصر بعض إعضاء الوفد فقد وقع الخلاف وبدأ الانحلال وهو ما يرجوه الانجليز، وإذا عاد الوفد كله إلى مصر فقد ملكته الحكومة البريطانية ورجعت به إلى قبضة يدها، هذا فضلا عن أن الوفد يصبح عرضة للسخرية نهائيا من أبناء وطنه لاسيما بعد تلك القيامة التى أقامتها الأمة ليتمكن الوفد من السفر، فالعودة إلى مصر تحدث خيبة أمل أليمة

لا تحمد عقباها ولاتقدر آثارها القريبة والبعيدة فتيأس الأمة من رجائها وتتشكك فى رجالها، لهذا أرى ضرورة البقاء فى باريس لأنه أولى وأنفع على كل حال، وهذا لا يمنع من تركيز العمل فى مصر والاعتماد عليه فى الدعاية فى أوروبا ولاشك أن الدعاية فى أوروبا تزيد فى تنبيه عزيمة الأمة كلما احتاجت إلى تنبيه، وهكذا يحدث تفاعل ناجح مفيد بين الوفد فى أوروبا والثورة فى مصر».

وكانت النتيجة أن مرت الأزمة بسلام، وانتهت الصدمة وكأنها لم تكن. ووافق الوفد على البقاء فى باريس الاستمرار الجهاد فى خدمة قضية «البلاد».

وكان عمله الأساسى نشر الحقائق عن مصر وتفنيد الأباطيل التى تذاع فما ترك مقالة تنشر عن مصر فى جريدة انجليزية أو فرنسية محترمة إلا صححها بالرد عليها، ولا تصريح رسميا لوزير بريطانى إلا رد عليه وافحمه، ولا قرارا يصدر ضد مصر الا أحتج عليه وأظهر فساده.

دعاية بالحق تنويرا للأذهان واثارة للضمائر وكسبا للأصدقاء والأنصار ونشر أخبار الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية التى ترتكب فى مصر نشرا لفضائح الانجليز وحكومتهم وأملا فى التأثير فى الرأى العام البريطانى وفى تحريك ضمائر بعض الأحرار من أعضاء البرلمان البريطانى حتى يقدموا على توجيه الاسئلة المحرجة لحكومتهم الاستعمارية الباغية الضارية.

هذا إلى مقابلات واتصالات شخصية يقوم بها الزعيم وأعضاء الوفد بالرجال الرسميين والصحفيين وكبار الكتاب فى باريس ولندن، «وما كان اختيارى للعمل مع الزعيم والوفد فى باريس إلا ملاحظا فيه قدرتى على الإسهام والمعاونة فى هذه العمليات المنوعة التى تقتضيها الدعاية باللغة الانجليزية على أوسع نطاق.

احتجاج الوفد على مؤتمر الصلح

فى ١٢ مايو ١٩١٩، أرسل الزعيم سعد زغلول احتجاج المؤتمر إلى كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح وهذا نصه:

«جناب مسيو جورج كليمنصو رئيس مؤتمر السلام بباريس.

«لم يشأ مؤتمر الدول المتحالفة المشتركة أن يطبق على مصر مبادىء الحق والعدل مع أنها جديرة بأن تعامل بمقتضى هذه المبادىء نظرا لما قامت به من المساعدات التى أدت إلى النصر - لم يشأ أن يسمع صوت مصر مع أنها كانت فى مقدمة الدول التى أعلنت أنها فى حالة حرب مع أعداء دول الاتفاق. وقدمت أعظم الضحايا فى سبيل قضية الحلفاء، لم يشأ أن يسمعها مع أنها بلاد غيرت الحرب مركزها السياسى. وقد اعترف المؤتمر بالحماية البريطانية بدون أقل مراعاة لرأى الأمة المصرية وبغير أن يعير أدنى التفات لقيام هذه الأمة بأجمعها فى وجه هذه الحماية وإظهار معارضتها لها بأجلى المعانى.

«إن العقل ليأبى إستاد هذا القرار إلى المبادىء التى من أجلها خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب والتى قررها الرئيس ولسون بعد ذلك لتكون أساسا للهدنة ثم للصلح ولا إلى المبادىء التى أعلنت بريطانيا نفسها على تحكيم التقاليد السياسية التى كان معمولا بها قبل الحرب، لأنه كيف يستطيع العقل البشرى أن يفسر نيل الحجاز استقلالها وهى ولاية صغيرة وعدد سكانها لايذكر ومواردها ضئيلة ولم تتحمل شيئا من أعباء الحرب، ومصر التى قامت بنصيب وافر منها وعانت ما عانته فى سبيل الفوز النهائى يكون نصيبها الرفض البات إذا طلبت أن يسمع صوتها، ثم يعقب هذا الرفض ضياع حقوقها المقدسة التى كتبتها بدماء أبنائها فى ميادين القتال.

«لايمكن التسليم بأن مصر التى اشتركت من أوائل القرن الماضى فى اقامة صروح المدنية وساعدت تركيا فى انتصاراها الذى أدى إلى استتباب النظام فى

الحجاز بل وفى اليونان كذلك والتى قهرت تركيا نفسها فى ميدان الحرب، يكون حظها أن تعامل بأقل مما عوملت به شعوب إفريقيا الوسطى وقد أصبحوا اليوم محلا لرعاية ما كانوا ليحلموا به. ليس فى العالم قاض نزيه يستطيع الاهتداء إلى سبب واحد مقبول للموقف الذى اتخذه المؤتمر إزاء القضية المصرية أو اتخذته بريطانيا العظمى نفسها وهى التى أشهدت العالم أكثر من ستين مرة على أنها لا تفكر مطلقا فى ضم مصر أو فى إعلان الحماية عليها كرها وإنما هى ترمى فى سياستها إلى استقلال هذه البلاد.

«ونهاية القول إن العقل لا يمكن أن يرتاح لقرار المؤتمر كيفما قلبه ومهما كانت العلة التى تتخذ أساسا لتبريره حتى إذا سلم بأنه حق القوى على الضعيف، لأن حق القوة معناه الحرب والفتح ولاشك أن مصر لم تكن فى حالة حرب مع بريطانيا بل كانت بجانبها، ولم تفتح بريطانيا مصر بل إن الأمر على العكس من ذلك، فإن مصر هى التى ساعدت بريطانيا على فتح ما فتحته من بلاد العدو.

«نعم أن بعض الصحف قد أيدت تلك النظرية القائلة بأن الشعوب الشرقية لا يمكن معاملتها بما تعامل به الشعوب الغربية وأن المبادىء التى أعلنت فى هذا الشأن قد نشأت عن وعود لم تحسب عواقبها. فهل يريدون التمسك بمثل هذه النظرية ليهدموا فى زمن السلم تلك المبادىء السامية التى أقامت الحرب بناءها وليسحبوا بعد نيل الصلح تلك الوعود التى وعدوا بها من أشترك معهم فى تشييد صرحها، إذا كان الامر كذلك فكيف يمكن أن يفسروا طريقة عدم تطبيق هذه النظرية فى جميع الأحوال بلا استثناء فإننا نرى بعض الأمم الشرقية التى آمنت بما صدرلها من الوعود قد تحققت آمالها فعلا.

«لم يبق إلا فرض واحد لابد من التسليم به وهو أن الشعب المصرى قد أعتبر سلعة من السلع التى يتجر فيها وهذا التصرف هو ما ينقده الدكتور ولسون نفسه بشدة فى خطاباته التى كان يتظلم فيها عن حق القوة وعن وجوب انقضاء

عصرها لأنه تصرف جائر لا يتفق وروح العصر الحاضر. إنه ليشق علينا أن نفكر أن المؤتمر قد عاملنا هذه المعاملة. غير اننا لسوء الحظ مضطرون لتقرير الواقع. ومهما يكن من بواعث الاحترام الواجب لهذه المحكمة العليا فإنه لا يسعنا إلا إثبات الواقع كما هو، لان من الاوقات والظروف ما يكون فيه خطر على الإنسان إذا هو لم يضع كل شيء في سبيل تقرير الحقيقة..

ولقد كان للشعوب المهضومة الحق أن نجد فيها معنى من ذلك المثل الحكيم الذي وضعه الفيلسوف روسو وهو «أن القوى مهما بلغت قوته لايأمن أن تكون له الغلبة على الدوام» ما يساعدها على التذرع بالصبر، أما الآن وقد أثبت الرئيس ولسون بأجلى بيان أن من الأمور الممقوتة التى تنفر منها الطباع أن تسود أمة على أمة، فقد بلغ كره السيادة فى نفوس الأمم المظلومة أنها أضحت تفضل الفناء على البقاء فى قيود الذل.

ولاشك أنه ما كان لتلك المبادىء الجديدة الا أن تصادف فى مصر وسطا مستعدا لقبولها، لأن مصر بلد من سلالة كريمة المحك نشيطة المزاج إذا تولد منها الأمن أثار غضبها على الذين يناوئونها فى استقلالها، إن الأمة المصرية لا تقبل أبدا أن تكون السلعة القديمة التى تتداولها أيدى الأقوياء. ولاشك أنها اليوم بعد التصريحات التى فاه بها الرسول الجديد فى عالم السياسة الذى تشف كلماته عن أسمى معانى الأدب وأرقاها.. أبعد منها فى أى زمن مضى عن الرضى بمثل هذا المصير فان مجرد خوفها من عدم تطبيق مبادىء ولسون على قضيتها قد دفعها إلى تعريض صدور أبنائها وهم عزل من السلاح لنيران الرصاص القتالة. ومن غريب الاتفاق أن تكون تلك الساعة هى التى تجتمع فيها عشرون دولة لتقرير موافقتها على الحماية البريطانية أن مثل هذا الحل المحزن لن يكون من ورائه إلا إلقاء بذور اليأس وعوامل الغضب فى قلب الشعب المصري. وقد قال الرئيس ولسون «أن الصلح لا يمكن أن يكون صلحا وطيد الأركان إلا إذا

اندثر به كل أثر من آثار الحقد فى قلوب الشعوب سواء أكانوا أقوياء أو ضعفاء، وكان العدل موزعا عليهم بدرجة واحدة بغير أقل تمييز بين قويهم وضعيفهم»..

فهل وقع الاختيار على الشعب المصرى ليكون ضحية تقدم فدية لحين اتفاق الدول العظمى، إذا صح ذلك فكيف يمكن التسليم بأن نكون نحن الضحية ونحن أمة ذات تاريخ وماض مجيدين، وما الذى كان يصيبنا لو كنا انضممنا إلى أعداء الحلفاء عوضا عن أن نشاطرهم متاعب القتال؟

إن الواجب المفروض علينا بصفتنا نوابا عن الشعب المصرى يقضى علينا إن نسمع المؤتمر صوت ذاك الشعب السيىء الحظ الذى حرم دون غيره من التمتع بالعدل الذى عمت ظلاله جميع أقطار المعمورة، وقد بات يرى نفسه أنه إنما كان يعمل للاضرار بمصالحه باشتراكه فى العمل مع الحلفاء. نعم أن صوته يرتفع عاليا بالاحتجاج لانه وحده الذى حرم من نعمة الصلح ومزاياه مع انه كان عاملا أمينا فى الحرب ولكن الأمة التى لها أمان خاصة تضعها فوق كل احترام والتى تشعر بشخصيتها وتعرف حقوقها لن تمكن الغير من أن يتصرف فى أمرها ولها دون غيرها خاصة الحق فى البت فى مصيرها».

عن الوفد المصرى

رئيس الوفد سعد زغلول

وطبع من هذا الاحتجاج حوالى ٢٠٠٠ نسخة وزعت على الجرائد الكبرى فى باريس ولندن ونيويورك وواشنجتون وعلى رؤساء الوزارات من دول أوربا ورؤساء البرلمانات فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا، وأرسل الزعيم مع نسخة الاحتجاج خطابا خاصا مؤثرا إلى كل من رئيس مجلس العموم البريطانى ورئيس مجلس الشيوخ الأمريكى. كما أرسلت عشر نسخ إلى رئيس اللجنة المركزية الوفدية فى القاهرة لترجمته ونشره فى الجرائد إن أمكن أو توزيعه على الشعب سرا كمنشورات..

قرار عظيم
لمجلس الشيوخ الأمريكى

فى شهر أغسطس ١٩١٩ قررت لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى بعد دراستها ومداولاتها فى معاهدة الصلح:

«إن مصر من الوجهه السياسية ليست تابعة لتركيا ولا لبريطانيا العظمى ويجب أن تكون صاحبة الحق فى تقرير مصيرها».

ووافق مجلس الشيوخ الأمريكى على تقرير لجنة الشئون الخارجية الذى سجل هذا القرار.

وانتهت مناقشة المجلس فى معاهدة الصلح إلى تقرير عدم الموافقة عليها فى مارس ١٩٢٠، فكان هذا المصير أكبر صدمة لولسون وللحكومة البريطانية وللحكومة الفرنسية. وكان قرار اللجنة المباركة أكبر فرحة للزعيم سعد زغلول والوفد وللشعب المصرى.

وهكذا انعكست الآية: صدمنا أولا وصدموا أخيرا. وفرحوا أولا وفرحنا أخيرا.. ومن ضحك أخيرا ضحك أطول كما يقول المثل الانجليزى.

وما الله بغافل عمنا يفعل الظالمون.

الحالة فى بريطانيا

١- بعد اعتراف ولسون بالحماية ثم اعتراف معاهدة الصلح بها.

٢- تأثر الثورة المصرية بها.

عاملان قويان أثرا فى الحكومة البريطانية تأثيرا بليغا بعيد المدى فيما أرى، ولأبدأ بثانيهما قبل الأول لانه موجز ومجرد تسجيل لحقيقة ولا يحتاج إلى تحليل أو تعقيب وتعليق، بينما العامل الأول قد خلق مشاكل وسلسلة متصلة الحلقات من الأقوال والاعمال والنتائج التى تتابعت فى سياق طبيعى ومنطقى، وما أريد

لحلقات السلسلة أن تنفصل فتهتز الصورة وينقطع البيان.

لاشك فى أن أعتراف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر قد أثلج صدر الحكومة البريطانية ذلك لأن مساعيها قد تكللت بالنجاح فى الضغط عليه وانتزاع ذلك الاعتراف منه، ولأن هذا لاعتراف نفسه قد قوى يديها وشدد من عزيمتها على المضى فى سياستها الاستعمارية فى مصر والتمسك بالحماية التى فرضتها قسرا وقهرا وغيلة وغدرا وعلى الرغم من سابق عهودها ووعودها بالجلاء وعدم فرض الحماية، وعلى الرغم من الثورة المصرية الشعبية المحرقة. وعلى الرغم من كل الاحتجاجات التى صدرت من رجال مصر ونسائها بشتى الأشكال والصور وفى مختلف الظروف والمناسبات.

وأما العامل الأول والأهم فهو الثورة المصرية الشعبية الصارمة بطبيعتها وبواعثها وأهدافها فقد هزت الحكومة البريطانية هزا وصدمتها فصحتها وأيقظتها من حلم الطمأنينة الذى نعمت به طويلا بل على الدوام إزاء مصر الوديعة المسالمة الهادئة، أزعجها بصفة خاصة ما امتازت به هذه الثورة من طابع المفاجأة والعنف والتقتيل والتخريب على أوسع نطاق، وما تجلى فيها من مشاعر الكره وألمقت والحقد على الانجليز وحكمهم وحمايتهم وما برز فيها من مظاهر النقمة والسخط، وأخيرا وما ذلك بأقل أهمية من كل ما سبق الروح الفدائية التى تجلت فى المصريين فى أشكال البذل والتضحية بغير رهبة أو تحفظ أو حساب للعواقب الوخيمة.

كانت مصر فى ظنها بل فى عقيدتها ملك يديها فأصبحت مصر شعلة نار لاتنطفىء تكوى يديها وتشوى جسدها وتشوه وجهها. فما العمل الآن بعد أن عملت كل شيء لإطفائها فلم تنطفيء؟ لقد جربت أقوى ما عندها من سلاح ووسائل الفتك والتعذيب والتدمير واستخدمت أقصى ما فى نفسها من روح الشر والانتقام فما أجداها ذلك نفعا حتى الآن، ثم جربت الإفراج عن الزعيم وصحبه

والسماح للمصريين بالسفر إلى الخارج أملا منها فى تأليف وزارة مصرية وإنهاء الثورة أو تخفيف حدتها على الأقل فباءت بالفشل وخيبة الأمل مرة أخرى، وهكذا لم تنفعها المخاشنة ولا المحاسنة. فماذا تفعل الآن؟

من تقاليد الانجليز المحببة إلى الحكومة البريطانية أنها فى كل مشكلة معقدة تواجهها وفى كل أزمة جسيمة تقابلها لا تحلها بنفسها مباشرة خشية أن يكون الحل خطأ يجر إلى عواقب وخيمة، ولذلك فهى تلجأ إلى لجان التحقيق «تؤلفها» من خيرة رجالها فتولى كل لجنة عملية البحث والدرس والتحقيق فى الموضوع الذى انتدبت له وتقليب الأمور على مختلف وجوهها، ثم تبدأ عملية الموازنة بين مختلف الاقتراحات للاهتداء إلى أحسن حل ممكن بعد تقدير العواقب قبل وقوعها المباشرة منها وغير المباشرة، وبعد طول التأمل والتدبر والاهتداء إلى أحسن حل تتقدم به اللجنة إلى الحكومة البريطانية، والحكومة بعد ذلك حرة فى أن تقبله كله أو بعضه أو تدخل عليه ما تراه من التعديلات، فالرأى الأخير للحكومة البريطانية على كل حال.

ولاشك أن مزايا هذا التقليد ظاهرة الفوائد فهى على الأقل تعفى الحكومة من سرعة الحل وتحميها من الوقوع فى الخطأ وتريحها من المشكلة إلى حين حتى تفرغ اللجنة من وضع تقريرها الكامل الشامل المفيد على كل حال.

وهذا بالضبط ما فعلته الحكومة البريطانية فى مشكلة مصر، فقد ألفت لجنة ملنر من خيرة رجالها الفنيين العارفين أتم معرفة بمصر قديما وحديثا كما سنرى فيما بعد.

هذا العاملان أو هاتان الحقيقتان قد ظهرتا فى بيان بريطانى رسمى على لسان وزير خارجية بريطانيا.

ففى يوم ١٥ مايو ١٩١٩ ألقى لورد كيرزون خطبة فى مجلس اللوردات كشف فيها عن التفكير البريطانى وما تنتويه الحكومة البريطانية فى القريب العاجل.

وفيما يلى أهم ما جاء فى خطبته.

بعد أن أشار إلى قرار الإفراج عن الزعيم وصحبه وسفر المصريين إلى الخارج قال «قد افضت هذه المنحة إلى تأليف وزارة رشدى باشا وكانت مهمتها الكبرى حض الموظفين على العودة إلى العمل، ولكنها أخفقت فاستكانت فى ٢١ أبريل. ومنذ ذلك التاريخ فإن الحكم فى مصر يجرى بغير معاونة الوزراء المصريين».

ثم تحدث عن اغتباطه واغتباط الحكومة البريطانية باعتراف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر وما سبقه من اعتراف فرنسا وروسيا بها على أثر إعلانها سنة ١٩١٤ ، وما تضمنته معاهدة الصلح المعروضة على ألمانيا وحلفائها من الاعتراف بها.

ثم قال ومع ذلك لا يمضى زمن يسير حتى تنال الحماية البريطانية الاعتراف العام من جميع الدول، وزعم أن المصريين لم يجنوا أية فائدة من ثورتهم، وأشار إلى فداحة الأضرار التى أصابت السكك الحديدية وخطوط المواصلات والمصانع والآلات والأملاك العامة وإلى أن الخسارة فى ذلك كله واقعة على مصر وأهلها.

ثم تحدى وتبجح فقال: إذا كان الغرض من هذه الثورة وما صحبها من الخسائر الفادحة والأرواح والممتلكات هو إنهاء العلاقة بين بريطانيا ومصر وتحقيق استقلال مصر، فقد باءت هذه الثورة بالفشل لأن الحكومة البريطانية لا تنوى مطلقا أن تتخلى عن الالتزامات والتبعات التى تحملتها عندما وضعت مهمة حكم مصر على عاتقها، وأن هذه الالتزامات والتبعات قد تأيدت الآن بإعلان الحماية على مصر.

ثم نزل من عليائه وأظهر العطف المزيف على ما سماه «الأمانى المصرية المشروعة فى دائرة الحماية» ثم اعترف قائلا إنه لا ينكر أن كرامة المصريين قد جرحت لعدم تمثيل مصر فى مؤتمر الصلح مع تمثيل الهند والحجاز فيه،

وأن منع الوفد من السفر إلى أوروبا للدفاع عن قضية مصر كان من أكبر أسباب الثورة والاضطرابات التى وقعت.

ثم قال أخيرا إن الحكومة البريطانية تعتزم كعلاج لهذه الحالة أن توفد لجنة كبرى برئاسة لورد ملنر إلى مصر لتحقيق أسباب الاضطراب وبحث الحالة الحاضرة واقتراح القانون النظامى الذى يعود على البلاد بالخير والسلام واليسر والنجاح والتقدم فى سبيل الحكم الذاتى وحماية المصالح الأجنبية فى ظل الحماية البريطانية.

ثم أعرب فى ختام خطبته عن ثقته فى أن نتيجة إيفاد هذه اللجنة ستكون إزالة سوء التفاهم وتثبيت الحماية البريطانية على مصر على قواعد توجب الرضى للدولة الحامية وللمصريين على السواء.

نرى أثر العاملين اللذين تحدثت عنهما فى نسيج هذه الخطبة ولكن الرواية لم تتم فصولها.

تأليف لجنة ملنر

فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ ألفت الحكومة البريطانية «اللجنة الخصوصية المنتدبة لمصر» على الوجه الآتى:

١- نيـرب ملنر - وزير المستعمرات رئيسا - وكان مستشارا ماليا للحكومة المصرية فى السنوات الأولى من الاحتلال.

٢- سير رنل رود - من كبار رجال وزارة الخارجية وكان سفيرا لبريطانيا فى إيطاليا وكان ممن عملوا مع لورد كرومر ممثل بريطانيا فى مصر.

٣- سير سيسل هرنت - المستشار القانونى لوزارة الخارجية ا بريطانية.

٤- الجنرال سيرجون مكسويل - كان قائد القوات العسكرية البريطانية فى مصر عند إعلان الحماية.

٥- الجنرال سيراوين توماس - العضو بمجلس العموم.

٦ - مستر سبندر - رئيس تحرير جريدة وستمنستر جازيت الناطقة باسم حزب الأحرار.

٧ - مستر لويد سكرتيرا للجنة.

٨- سير انجرام مساعد السكرتير للجنة والسكرتير الخاص لرئيس اللجنة.

وتضمن تفويض اللجنة الذى أذيع يوم ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ بيانا مهمتها وجاء فيه ما يلى:

«تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيرا فى القطر المصرى وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة فى تلك البلاد وعن شكل القانون النظامى الذى بعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء بها ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيما دائم التقدم والترقى ولحماية المصالح الأجنبية».

الرئيس يطلب سكرتيرا من مصر

- أرسل الرئيس خطابا إلى عبدالرحمن فهمى سكرتير اللجنة المركزية فى القاهرة جاء فيه:

نحن فى حاجة ماسة إلى سكرتير يعرف الانجليزية معرفة جيدة لدرجة أن يكون قادرا على التحرير بها والترجمة منها وإليها.

ويقوم كذلك بعملية المراسلة - فنرجو اختيار الكفء لذلك وليسافر إلى باريس فى أقرب وقت ممكن.

- وقع اختيار عبدالرحمن فهمى على. وكتب إلى الرئيس خطابا أخبره فيه باسمى ووظيفتى ودرجتى العلمية.. وبأنى (كفء وحائز لجميع الصفات التى ترضيكم).

- لم أسافر: لأن عبدالرحمن فهمى علق سفرى على موافقة الرئيس تلغرافيا على هذا الاختيار.

– بعد أسبوعين أرسل الرئيس إليه خطابا ثانيا جاء فيه:

«أن الأمر محتاج أشد الاحتياج إلى سكرتير يجيد الانجليزية والعربية وعلمت أنكم وفقتم لوجود من توافرت فيه هذه الصفات. وفهمت أنكم على وشك إرساله فماذا جرى؟. وقد أرسلت إلى محمود باشا سليمان تلغرافيا غير مرة بسرعة إرساله».

عندئذ كلفت بالسفر فورا إلى باريس، واعترف لى عبدالرحمن فهمى أنه أخطأ فى تأجيل سفرى.

– وفى ٢٧ نوفمبر، وصلت إلى باريس، وذهبت فورا لمقابلة الرئيس فى مسكنه ٣٩ شارع الشانزليزيه، وكان الجو شديد البرودة. وحجرته شديدة الحرارة بالتدفئة، وقد بدت عليه شيخوخة متقدمة وهزال شديد من إصابته بالانفلونزا شهرا كاملا فاهتزت نفسى إلى أعماقها من فرط التأثر ورأى بعينه النافذة وقلبه الحنون أن يخفف ما بى بحسن اللقاء والترحيب الكريم وقد سجلت ما جرى فى هذا اللقاء فى مقال لى نشرته مجلة الثقافة.

– أرسل الرئيس خطابا إلى عبدالرحمن فهمى فى ٨ ديسمبر ١٩١٩ جاء فى مطلعه «حضر السكرتير ونشكركم كثيرا على حسن اختياركم».. وجاء فيه «الجرائد الانجليزية أخذت من بضعة أسابيع تنشر الفصول الطوال عن الحوادث الجارية فى مصر وقد أعددنا أخيرا كتابا مفتوحا إلى اللورد كيرزون ضد ما فاه به فى مجلس اللوردات متعلقا بمصر ومستقبلها، كما أعددنا احتجاجا آخر عليه بهذا المعنى.

الفصل التاسع



وصول لجنة ملنر

وصلت لجنة ملنر إلى مصر فى صباح الأحد ٧ من ديسمبر سنة ١٩١٩ واتخذت السلطات العسكرية البريطانية كل أنواع الاحتياطات للمحافظة على سلامة أعضائها وحمايتهم من روح العداء المتحفز والخطر البالغ المتدفق فى نفوس هذه اللجنة ورئيسها التى اتخذت لها فندق سميراميس مقرا ومستقرا،

وزار أعضاء اللجنة فى اليوم التالى وبرفقتهم اللنبى، السلطان فؤاد وسمعوا منه بعض التوصيات فيما يختص ببعض كبار المصريين الذين يمكن الاعتماد على أصالة رأيهم مثل رشدى باشا وعدلى باشا ومحمد سعيد باشا ورئيس الوزارة الحاضرة يوسف وهبة باشا الذى يمكنهم الاعتماد على معاونته كل الاعتماد.

ولم يكد يذاع نبأ وصول اللجنة إلى القاهرة حتى عم هياج النفوس وتوافرت الأدلة لدى بعض أعضاء اللجنة ورئيسهم على تصميم المصريين على مقاطعتهم مقاطعة تامة. وانهالت على ملنر البرقيات من جميع المدن والقرى معلنة الاستنكار لقدوم لجنته إلى القاهرة، وعزم مرسليها على الإضراب احتجاجا وسخطا واشتركت جميع مجالس المديريات وكثيرون من موظفى الحكومة والنقابات والعمال والعلماء وكتبت الجرائد المصرية رغم الرقابة الشديدة على الصحف معلنة أن كل مصرى تكون له أية علاقة بأعضائها يرتكب خيانة للوطن. واتفقت كلمة الجرائد كلها على أن الرئيس سعد زغلول باشا المقيم فى باريس

هو الوكيل الذى أنابه الشعب المصرى عنه، فالأولى باللجنة مفاوضته فى الأمر.

وعم الإضراب جميع المدارس والمحاكم حتى عمال الترام.

وكان فريق من الشعب يخرج فى مواكب صاخبة ويطوف الشوارع بالهتاف والدعاء لسعد باشا والوفد والاستقلال التام لمصر، ولم تقتصر هذه المظاهرات على الشباب والرجال بل شاركتهم فيها سيدات القاهرة فبرزن من خبائهن وركبن المركبات وطفن الشوارع وهن يرددن الهتاف بحياة الوفد وسقوط لجنة ملنر. وخروج السيدات فى مثل هذه المواكب أمر غير مألوف فى مصر التى يسود فيها الحجاب وعدم الاختلاط بين الجنسين، وهكذا كان لهذه الثورة القومية أعظم الفضل وأبلغ الأثر فى تحرير المرأة المصرية فى سرعة عجيبة.

انقضى على هذه الحال أسبوع فأسبوعان، ثم وقعت مصادمات دموية بين الشعب وبعض الجنود البريطانيين الذين أطلقوا النار على المتظاهرين وقتل من هؤلاء الجنود خمسة فى يوم واحد، كما حدثت محاولتان لاغتيال رئيس الوزراء وأحد الوزراء.

ومما هو جدير بالذكر أن علماء الجامع الأزهر الشريف وضعوا منشورا كان له دوى كبير فى البلاد وأرسلوه إلى ملنر، بينوا فيه حق مصر فى طلب الاستقلال وفى طلب إلغاء الحماية، وألحوا فى عبارات قوية على ضرورة الجلاء وخروج الانجليز من البلاد، وقد زعمت الجرائد الانجليزية أن علماء الأزهر اضطروا إلى سلوك هذا المسلك تحت ضغط طلبة الأزهر وطلبة المدارس العليا وهذا غير صحيح. ثم تلا هذا المنشور، منشور آخر أشد وقعا وأبعد أثرا وكان له أجمل الوقع فى نفوس المصريين وأسسوا الوقائع فى نفوس البريطانيين، ذلك هو منشور الأمراء فقد وقع عليه ستة منهم[1] وقد تعرضوا فى ذلك إلى غضب السلطان والانجليز معا. وقد زعمت جرائد لندن كذلك أن السبب الحقيقى فى

١- كمال الدين حسين - عمر طوسون - يوسف كمال - اسماعيل داود - محمد على ابراهيم ومنصور داود

مسلك هؤلاء الأمراء هو رغبتهم فى كسب حب الشعب المصرى لهم بانحيازهم إلى الحركة الوطنية والثورة القومية التى عمت البلاد كالسيل الجارف.

وقد أقام المصريون عددا منهم لمراقبة تنقلات أعضاء لجنة ملنر ومحاولاتهم الاتصال بوجهاء المصريين للوقوف منهم على قيمة الطلب المتواصل للاستقلال التام والطعن الدائم فى الحماية.. هكذا فسرت جريدة التيمس الفرض الكامن وراء هذه المراقبة، وأخيرا شعرت اللجنة بأنها تحت مراقبة حراس خفيين من المعارضين، فلم يحضر مصرى واحد ذو شأن لزيارتها فى فندق سميراميس بل إن جماعات من الطلبة كلفوا بالسهر على تحركات ملنر وأعضاء لجنته فما سافر واحد منهم الى أى مكان خارج القاهرة إلا كان اثنان من الطلبة يصاحبانه كظله، شعر بذلك أو لم يشعر..

ومع ذلك استطاع عدلى ورشدى وثروت أن يقابلوا فى منازلهم ملنر وبعض أعضاء لجنته، ولكن المعروف والمفهوم أن هؤلاء الثلاثة أصدقاء لسعد باشا وللوفد، وأنهم كانوا يحاولون حمل ملنر وزملائه إلى مفاوضة الوفد فى باريس وإقناعهم بأنه من العبث تضييعهم لأوقاتهم فى مصر بدون عمل جدى مفيد..

انقضى الأسبوع الثالث على ملنر ولجنته فى مصر، وهم يحاولون تحطيم هذه المقاطعة الشاملة دون جدوى والخروج من هذا الحصار المضروب حولهم، فأقدم ملنر على محاولة أخرى لعل فيها الخير له وذلك بإفهام الشعب أن من يزور اللجنة، فزيارته لا تؤثر فى مكانته ولا تلقى ظلالاً على وطنيته.

فما هى هذه المحاولة؟

تصريح لجنة ملنر

نشرت الجريدة الرسمية وجميع الجرائد المصرية فى ٢٩ ديسمبر التصريح الآتى:

«جاءت اللجنة البريطانية إلى مصر فأدهشها ما رأته من الاعتقاد الشائع

بين الجمهور بأن الفرض من مجيئها هو سلب شيء من الحقوق التى كانت لمصر إلى اليوم، فاللجنة تعلن فساد هذا الاعتقاد وأنه لا نصيب له من الصحة البتة، وأنها إنما أوفدتها الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطانى لغرض واحد التوفيق بين أمانى الأمة المصرية وبين ما لبريطانيا العظمى من المصالح الخاصة فى مصر مع المحافظة على الحقوق المشروع التى لجميع الأجانب القاطنين فيها، وأن اللجنة لعلى يقين من انه اذا توافر حسن النية وصدق الإخلاص، بين الجانبين يصبح من الميسور تحقيق هذه الغاية وأنها لترغب رغبة أكيدة فى أن تكون الصلات بين بريطانيا العظمى ومصر أساسها اتفاق ودى يستأصل كل سبب للتنافر فيتمكن المصريون من أن يفرغوا جهدهم فى ترقية شئون بلادهم فى ظل أنظمة حكم ذاتى.

وللوصول إلى هذه الغاية تود اللجنة أن تقف على آراء الهيئة المشخصة للأمة المصرية وآراء الأشخاص الذين يهتمون اهتماما صادقا بخير بلادهم وتمكين كل فرد من إبداء رأيه بغاية الصراحة ونهاية الحرية. إذ ليس من غرض اللجنة تقييد الآراء أو المناقشة بقيد ما أو حصرها فى دائرة معينة، وهى تعلن أن الدخول فى المناقشة لا يعتبر اعترافا بمبدأ أو تنازلا عن رأى من قبل اللجنة أو من قبل المنافس لها، وأن حرية المناقشة شرط أساسى للنجاح وبغيرها يتعذر رفع سوء التفاهم والوصول الى الاتفاق».

ملنر

رد اللجنة المركزية للوفد

ونشرت لجنة الوفد المركزية بالقاهرة فى اليوم التالى أى فى ٣٠ ديسمبر الرد التالى:

«كانت لجنة الوفد تود أن يكون بلاغ لورد ملنر صريحا واضحا وأن يتضمن

الاعتراف باستقلال مصر التام، لكنه اقتصر على توسيع دائرة المناقشة فبعد أن كانت المفاوضة التي تطلبها اللجنة محصورة في دائرة الحماية أباح البلاغ المفاوضة في غير دائرة محددة. نعم أن توسيع دائرة المناقشة يدل على اقتناع الانجليز بأن المصريين يرفضون الحماية رفضا باتا، ولكن لا ينفى مخاوف المصريين من التصريحات السياسية الانجليزية التي تقدمت مجيء اللجنة، وليس من شأنه بحال من الأحوال أن يحمل الأمة على العدول عن خطتها، وفضلا عن ذلك فإن الأساليب السياسية لا تسمح بمفاوض بين لجنة وأمة بأسرها».

«وإذا كان الغرض الوقوف على مطالب المصريين فإن هذه المطالب أصبحت معروفة معرفة تامة في جميع أنحاء العالم، وهي تنحصر في شيء واحد هو الاستقلال التام، وأما التوفيق بين استقلالنا وبين ما لغيرنا من المصالح فالمناقشة فيه تكون مع الوفد المصري متى كان الأساس عدم المساس بحقوقنا المقدسة.

«فلتحى مصر، وليحيى الاستقلال التام».

التمهيد للمفاوضات

في مساء هذا اليوم نفسه «٣٠ ديسمبر» تسلم الزعيم سعد زغلول برقية من عدلي يكن باشا يرجوه فيها ألا يبت في قرار بشأن تصريح لجنة ملنر حتى يصله خطاب منه، ولم يكن لدى الزعيم ولا أي عضو في الوفد علم وقت ورود هذه البرقية المهمة بما نشر في مصر من جانب لجنة ملنر أو من جانب لجنة الوفد المركزية، فاجتمع الوفد، وأخذ كل عضو يدلي بتخمينه في هذا الموضوع، فكان الجو يسوده الانتعاش والتفاؤل.

وردت ظهر اليوم «٣١ ديسمبر» برقية مسهبة مطولة من لجنة الوفد المركزية إلى الزعيم سعد زغلول تحتوي على نص التصريح الرسمي للجنة ملنر وردها

عليه، فزال الغموض وزاد تطلع الوفد ورئيسه الى الخطاب الموعود من عدلى الذى سارع ببرقيته فى منع الوفد من اتخاذ قراره الحاسم ولكن بعض الأسئلة تقحم نفسها هنا وتصرخ بطلب الجواب:

١ - لماذا اهتم عدلى دون سواه بإرسال مثل هذه البرقية إلى الوفد؟

٢ - ما هو السر فى مسارعته هذه بإرسال البرقية ورجاء الوفد بعدم اتخاذ أى قرار بشأن بلاغ أو تصريح لجنة ملنر حتى يتسلم الوفد خطابا منه؟

٣ - هل عدلى غير راض عن رد لجنة الوفد المركزية على تصريح لجنة ملنر؟

٤ - ما سبب عدم رضاه حتى رأى من الصواب ألا يتورط الرئيس والوفد بتأييد ذلك الرد؟

٥ - وأخيرا هل يريد عدلى أن يكون قنطرة بين الوفد ولجنة ملنر، أى يكون همزة الوصل بينهما؟

أسئلة تمر بالخاطر وليس لى عليها أى جواب الآن.. فإلى أن يصل الخطاب المنشود المعلوم أسجل هنا أهم ما نشرته كبرى جرائد لندن مثل التيمس والمورننج بوست والوستمنستر جازيت والديلى تلغراف عن نشاط لجنة ملنر فى مصر وعن الحالة العامة فى مصر.

زعمت كل جرائد لندن أن تصريح لجنة ملنر قد خفف من نفوس المصريين منها ولطف من عداوتهم للجنة ومقاطعتهم لها وأن بعض كبار المصريين قد أخذوا يتصلون بها وأخذت اللجنة تتصل بهم، وأن أعضاء اللجنة متفرقين قد بدأوا اتصالاتهم بممثلى جميع الطبقات والهيئات المصرية لمعرفة آرائهم ومشاعرهم.

إن السلطات البريطانية فى مصر قد وضعت تحت تصرف اللجنة مجموعة هائلة من البيانات والمعلومات عن الشئون المصرية وآراء كبار الموظفين والأعيان

فى المسائل السياسية مما ساعد اللجنة على تكوين فكرة صحيحة فى مصر فى الوقت الحاضر وما يجب أن يعمل لها فى المستقبل.

اطلعت اللجنة على آراء الغرف التجارية الفرنسية والإيطالية واليونانية والبريطانية وكبار النزلاء الأجانب والوزراء السابقين والحاليين.

إن اللجنة استفادت كثيرا من آراء عدلى باشا ورشدى باشا وثروت باشا.

ونشرت جريدة التيمس مقالا افتتاحيا كله ثناء وتقدير لهؤلاء المصريين الثلاثة ووصفتهم بالنضج والحصافة وسلامة القصد وبعد النظر وحسن الاستعداد للتفاهم والاتفاق، كما وصفت اقتراحاتهم بأنها عملية ومعقولة وجديرة بكل اعتبار..

إن على ماهر بك الذى فصل من قبل من منصبه الحكومى وقرر الوفد ضمه إلى عضويته فى شهر نوفمبر الماضى سيسافر قريبا إلى باريس، ومعه بعض الوثائق المهمة التى ستكون موضع دراسة خاصة من زغلول باشا والوفد».

وصول على ماهر إلى باريس

وصل على ماهر بك إلى باريس يوم ١٤ يناير سنة ١٩١٩ ومعه خطابان الأول من لجنة الوفد المركزية وصفت فيه الحال العامة فى البلاد وشرحت رأيها بالتفصيل فى تصريح لجنة ملنر، وبالتالى الأصدقاء الثلاثة عدلى وثروت ورشدى وبرفقة خطابهم تقرير شامل عن المحادثة التى دارت بين كل منهم وملنر، وقد ألح هؤلاء الأصدقاء الثلاثة على الوفد فى أن يعود فورا إلى مصر للمفاوضة مع لجنة ملنر معتبرين أن بلاغها قد فتح الباب على مصراعيه للدخول فيها وأن الفرصة سانحة جدا لهذا الدخول، وأن ملنر يرحب كل الترحيب بعودة الوفد كله أو بعض أعضائه. وقد أبرز عدلى فى بيان رأيه «أن هذه العودة ضرورية إن لم تكن للمفاوضة مباشرة فلمبادلة الآراء فى مقدمتها وشروطها».

وبعد أن درس الوفد تفصيلات المحادثات والأدلة التى أوردوها على استحسان عودته، قرر بالإجماع رفض هذه العودة وعدم الأخذ برأيهم فيها، ذلك لأن تصريح لجنة ملنر لا يختلف عن غيره من البلاغات والبيانات الرسمية السابقة له والمحددة لمهمة لجنة ملنر اللهم إلا فى الشكل فقط. أما من حيث الموضوع فإنه مثلها تماما فى اعتبار لجنة ملنر لجنة تحقيق وموقف المصريين منها موقف المسئول أو المسألة والغاية التى تهدف إليها من تحقيقها هذا فهو وضع نظام لحكومة مصر فى دائرة الحماية البريطانية.

وأرسل الرئيس سعد زغلول يوم ١٥ يناير، برقية إلى عدلى باشا أوضح فيها بعد بيان ما تقدم عدم إمكان عودة الوفد إلى مصر لهذه الغاية ولكنه يقبل أن يعود إذا أعلنت لجنة ملنر أنها مأذونة من قبل حكومتها لأن تتفاوض باسمها مع الوفد المصرى بصفته وكيلا ممثلا للأمة المصرية للوصول إلى عقد اتفاق بين مصر وبريطانيا يوفق بين استقلال مصر ومصالح هذه الدولة، ثم شفع هذه البرقية بخطاب تضمن فوق ذلك أن عودة الوفد كله أو بعضه بناء على هذا التصريح يعد خفة فى نظر العقلاء ويسوء وقعه لدى الشعب المصرى الذى قاطع لجنة ملنر عملا بنصيحة الوفد ومادام أن الغاية من المفاوضات التى ترغب فيها هذه اللجنة الوصول إلى وضع نظام حكومى فى دائرة الحكم الذاتى وتحت الحماية فلا يمكن للوفد الدخول فيها لأن غاية ما تعطيه أقل كثيرا مما يطلب الوفد وتطمع الأمة فيه.

كان يجب أن تنتهى المراسلات عند هذا الحد ذلك لأن فى الموقف ثلاث حقائق تسيطر عليه:

الحقيقة الأولى: أن مهمة لجنة ملنر معينة محددة بنص التفويض الذى صحب إنشاءها وهو «تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيرا فى مصر وتقديم تقرير الحالة الحاضرة فى تلك البلاد. وعن شكل القانون النظامى

الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعا دائم التقدم والترقى ولحماية المصالح الأجنبية.

الحقيقة الثانية: أن مهمة الوفد معينة محددة وهى السعى لإلغاء هذه الحماية وتحقيق الاستقلال التام، والوفد هو الهيئة الوحيدة الممثلة للشعب المصرى أكمل تمثيل بحكم الاستفتاء العام الذى حققته التوكيلات الشعبية التى حصل عليها..

الحقيقة الثالثة: هى أنه ليس فى استطاعة لجنة ملنر أن تخرج من دائرة التفويض الذى عين مهمتها وحدد لها العمل فى دائرة الحماية، وليس فى استطاعة الوفد أن يخرج من دائرة التوكيلات المكتوبة والأهداف المعلنة مرارا وهى تحطيم هذه الحماية وإزالتها وتحقيق الاستقلال التام.

فالموقف واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار ولا سبيل إلى مفاوضة بين طرفين لا يهدفان إلى غرض واحد، بل يهدفان إلى غرضين مختلفين متناقضين لا سبيل إلى التوفيق بينهما. ولكن عدلى لم ييأس ولم يسكت وبعض أعضاء الوفد مع ذلك متفائلون حيث يجب التشاؤم..

الخطاب الثانى من عدلى إلى سعد

تسلم الرئيس سعد زغلول يوم ٢٨ من يناير ١٩٢٠ خطابا مطولا من عدلى يكن باشا وقد جاء فيه: «ان امتناع ملنر عن التصريح بأن تكون المفاوضة على أساس الاستقلال إنما يرجع إلى أن الاستقلال فى نظر لورد ملنر إنما يكون نتيجة للمفاوضات لا أساسا للتفاضى عليه!!» كانت هذه العبارة موضعا للتندر والفكاهة والسخرية على لسان الرئيس وبعض الأعضاء وقال ساخرا: إن حصل ملنر أن يكون الاستقلال نتيجة ولا يقبله أساسا فما الفرق بين الحالين؟!.

وما لفت النظر كذلك أن عدلى فى خطابه هذا قد عاد مرة أخرى إلى القول بأنه

وزميليه رشدى وثروت مازالوا مصرين على الرأى الذى سبق أن بينوه فى خطابهم الأول، وكرر أن تصريح لجنة ملنر لم يضيق دائرة المناقشات ولم يحدد الغاية منها، وذكر «أن الوفد فهم خطأ أن اللجنة تهدف إلى وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى، وأن هذا لو كان صحيحا كانت أحاديثهم مع ملنر مبنية على غير أساس سليم، ولما جاز نقلها إلى الرئيس والوفود، وختم عدلى خطابه بأن الذى أكده ملنر لهم أثناء المناقشة مهم فى هذا الموضوع أن العبارة الإنجليزية Self Governing Instktutions ليس معناها الحكم الذاتى وإنما معناها الحكومة الدستورية.

كان الرئيس يقرأ هذا الخطاب فى جلسة الوفد بصوت عال كنت حاضرا فتطوعت قائلا إن هذا غير صحيح لأن الحكومة الدستورية يقابلها فى الانجليزية Cosstitutional Government وتفضل محمد محمود باشا فأيدنى فيما قلت فابتسم الزعيم وقال: «ما علينا الآن وإنما يهم أن نحدد موقفنا ونعرف ما يجب علينا عمله إزاء هذا الخطاب».

وهنا دارت مناقشة استمرت نصف ساعة واشترك فيها أكثر الأعضاء وأسفرت عن أمرين:

الأمر الأول: ضرورة استمرار الاتصال بعدلى عن طريق البريد والبرق عسى أن تسفر وساطته عن خير للبلاد لاسيما وأنه على ما يظهر قد وطد صلات طيبة بملنر ورجال لجنته.

الأمر الثانى: ضرورة السعى للتخلص من الوزارة المصرية الحالية التى يرأسها يوسف وهبة باشا وتمهيد الطريق لإقامة حكومة دستورية، ورئى أن أفضل سبيل للوصول إلى هذه الغاية هو أن تعين وزارة جديدة يكون فى برنامجها المفاوضة للحصول على اتفاق يضمن التوفيق. بين استقلال مصر والمصالح البريطانية ثم وضع نظام لانتخاب هيئة نيابية تعرض عليها نتيجة المفاوضات للنظر فيها والتصديق عليها..

استقر رأى الوفد على هذين الأمرين، وما كان ذلك ممكنا أو ميسورا لولا ما كان للرئيس سعد وزملائه من حسن الظن بعدلى لا سيما بعد خروجه من رشدى وثروت إلى العمل بعد اعتزاله إياه زمانا طويلا. هذا من جهة ومن جهة أخرى اشتداد الكراهية لوزارة هذا العهد ونفور الأمة منها وسخطها عليها.

خطاب وبرقية من الوفد إلى عدلى

أرسل الوفد يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٠، خطابا مسهبا إلى عدلى شرح فيه تغيير الوزارة الحاضرة وإقامة وزارة تمهد لحياة برلمانية، وحرص الوفد على أن ينص فى هذا الخطاب على أن أحدا من أعضاء الوفد لا يتدخل فى هذه الوزارة وأن الوفد قد يرى أصوبية العودة إلى مصر إذا تم تأليف الوزارة الجديدة على النحو المقترح. وإذا كانت أهدافها فى الحكم كما وصفنا حينذاك تكون لعودة الوفد معنى مساعدة الوزارة على القيام بمهمتها لدى الأمة والسعى فى أن ينتخب أعضاؤه فى الهيئة النيابية، هذا وقد وردت فى هذا الخطاب العبارة الآتية:

«إذا كان لورد ملنر لا يريد كما أكدتم فى خطابكم المؤرخ يوم ٢٨ يناير أن يكون الاستقلال أساسا للمفاوضات لأنه يراه نتيجة لها لا أساسا نبنى عليه فقد رأينا ضرورة النص فى برنامج الوزارة الجديدة على هدف الاستقلال، وهذا بطبيعة الحال لا يربط أحدا غيرها، ومن الخير أن يرتبط به الوزراء حتى يجعلوه أول قصدهم وأكبر همهم».

هنا علت وجهى ابتسامة ودهشة لأنى وجدت الفكرة آية فى الغرابة أولا لأنها لن تكون لها أية قيمة عملية سوى ذر الرماد فى عيون المصريين، وثانيا لأن لجنة ملنر لن تقيم لها أى وزن لتعارضها مع التفويض الذى قامت على أساسه.

هذا وقد أفضيت برأيى للرئيس بعد انصراف الأعضاء قال «هذا صحيح، ولكن ما حيلتي، أن الأعضاء متهافتون على فتح أبواب الأمل فى وجه ملنر، أما أنا

فلا أرى فى ملنر أى خير ينتظر منه، وانى أعرف أنه استعمارى قح» ثم استطرد الرئيس قائلا: «ليس الغبى بسيد فى قومه، لكن سيد قومه المتغابى».

وأرسل الرئيس فى المساء برقية إلى عدلى جاء فيها «إن الوفد مازال متمسكا برأيه فى موضوع عدم العودة إلى مصر. انتظر خطابى».

الخطاب الثالث من عدلى إلى سعد

تسلم الرئيس سعد زغلول يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠، خطابا ثالثا من عدلى ذكر فيه أن ملنر يقترح تشكيل لجنة مصرية للمفاوضة معه تكون مكونة من ثمانية «رئيس الوفد ومعه اثنان من أعضاء الوفد ورشدى باشا وعدلى باشا ومحمد سعيد باشا واثنان من الوزراء الحاليين» وأن يكون برنامج هذه اللجنة «المفاوضة» للتوفيق بين أمانى المصريين والمصالح البريطانية». وقد حرص عدلى أن يبين فى خطابه أنه عارض ملنر فى تأليف هذه اللجنة على هذه الصورة، وأنه حبذ رأى الوفد فى تأليف وزارة جديدة للعمل على تحقيق الأمانى الوطنية وتثق بها الأمة، واعتبر ذلك الوسيلة القانونية الوحيدة للوصول إلى الغاية المنشودة، وكان عدلى لبقا بالمفاوضة وحدها، وبوضع النظام الدستورى للبلاد، وأنه يرى أن يكون هذا كله باشتراك الوفد معها، وأن طريقة العمل فى ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعى إلى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح البريطانية والأجنبية ووضع مشروع نظام دستورى للبلاد، ثم تعهد بالمفاوضة إلى هيئة تضم بعضا من أعضاء الوزارة وبعضا من أعضاء الوفد ثم تنتخب جمعية وطنية بأوسع طرق الانتخاب لبحث نتيجة المفاوضات ومشروع الدستور، وأنه من المستحسن أن يدخل فى الوزارة أعضاء الوفد قبل البدء فى الانتخابات لهذه الجمعية الوطنية.

هذا وقد جاء فى ختام الخطاب فقرة على أعظم جانب من الأهمية إذ قال: «إن هناك طريقة أخرى لحل المسائل الحاضرة وهى أن يسافر إلى باريس ويجتمع بالوفد ويتحدث معه شخصيا وبطريقة غير رسمية، حتى إذا ما أدت هذه المحادثات إلى وضع أسس المفاوضات مع الانجليز بدأت هذه المفاوضات فى غير ضياع كثير من الوقت».

وختم عدلى خطابه اللبق بالجملة الآتية: «رأيت أن أسألكم رأيكم فى هذه الطريقة، فإذا كنتم ترون فائدة من وجودى معكم فى باريس اتخذت ما يلزم من التدابير لذلك».

عودة لجنة ملنر إلى انجلترا

قضت لجنة ملنر فى مصر حوالى ثلاثة أشهر وهى تدرس بوسائلها الخاصة الهزيلة أحوال البلاد عامة وأسباب الثورة خاصة، ولولا الحياء أو العناد لاعترفت بأنها فشلت فى مهمتها فشلا ذريعا، ذلك لأن المقاطعة الشعبية معها كانت شاملة رائعة، واستحال على ملنر التعاون الجدى إلا مع عدلى ورشدى وثروت، واستحال على ملنر التعاون الجدى إلا مع عدلى ورشدى وثروت، ولاسيما مع عدلى الذى كان معروفا من الشعب انه على اتصال وثيق بالوفد فى باريس، وصديقا للزعيم سعد ولكثير من أعضاء الوفد.

وغادرت اللجنة مصر فى الأسبوع الأول من مارس، عائدة إلى انجلترا بخفى حين أما ملنر فقد سافر من القاهرة إلى القدس فى صبيحة يوم ٦ مارس ١٩٢٠ فى رحلة لزيارة فلسطين، ثم عاد إلى الاسكندرية وأبحر منها يوم ١٨ مارس إلى انجلترا.

وفى ٧ مارس: أرسل الزعيم سعد زغلول برقية إلى عدلى أبلغه فيها بأن الوفد يكون سعيدا برؤيته فى باريس والاجتماع به.

اجتماع الجمعية التشريعية

فى ٩ مارس ١٩٢٠: اجتمعت الجمعية التشريعية فى منزل الرئيس سعد زغلول وقد كانت معطلة رسميا منذ أكتوبر سنة ١٩١٤، فلم يكن فى الإمكان عقد جلستها فى مقرها الرسمى وأصدرت القرارات الخطيرة الآتية:

١ - أن الجمعية التشريعية تعتبر الحماية التى أعلنتها انجلترا من تلقاء نفسها على مصر عملا باطلا لا قيمة له من الوجهة القانونية.

٢ - تقرر الجمعية أن البلاد المصرية التى تشمل مصر والسودان مستقلة استقلالا تاما وفاقا لقواعد الحق والعدل والقانون، وكل مظهر من مظاهر اعتداء القوة على هذا الاستقلال لا يؤثر فى وجوده من الوجهة القانونية وليس من شأنه إلا أن يزيدنا تمسكا به.

٣ - تحتج الجمعية على تعطيلها، وعلى كل القوانين والنظم التى وضعت فى أثناء تعطيلها لصدورها من غير عرضها عليها.

٤ - تحتج على كل الاعتداءات التى أصابت البلاد وأبناءها سواء كان الاعتداء واقعا على النفس أو على المال أو على أى نوع من أنواع الحرية.

٥ - تحتج على البدء فى مشروعات الرى فى السودان وتطلب وقف هذه المشروعات وقفا تاما حتى يبت فى المسألة المصرية ويعرض الأمر على الهيئة النيابية التى تمثل البلاد بجميع أجزائها وذلك للأسباب الآتية:

أ) لأن مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة، وكل مشروع يتعلق بهما لا يجوز تنفيذه قبل أن توافق الأمة عليه.

ب) لأن هذه المشروعات لم تلاحظ فيها مصلحة السودان منفردا ولا مصلحة مصر وحدها ولا مصلحة الاثنين معا، وقد قامت عليها اعتراضات فنية واقتصادية وسياسية وصحية، من كثيرين ومنهم رجال من الانجليز وذوى المكانة الذين أثبتوا أن هذه المشروعات ضارة بالبلاد وأنه لم يقصد بها سوى

مصلحة الأجنبى وخاصة أصحاب رؤوس الأموال والشركات من الانجليز.

٦ - تقرر أن كل عمل قامت أو تقوم به الهيئة الحاكمة ويكون فيه مساس بالاستقلال التام لمصر والسودان أو مصالحهما يعد لغوا ولا يلزم الأمة فى شىء فالأمة وحدها هى صاحبة الشأن فى تقرير كل ما يتعلق بأمورها الحاضرة والمستقبلة.

٧ - تقرر الجمعية إبلاغ هذه القرارات إلى الجهات الآتية:

الوفد المصرى فى باريس «رئاسة مجلس الوزراء» قناصل الدول فى مصر، الصحف المصرية «كبريات الصحف الأجنبية خارج مصر» سكرتيرية الجمعية التشريعية لحفظها فى سجلاتها.

٨ - إرسال برقية إلى رئيس الوفد المصرى بباريس لشكر الوفد على ما قام به من الأعمال.

تلى المحضر وتصدق عليه وانتهت الجلسة حيث كانت الساعة السابعة والدقيقة ٤٥ مساء.

وفيما يلى أمضاء جميع الأعضاء الحاضرين:

إبراهيم سعيد باشا - حسين واصف باشا - قلينى فهمى باشا - راغب عطية بك - فتح الله بركات باشا - حسين هلال بك - حسن سيف الله- الدكتور محمد أمين بدر الدين - محمود الأتربى باشا - السعدى بشارة الطحاوى بك - عمر مراد بك - متولى حزين بك- عمر خلف الله بك - إبراهيم على بك - محمد محمود بك - حنفى منصور بك - محمد علام بك - على المنزلاوى بك - محمد رشوان الزمر بك - اسماعيل أباظة باشا - الشيخ محمد شاكر - محمد السيد أبوعلى باشا - عبدالرحمن عوض بك - الشيخ عبدالفتاح الجمل - على شعراوى باشا - حافظ المنشاوى باشا - أمين سامى باشا - منصور يوسف بك - يوسف أصلان قطاوى باشا - زكريا نامق بك - عبدالسلام

العلايلى بك - محمد كمال أبوجازية بك - طنطاوى بك طنطاوى - إبراهيم دويدار بك - علوى الجوار بك - محمد أمين أبوستيت بك - محمود همام بك - محمد محفوظ باشا - عبدالرحمن محمود بك - ميشيل لطف الله بك - محمد المنياوى بك - محمد على سليمان بك - حسن الشريعى بك - محمد عبدالخالق مدكور باشا.

والمتذرون عن حضور هذه الجلسة هم:

أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية - طلبة سعودى باشا - محمد شريعى بك - مرقص سميكة باشا - محمد عثمان أباظة بك.

انزعجت السلطات البريطانية فى مصر انزعاجا شديدا من صدور هذه القرارات من أكبر هيئة تمثيلية فى البلاد، واشتدت خشيتها مما عسى أن يكون من آثارها فى البلاد لا سيما بعد إعلانها صراحة بطلان الحماية وإعلان الاستقلال التام.

وعلى الاثر أصدر لورد اللنبى المندوب السامى البريطانى أمرا عكسريا فى ١٦ مارس ١٩٢٠ بمنع اجتماعات الجمعية ومنع اجتماع كل هيئة تمثيلية فى غير الأوضاع المقررة فى القوانين واللوائح.

وفيما يلى نص هذا الأمر العسكرى:

«أنا الموقع أدناه أدموند هنرى فيكونت اللنبى بمقتضى السلطة المخولة لى بصفة كونى فيلد مارشال قائدا عاما لقوات جلالة الملك فى القطر المصرى، أصرح وأعلن ما يأتى:

«ممنوع كل اجتماع للجمعية التشريعية أو لأى مجلس مديرية أو لأى هيئة منتخبة، وكل اجتماع من أعضاء تلك الهيئات بصفتهم أعضاء فيها، ما لم يكن ذلك بمقتضى الشروط المنصوص عليها فى القوانين أو اللوائح الخاصة بها ويشمل هذا المنع كل اجتماع من هيئتين أو أكثر من الهيئات المنتخبة، ومن أعضاء

هيئتين أو أكثر من تلك الهيئات بصفتهم أعضاء فيها ما لم يكن مرخصا بهذا الاجتماع ترخيصا صريحا بمقتضى القانون.

وكل مخالفة للأحكام المتقدمة تقع تحت طائلة الأحكام العسكرية وكل قرار تتخذه أو توافق عليه إحدى الهيئات المنتخبة فى أى موضوع خارج عن اختصاصها يكون ملغيا ولا يعمل به، وجميع الأعضاء الذين يكونون قد وافقوا على ذلك القرار يكونون عرضة للمحاكم أمام مجلس عسكرى».

فيلد مارشال

اللنبي

الخطاب الرابع من عدلى إلى سعد

وصل ظهر اليوم ١٠ من مارس، الخطاب الرابع من عدلى إلى الزعيم سعد زغلول وفيه يقول إنه تكلم مع ملنر قبل سفره من القاهرة بشأن ما عرضه الوفد من تأليف وزارة تمهد لوضع نظام دستورى للبلاد، فقال ملنر: «إن الفكرة لا بأس بها، ولكنى لا أرى من المصلحة تغيير الوزارة الحاضرة فى هذه المرحلة وذلك لأنه إذا شكلت وزارة مهمتها مقصورة على المفاوضة واعترضت هذه المفاوضة صعوبات قد يكون من نتائجها سقوط هذه الوزارة بينما أعضاء كل وزارة يجب أن يكونوا مسئولين عن إدارة شئون البلاد ويجب ألا يكونوا عرضة للتخلى عن خدمتها لمجرد أشكال يمكن أن يحل فيما بعد. واستعمل فى تقريب هذا المعنى عبارة انجليزية».

فقد عدلى للملنر لم يبق إذن سوى حل واحد وهو أن تتفاوض مع الوفد.

وختم عدلى خطابه الطويل بالعبارة الآتية:

«إنى بعد التفكير والمشاورات رأيت أن فكرة تشكيل وزارة جديدة قبل الدخول فى المفاوضات لا تخلو من بعض المحظورات، إذ لا يخفى عليكم أن وزارة تشكل الآن

والحماية قائمة، والسلطات الانجليزية متغلغلة فى البلاد ومسيطرة تماما على جميع المصالح الحكومية والبلاد تحت الأحكام العرفية تكون وزارة ضعيفة ويكون مركزها محفوفا بالمخاطر فيكون أن يخونها التوفيق فى حل مشكلة واحدة من المشاكل العديدة التى ستعرض لها يوميا لتضيع ثقة الأمة بها، وينفر منها الرأى العام خصوصا وعوامل الفساد شديدة وسوء الظن واسع الانتشار ولا يسلم منه إنسان».

وبعد أن أورد عدلى كثيرا من المحادثات التى دارت بينه وبين ملنر قال ما يأتى نصه:

«والان وقد سافر اللورد ملنر وانتهت أحاديثنا معه على ما تقدم وأصبح هو ينتظر منا الجواب إما بقبول المفاوضة أو رفضها، فنرى أن الأمر يحتاج قبل البت فيه إلى تبصر فى الحال وبحث دقيق فيها من جميع وجوهها حتى إذا تبينتم فائدة من المفاوضة بعد الذى كان وما حصلنا عليه من تصريحات انتهزنا هذه الفرصة وأخذنا عدتنا للدخول فيها، وإلا تركناهم يفعلون ما يريدون ولله عاقبة الأمور.

وقد خطر ببالنا أنه ربما كان من المفيد وجودى بينكم أثناء ترويكم فيما نجيب به، إذ ربما احتاج الحال إلى مبادلة الرأي، وإلى مخاطبة ملنر فى شأن من الشئون قبل البت فى المسألة، فلا نضيع فى ذلك الوقت الطويل الذى لابد منه فى التراسل ونحن هنا وأنتم فى باريس وملنر فى لندن، فإذا كنتم ترون فائدة من حضورى إليكم عجلت سفري، إذ فى نيتى السفر إلى أوروبا هذا العام فى شهر مايو، فإذا ما وصلنا جوابكم بالموافقة فى بحر هذا الشهر سافرت إليكم فى العشرة الأيام الأولى من الشهر القادم..».

١١ مارس سنة ١٩٢٠: بعد أن تناقش الوفد فى موضوع خطاب عدلى ودرس اقتراحه بشأن حضوره إلى باريس، أرسل الرئيس برقية إلى عدلى بالموافقة على تقديمه موعد سفره إلى باريس والترحيب بقدمه

فماذا كان رد عدلى على هذه البرقية؟

أرسل عدلى برقية إلى الرئيس سعد يوم ١٣ مارس يقول فيها:

«قبل تحديد موعد سفرى من مصر أكون سعيدا إذا تسلمت منكم خطابا».

فدهش الرئيس وجميع أعضاء الوفد لهذا الطلب ذلك لأن التعجيل بالسفر كان بناء على الرغبة التى سبق لعدلى باشا نفسه أن أبداها فى خطابه الأخير وفصلها تفصيلا».

وأرسل الوفد يوم ١٤ مارس رده إلى عدلى فى برقية جاء فيها:

«إن الوفد يكون سعيدا برؤيته فى أقرب فرصة لتبادل الرأى معه طبقا لخطابه».

وفى الوقت نفسه أرسل الرئيس خطابا رقيقا قصيرا إلى عدلى أبدى فيه دهشته من برقيته عن الاتيان بتفصيلات السائل أعلم بها من المسئول.

والآن نترك عدلى مؤقتا يعد حقائب ويرتب أوراقه ويستعد للسفر إلى باريس بقصد الاتصال بالزعيم وبالوفد، وقد استقر رأى أغلبية أعضاء الوفد على تعطيل نشاط الوفد وعدم عقد جلساته لعدم جدواها حتى يصل عدلى..

ولابد هنا من وقفة أسجل فيها حقيقتين بارزتين:

الأولى: رأى الرئيس سعد فى مسلك عدلى ومراسلاته المديدة.

والثانية: الأزمة النفسية التى أصيب بها الرئيس من جراء زملائه فى الوفد.

رأى سعد فى مسلك عدلى

أول أبريل: كنت أتناول الشاى وحدى مع الرئيس سعد كالعادة كل يوم، فسألته السؤال الآتى:

«ما هو الأثر الذى وقع فى نفسك من مسلك عدلى حتى الآن ومراسلاته المديدة التى كثرت وامتدت حوالى شهر كامل».

فسكت الرئيس قليلا ثم خلت أننى أسأت التصرف وتدخلت فيما لا يعنيني، ولكنه نظر إلىّ باسما وقال فى شيء من المرارة وفى كثير من الصراحة:

أولا: أن الوفد لم يخطر بباله أن يدعو عدلى إلى الحضور إلى باريس إلا بناء على طلبه واقتراحه، وقد كرر عدلى استعداده للحضور إلينا فلما وافقنا على حضوره عاد يسألنا عن خطاب نبين له فيه أسباب رغبتنا فى حضوره وهو صاحب الرغبة أولا وآخرا، وهذه مماحكة غير لائقة بالرجال.

ثانيا: إن عدلى فى الحقيقة لم يكن رسول الوفد لدى ملنر بل كان العكس رسول ملنر إلى الوفد، مهمته أن يقنع الوفد بالدخول فى المفاوضة مع ملنر وهو يعلم أو يجب أن يعلم أن ملنر ولجنته لم يحضروا إلى مصر للمفاوضات وإنما للتحقيق فى أسباب الثورة واقتراح نظام لحكم مصر فى دائرة الحماية فى حين أن الوفد يهدف إلى إلغاء الحماية وتحقيق الاستقلال. ومع هذا فقد أراد عدلى من الوفد أن يعود إلى مصر ليساعده على انجاز مهمته على أحسن وجه ووضع تقرير شامل بعد سماع كل ذوى الرأى من المصريين، فلما فشل فى هذه المهمة أراد الحضور إلينا ليقنع المستضعفين منه بمفاوضة ملنر فى أوروبا تحقيقا لرغبة ملنر فى سماع الوفد حتى يخرج تقريره كاملا شاملا.

ثالثا: إن عدلى لم يتعفف فى إظهار رغبته فى تشكيل الوزارة التى عرضت عليه بل استحسن الفكرة وعرضها فعلا على ملنر، وأن ملنر هو الذى عارض فيها، وفضل إدخار عدلى وأصدقاءه ليكونوا ذخرا للمستقبل.

رابعا: إن عدلى صرح للوفد فى خطابه المؤرخ يوم ٢٩ يناير أن ملنر أكد له فى أثناء مناقشته أن المقصود بالنص الانجليزى هو الحكومة الدستورية، وهذا غير صحيح وينطوى على تضليل، فالحكومة الدستورية شيء جميل ومرغوب فيه، وأما الحكم الذاتى فهو دون الاستقلال التام الذى ننشده وقد يقوم نظام الحكم الذاتى جنبا إلى جنب مع الحماية.

خامسا: إن عدلى لم يخرج من عزلته التى لزمها منذ قيام الوفد إلا بعد أن زاره ملنر فى بيته فرد له الزيارة وجرت بينهما تلك المحادثات التى كان من نتائجها إرسال برقيته التى حاول بها منعنا من إبداء الرأى فى تصريح لجنة ملنر حتى يصلنا خطابه.

سادسا: إن جميع مراسلات عدلى ناطقة بأنه إنما حاول إقناع الوفد بوجهة نظر ملنر.

سابعا: إن جريدة التيمس نفسها قد نشرت أن عدلى سيسافر إلى باريس لا للراحة كما زعم وإنما لإغراء زغلول والوفد بالاتصال والمفاوضة مع ملنر..

الفصل العاشر

الأزمة النفسية الأولى لسعد وبدء اعترافاته



فى يوم ٢ أبريل ١٩٢٠: وهو اليوم التالى لحديثى السابق مع سعد، حضرت لتناول الشاى معه كالعادة قبل عرضى عليه ما نشرته الجرائد الانجليزية الصباحية، فوجدته واجما صامتا على غير عادته، ولاحظت الانقباض ظاهرا عليه ظهورا ملموسا، فأردت انتماشه بكلام مشجع أو على الأقل حمله على الكلام فاكتشف سره الدفين.

قلت له: «انى لا أعرف زعيما فى أى بلد من بلاد العالم يتمتع بثقة شعبية كاملة كشعبيتك. كلمة منك إلى الأمة بمقاطعة ملنر ولجنته فجاءت المقاطعة كاملة شاملة ساحقة محطمة لكل آمال ملنر والمستعمرين، وما عرفت الأمة المصرية قبل الآن انها جمعت على شيء بناء على رغبة رجل واحد، ألا ترى أن ثقة الأمة بك تشرف وتنعش وتسعد ومن شأنها أن تديم السرور فى نفسك؟

الاعتراف الأول

فرفع سعد رأسه ونظر إلىّ باسما ابتسامة هادئة لمحتها من وراء سحب الغم والكمد البادية عليه ثم قال:

«إن الذين لا يعرفون حقيقة ما أنا فيه من الهم والحزن ربما يحسدوننى على ما تضعه الأمة من الثقة بي، ولكنها ثقة المخدوم بخادمه لاثقة المقلد بإمامه، وأشعر أنى كلما فعلت ما يرضى أهواءهم رضوا عني، وإذا بدا لى ما يخالف

فكرتهم انفضوا من حولى وانقلبوا علىّ.. مركز ما أحرجه خصوصا وانى فى كثير من الظروف لا أستطيع أن أبوح بما فى صدرى دفعا للهم عنهم، ولكنى على كل حال قد تذرعت بالصبر وسأستمر كذلك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا».

لم أكن أتوقع أبدا أن أرى سعدا يمر فى أزمة نفسية حادة ولم أجد لذلك مسوغا، ولم أكن أتصور أنه يعانى حالة نفسية أليمة، ويشقى بها إلى هذا الحد وأنا القريب منه المطلع على كل ما هنالك، فلم أتمالك أن أسأله سؤالاً جريئا لا أظننى كنت أجرأ على توجيه مثله إليه لولا حبى له وإشفاقى عليه.

الاعتراف الثانى

قلت له: ما الذى يزعجك ويضنيك؟ هل بلغتك أخبار غير سارة من مصر؟

قال: كلا، ولكنى غير مطمئن إلى بعض أعضاء الوفد، لقد تشكل الوفد وليس بيننا توافق لا فى التربية ولا فى النشأة ولا فى المشرب ولا فى الأخلاق ولا فى المزاج ولا فى النظرة إلى المثل العليا. وليس المطلب الذى نسعى إليه متمكنا من نفوسنا بنسبة واحدة، بل هو ثابت مكين فى البعض ومتردد هزيل فى البعض الآخر، ولذلك فإننا لا نهتم بما يلزم الاهتمام الكافى. وبعض أعضاء الوفد لا يفكرون فى شىء إلا عند اجتماعنا ومع ذلك حتى فى الاجتماع لا يكون الاهتمام بما هو تحت البحث بدرجة واحدة ولا حتى متقاربة، ولا يعتذر الواحد منهم يصاحبه عن هفوة يهفوها أو سقطة يسقط فيها أو كلمة قاسية تصدر عنه، وهكذا تتغير النفوس ويقل التضامن وتنعدم الصراحة وتتولد الوقاحة وتختل الموازين.

«انظر إلى الجمعية المصرية بباريس قد خرجت على الوفد ثم دعت فى الوقت عينه بعض أعضاء الوفد فلبوا الدعوة من غير أن يرجعوا إلى التشاور وأجد رأيى فيما ينبغى أن يكون عليه مسلكهم أو حتى فيما يقولون، ولما شكوت ذلك إلى لطفى السيد وعبرت له عن ألمى وخيبة أملى أتدرى ماذا قال؟ إنه لم

ينتقدهم بل لم يعترف حتى بوجود الحق فى جانبي، واكتفى بأن قال باسما: «إن تصرفهم هذا ناشىء عن عدم الالتفات من جانبهم لا أكثر ولا أقل». فعجبت من هذا التعليق وسكت على مضض.

هذا ولم تكن الحفلة التى حضرها هؤلاء الأعضاء مقصورة على سماع محاضرة، بل كان فيها طعام وشراب وكلام وانتقاد، تأمل يا كامل من كل هذا نستخلص منه انى فى حالة توجب الأسى والأسف.

وفى يوم ٥ أبريل ١٩٢٠: خرج سعد للمشى والرياضة فى غابة بولونيا وكنت معه كالمعتاد ومعى جريدة التيمس الانجليزية لأطلعه على ما فيها حين نجلس بعد المسير.

الاعتراف الثالث

وبينما نحن نسير الهوينا قلت لسعد: «يخيل إلي» أن لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى ومحمد محمود أعقل أعضاء الوفد وأكثرهم اتزانا وأقربهم إلى مثلك وأعمقهم ثقافة وأكثرهم لباقة، فهل أنا مصيب؟

فسكت سعد قليلا ثم قال: «يجوز.. يجوز، ولكن اسمع ما حدث أمس، طلب منى لطفى السيد أن يعود إلى مصر أسوة بمصطفى النحاس وويصا واصف والدكتور حافظ عفيفى فلم أوافقه وأظهرت اهتمامى به فامتثل راضيا، وبعد خروجه حضر عندى عبدالعزيز فهمى وطلب كذلك العودة إلى مصر بحجة أن نقوده نفدت وأن يده أصبحت خالية منها، فقلت له إن هذه علة يمكن علاجها، فامتعض وارتعش وغطى وجهه بيديه وأرغى وأزبد فطلبت منه ألا يغضب إلى هذا الحد، فازداد وكأنى أغريه بالاستمرار فى غضبه وحدته ثم قال: «أنا لا أقبل منك هذه الإهانة وأنا لست أقل منك عفه أو غني» إلى غير ذلك من العبارات، وهنا قال لى سعد «وماذا كان ينتظر منى أن أقول لإنسان يشكو من قلة ماله

وسوء حاله وتفكيره فى العودة لهذا السبب..؟

ثم سكت سعد قليلا وقال: «ومع ذلك استعطفته كاظما غيظي».

وخرج عبدالعزيز فهمى وترك سعدا ومعه سينوت حنا وحمد الباسل، ولم يستطع سعد إلا الاستمرار فى الكلام مع صاحبيه حتى استنتجا من هيئته أنه متألم أشد الألم، فانصرفا بعد أن أظهرا إعجابهما بحلم الرئيس إزاء تهور عبدالعزيز فهمي.

الاعتراف الرابع

وعندما ركبنا السيارة عائدين إلى مسكن الرئيس فى الشانزليزيه أخبرنى أن محمد محمود زاره مساء الأمس وأخذ يطعن فى لطفى السيد وأخلاقه وصداقته المتينة بعدلي، فأظهر له الزعيم من صداقة لطفى له ومودته إليه ما لطف من حدته وطيب خاطره، ثم قال لى سعد «إنى أشك فى إخلاص هذا الرجل، وهو كثير الانتقاد لكل إنسان ومع ذلك فالأولى أن يكون لطف المعاملة خلقا وعادة فى الإنسان».

واذكر أنه ختم ملاحظاته هذه المرة بالعبارة الآتية:

«إن حالة إخواننا لا تشجع على الاستمرار فى العمل معهم فهم ليسوا جميعا على مبدأ واحد ولا يشعرون كلهم بشعور واحد، فهم يعبدون ما لا أعبد، وأعبد ما لا يعبدون، والأولى ألا أخاطبهم فى انصرافهم وليعد إلى مصر من شاء أن يعود وسأقلل من مناقشتهم ولا أظهرهم على كل ما عندي».

هذه تصريحات بل اعترافات خطيرة مريرة لم تكن تخطر على بال..

يوم ٦ أبريل ١٩٢٠:

قررت اليوم فى نفسى قرارين:

القرار الأول: أن أمتنع مؤقتا عن التحدث مع سعد فى السياسة وشئون

الوفد، فلا أوجه إليه سؤالا لا يثير دفائن صدره وإنما أحاول صرف ذهنه عن السياسة والوفد بأن أحدثه فيما قرأته وأقرأه من بعض الفكاهات الأدبية الراقية أو الحوادث التاريخية أو أحداث النظريات الفلسفية والعلمية، وبهذا أشغله عما يقض مضجعه فيستريح مما هو فيه ومما يعانيه.

والقرار الثانى: أن أحاول اكتشاف ما عند أعضاء الوفد من أفكار ونيات وعواطف نحو الزعيم وأقف على بواعثهم واتجاهاتهم وميولهم. إذ مازالت كلمات سعد ترن فى أذنى «أنهم يعبدون ما لا أعبد، وأعبد ما لا يعبدون». وممنى هذا أن لهم أهدافا سياسية غير أهدافه أو كأنهم جميعا لا يخدمون قضية واحدة هى قضية الاستقلال، ولعلى بمعلوماتى الجديدة أستطيع أن أوفق بينهم جميعا!! ماذا أقول؟.

تأدب يا موسى، من أنا الذى يستطيع أن يوفق بين رجالات مصر المتزعمين حركتها الثورية، انى شاب فى الثامنة والعشرين من عمري، وهم رجال مصر المثقفون المجربون المتقدمون فى السن، ولعل أصغرهم سنا قد جاوز الخمسين ومنهم فطاحل فى الشئون المالية والقانونية والزراعية والإدارية والعلمية..

انصرفت فورا عن فكرة محاولة التوفيق تأدبا وتواضعا واستحياء.. ولكنى لم أنصرف ولن أنصرف عن معرفة الحقائق، معرفة أفكارهم وعواطفهم واتجاهاتهم والأسباب الداعية إلى خلافاتهم مع الزعيم.

يوم ٧ أبريل ١٩٢٠:

تحدثت اليوم مع محمد على علوبة، إذ قابلته صدفة يتريض مشيا فى الشانزليزيه، وهو رجل آية فى الرقة والطيبة والابتسامة الحلوة، قابلته فى الساعة السابعة مساء، بعد أن تركت الرئيس الذى رغب فى الاستراحة والنوم مبكرا هذه الليلة، وظللت معه حتى الساعة العاشرة ليلا وقد تفضل فدعانى للعشاء معه واستمر يتكلم طوال الوقت فى أثناء السير فى الطريق وأثناء العشاء

وبعد العشاء وأنا أصغى إليه فى اهتمام ظاهر، وصدق من قال :نشاط المتكلم على قدر فهم السامع واهتمامه»، وكنت أقول وأنا أسمع إليه «ويأتيك بالأخبار من لم تزود».

لقد عرفت بفضل حديثه الطويل المفصل كل شيء.. عرفت رأيه ورأى الأعضاء فى رئيسهم سعد زغلول وفى بواعثه واتجاهاته..

وعرفت رأيه فى القضية المصرية وطريقة حلها..

وعرفت رأيه فى الأعضاء المكونين للأغلبية فى الوفد ورأيهم فى عدلي..

عرفت أسرار الأزمة النفسية.. عرفت كل شيء من وجهة نظره، فماذا قال..

رأى علوبة واعترافاته الخطيرة

أنى أسوق كلامه، وأفكاره الآن فى سلسلة متصلة الحلقات بغير الأسئلة التى وجهتها إليه فى أثناء الحديث، فقد أجاب عنها وأريد أن أدمجها الآن فى بيان متصل وذلك حتى تتكون للقارىء فكرة واضحة المعالم والحدود عن رأى معسكر الأغلبية داخل الوفد فى باريس.. قال:

«إننا من يوم أن تركنا مصر واستقر بنا المقام هنا فى باريس وأبواب الجهاد والكفاح والعمل موصدة فى وجوهنا، كان مؤتمر السلام منعقدا عند وصولنا، وكان الأمل عندنا أن ندخله أو نتصل برؤساء الوفود والأعضاء الممثلين فى المؤتمر وأن نطلعهم على قضيتنا وعلى حقنا فى تقرير المصير والاستقلال، ولكن الأبواب استمرت مغلقة، ورفض رؤساء الوفود وأعضاؤها مقابلة أحد منا، وذلك بسبب نفوذ بريطانيا الساحق فى هذا المؤتمر، فقد خرجت بريطانيا منتصرة فى أعظم حرب فى التاريخ وهى تملى الآن إرادتها على أمريكا بدليل أن ولسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة اعترف بالحماية البريطانية قبل وصولنا إلى باريس. وأنكر على مصر حق تقرير المصير دون سائر العالمين.. ورفض مقابلتنا

وبدليل أن رؤساء الوفود قد نفذوا تعليمات بريطانيا لهم وعدم مقابلة أحد منا، وظللنا نعمل فى إعداد المذكرات المسهبة وسرد الأسانيد القوية المتينة لحقنا فى الاستقلال، والمثبتة لبطلان الحماية البريطانية المفروضة على مصر، فكانت كل هذه المذكرات والبيانات المرسلة فى ظروف مسجلة إلى جميع رؤساء الوفود وأعضائها تلقى فى سلة المهملات فلا يقرأها أحد ارضاء لبريطانيا، وكانت الجرائد الفرنسية فى باريس ولندن ترفض نشرها بل ترفض حتى مجرد الإشارة اليها، وأخيرا هدتنا الحيلة الى نشر بعض هذه المذكرات فى بعض الجرائد الفرنسية ولكن فى شكل إعلانات، أى أن الجريدة تنشر فوق المذكرة كلمة «إعلان» وتحتها نص المذكرة وكانت تحاسبنا على كل سطر منشور كما هى الطريقة فى نشر كل إعلان! وقد تكلف الوفد بذلك آلاف الفرنكات، وحاول سعد مرارا أن يتصل بمسيو كليمنصو رئيس المؤتمر ورئيس الوزارة الفرنسية فرفض المقابلة، وانتهى مؤتمر السلام بغير سلام لمصر، وانفض السامر وعاد المؤتمرون إلى بلادهم، ونحن هنا فى باريس لا ندرى ماذا نعمل لخدمة قضية البلاد فى الاستقلال التام.

«الأبواب مازالت موصدة فى وجوه الوفد والحركة الوطنية الثورية فى مصر قد همدت وانطفأت وانتهت، وحكم الإرهاب البريطانى مستمر ينكل بأبنائنا ومصالحنا فى مصر، والناس فى مصر متوهمون اننا بوجودنا فى باريس نخدم قضية الاستقلال ونعمل للخلاص من كابوس الاحتلال هذا والضمير العالمى ميت لا ينصف شعبا صغيرا ولا أمة مظلومة، وإنما يناصر القوى على الدوام. فما العمل؟ هل نبقى فى باريس بغير عمل مجد أو نعود إلى مصر أفرادا وجماعات؟ أو نستمر فى إثارة الأوهام فى مصر بأننا نعمل ونحن لا نعمل شيئا؟ هذه هى الأسئلة فى الصميم.

«والآن فتح أمام الوفد باب نرجو دخوله ونتوقع الخير من ورائه».

«عدلى باشا يحاول فتح هذا الباب حتى نجح فى فتحه، وحمل ملنر على قبوله الاتصال بنا والمفاوضة مع الوفد فى باريس أو فى لندن ومهما يكن من أمر هذه المفاوضات فإنها على الأقل عمل وهى على الأقل تنتج لا محالة ثمرة خيرا من هذا البلاء والبؤساء والشقاء الموجود فى مصر الآن..

«فهل نرفض دخول هذا الباب ونرفض هذه المحاولة الجديدة ولا تقبل الاتصال بملنر إلا بشروط نمليها وقيود نفرضها عيه كأنه فى حاجة ماسة إلينا ولسنا فى حاجة إليه؟ وإذا رفضنا هذا كله ورفضنا علية ملنر فى مفاوضاتنا فكيف نخدم قضيتنا؟..

«هذه هى الأسئلة التى بحثناها فى الوفد ولم نصل فيها إلى نتيجة رغم ما هى عليه من وضوح وخطر ورغم أن الإجابة عنها من البداهة بمكان».

«سر المتاعب كلها سعد زغلول لأنه شديد الاعتداد بنفسه وبرأيه ولا يقيم وزنا لآراء الآخرين وسر المعارضة كلها سعد زغلول وهو غير عملى رغم شيخوخته وهو خيالى مثل أحمد عرابى».

«إن الأغلبية العظمى من أعضاء الوفد يرحبون بعدلى ويمجهود عدلى ويغبطون بقرب قيام فرصة للعمل والاتصال بملنر ولجنته عسى أن تسفر المفاوضات والاتصالات خيرا تناله بلادنا التعسة».

«وسعد زغلول ومعه اثنان فقط هما واصف غالى وسينوت حنا يعارضون ويعاندون. لقد ضقنا ذرعا بسعد حتى هدد بعضنا بالعودة إلى مصر مثل لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وأنا، وذلك لنقنع سعدا بأن مشروع عدلى فى المفاوضة مع ملنر إذا رفض فلا محل ولا معنى لبقائنا هنا فى باريس، ولكن سعدا مع ذلك يعارض ولا يتعب فى المعارضة، ومن رأيه أن المفاوضة مع ملنر عبث فى عبث وأنه ولجنته يريدان وضع نظام لمصر فى دائرة الحماية ونحن نريد الاستقلال، والضدان لا يجتمعان.

«منطق عجيب لا منطق عملى عصرى حديث».

«وما يدرينا لعل المفاوضات تنتهى إلى إلغاء الحماية بالحجة والإقناع، أى إذا رأت الحكومة البريطانية أن الأمور تستقر فى مصر بذلك وإذا رأت أن مصالحها الحيوية تكون مضمونة أكثر ومركزها يكون أحسن».

«لماذا نسبق الحوادث ونتشاءم، والسياسة كما تعلم هى من الممكنات، ولكن سعدا يتعنت ويطلب المستحيلات ولا يريد أن يخضع للأغلبية داخل الوفد، فكيف نعمل معه؟ إنه يضيق ويسخط إذا عارض أحد منا رأيه أو فكرته، أن القضية المصرية ككل قضية.. ومثل أى مشكلة لا تحل إلا بوسيلة من ثلاث:

١ - اما الثورة والقوة، والثورة كما تعلم قد انتهت والقوة لا وجود لها.

٢ - وإما بالتقاضى أمام المحاكم أو المؤتمرات والمحافل الدولية وهى لا قيمة لها حتى لو وجدت.

٣ - وإما بالتراضى بين الخصمين، وهذا هو الطريق الأوحد أمامنا، ومصر وبريطانيا هما الخصمان، وفرصة التراضى سانحة الآن بفضل مسعى عدلي، فإذا رفضنا هذه الوسيلة الوحيدة فماذا يبقى أمامنا؟

«قلنا ذلك لسعد فهاج وماج وغضب واحتد، وقال إن جهاد الأمم لتحقيق حرياتها وسيادتها واستقلالها ليس كقضايا الأفراد والهيئات وبعد أن تكلم طويلا كلاما حماسيا قذف سعد بكل جارحة فى وجه أعضاء الأغلبية إذا قال: «أنتم تعبدون ما لا أعبده. فصرخ فى وجهه عبدالعزيز فهمى قائلا: «ماذا تقصد بهذا يا حضرة الرئيس» فقال سعد: «أنتم على ما يظهر لى مستعدون لأن تقبلوا أى حل للقضية المصرية، أما أنا فلن أرضى بغير الاستقلال التام بديلا، وليكن بعد ذلك ما يكون».

وقد اضطربت الجلسة الأخيرة وتكهرب الجو وقد توترت الأعصاب وانقضى الاجتماع والكل ساخطون.. ثم كانت آخر جملة قالها الأستاذ علوبة غاية فى

الخطورة إذ قال: «لقد أصبحت أعتقد أن سعدا إ يعمل لمجده الشخصى وشهرته بين الجماهير، ولا يريد أن يحقق لمصر أية خدمة حقيقية أو يجد لها منفذا للخلاص من حالتها التعسة الحاضرة».

هنا سكت الأستاذ محمد على علوبة إيذانا بانتهاء حديثه المتدفق الذى نزل علىّ مطرا مدرارا وظللت مطرقا ساكتا ولم يفتح الله علىّ بكلمة أقولها، لأن الحزن غمرنى وعقل لساني.

ثم قال صاحبي: وما رأيك الآن.. إنى حريص أن أعرف رأيك!

قلت: ألا تحب أن تعرف شعورى قبل أن تعرف رأيي؟ قال إذن ما شعورك؟

قلت:إنى حزين وفى حيرة، ولكن هذا لا يهم، لأن المهم أن تعرف كيف يعمل الوفد بعد الآن كهيئة ممثلة لمصر وماذا سيكون عليه الحال عندما يصل عدلى إلى باريس.

قال: لا أعرف. قلت دعنا نفكر.

وافترقنا بعد أن شكرته على ما تجشمه من العناية بإحاطتى علما بالحقائق التى تسود الموقف الآن.

الفصل الحادى عشر



انقسام الوفد إلى معسكـ

٨ أبريل ١٩٢٠

لم أستطع أن آوى إلى فراشى ليلة أمس إلا حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأن نفسى كانت كالدوامة، وأثرت أن أسجل كتابة خلاصة وافية للحديث العاطفى المنطق القوى الذى أدلى به إلى الأستاذ محمد على علوبة، فلما فرغت من تدوينه استراحت نفسى نوعا ما وشعرت بالتعب والاسترخاء، ومع ذلك لم أنم إلا غرارا..

واليوم.. استأنفت تفكيرى مبكرا لأنى يجب أن أهتدى إلى فكرة صائبة ومسلك حكيم، وإلا فسدت علاقتى بالرئيس أو بالأعضاء وما أريد إلا أن أكون على أحسن العلاقات مع الجميع، ويخيل إلى أنى عرفت كل ما أردت معرفته، فلا حاجة بى بعد اليوم إلى التحدث مع أحد من أعضاء الوفد إلا حديثا موجزا وذلك حتى لا يشعر سعد بأنى شديد الاتصال بغيره، وانى لأراه فى حالة من توتر الأعصاب وسوء الظن مما أخشى معها سوء المغبة.

لقد تجلى لى الموقف على الوجه التالي:

أن الوفد ينقسم الآن إلى معسكرين مختلفين.

الأول: معسكر الرئيس سعد ومعه أربعة أعضاء فقط عضوان اثنان فى باريس هما واصف غالى وسينوت حنا، وكلاهما لا يجيد العربية كلاما أو كتابة وان كان

أولهما مفكرا عميق التفكير ومطلعا واسع الاطلاع، وكاتبا بارعا رصينا فى اللغة الفرنسية. وثانيهما أى سينوت بك من كبار أعيان أسيوط وعظمائها الأذكياء، ثم عضوان اثنان فى القاهرة هما الأستاذ مصطفى النحاس بك القاضى العادل والوطنى المتحمس الشجاع، وجورج خياط من أعيان أسيوط وعظمائها وان كنت لم أره ولم أسمع به قبل الآن.

والثاني: معسكر الأغلبية ويتكون من الأستاذ عبدالعزيز فهمى بك نقيب المحامين والعالم الفقيه والجرىء، والأستاذ لطفى السيد الكاتب البارع والمفكر العميق والأستاذ محمد على علوبة بك المحامى الضليع الفصيح المنطق، ومحمد محمود باشا خريج جامعة اكسفورد والمدير الشهير السابق وعبداللطيف المكباتى النائب الجرىء المفصيح المتوقد، وحمد الباسل باشا الحصيف ذو العصبية والنفوذ الساحق فى الفيوم والأستاذ على ماهر القاضى العادل النزيه الشجاع، ومع هؤلاء فى القاهرة الدكتور حافظ عفيفى السياسى المرن، والأستاذ ويصا واصف نقيب المحامين أمام المحاكم المختلطة والعجيب الغريب أنى أرى كلا من هذين المعسكرين على حق، وهذا ما يحيرني، وما كنت أعرف قبل اليوم إلا أن هناك حقا وباطلا ولكنى الآن أعرف أن للحق ناحيتين وكلتاهما مصيبة قوية ووجيهة..

رأى سعد فى مفاوضة ملنر

ويرى الرئيس سعد بحق أن ملنر مكلف من قبل الحكومة البريطانية بأن يجرى تحقيقا لمعرفة أسباب الاضطرابات الدائرة فى مصر ثم يقترح نظاما جديدا لحكم مصر فى دائرة الحماية البريطانية وليس له أن يخرج عن هذه الدائرة الضيقة وإلا خرج على التفويض الذى حلق لحيته وخالف التعليمات التى حددت مهمته. فقد قوبل ملنر بمقاطعةفريدة كاملة شاملة فى مصر وعجز عن إجراء أى تحقيق لأنه كلما زار مصريا كبيرا أو حقيرا أو انتقل فى الأرياف هو

وأعضاء لجنته، لم يسمع إلا جملة واحدة «اذهب إلى سعد والوفد، الوكلاء عن الأمة» حتى عدلى ورشدى وثروت قد أحالوه على الوفد خشية سخط الأمة عليهم وعلى من يخرج على مبدأ المقاطعة. فملنر إذن فشل فى مهمته ومن يستطيع مطلقا أن يقترح نظاما جديدا لحكم مصر يرضى عنه المصريون.

وحتى يتسنى له أن يقوم بمهمته يجب أن يتصل بسعد والوفد، وسعد لا يريد أن يساعد ملنر على أداء مهمته، وهى التحقيق وإقرار نظام جديد يوطد دعائم الحماية البريطانية. ومادام هدف سعد والوفد والأمة المصرية هو الاستقلال التام فليست المفاوضات مع ملنر هى السبيل لتحقيق هذا الغرض السامى، ومادام الأمر كذلك فإن وساطة عدلى فى تمهيد الطريق للجمع بين الوفد ولجنة ملنر توطئة لاجراء المفاوضات بينهما، إنما هى وساطة لخدمة ملنر ولجنته، لا لخدمة الوفد والأمة المصرية، وذلك لأنها وساطة من شأنها أن تساعد ملنر على إنجاح مهمته ووضع تقريره عنها بعد أن فشل حتى الآن فى مهمته التى تعذرت عليه فى مصر، وتعثرت جهوده فى سبيل تحقيقها، وما كان لسعد ولا للوفد أن يساعد ملنر على إنجاز مهمة محصورة فى دائرة الحماية، أما إذا تغيرت مهمة ملنر كان لمفاوضة الوفد معه معنى آخر، لأن المفاوضة حينذاك تكون وسيلة قد تنجح [illegible] للوصول إلى الاستقلال التام، أما إذا لم تتغير دائرة اختصاص ملنر ولجنة وإذا ظلت الحماية أساس اختصاصها ومهمتها والعمل فى دائرتها، فالمفاوضة معه شر محض وتخدم ملنر ولا تخدم مصر.

هذا منطق سعد، وهو منطق سديد سليم محبوك الأطراف، أوافق عليه كل الموافقة.

ورأى الأغلبية فى مفاوضات ملنر

ولمعسكر الأغلبية كذلك وجهة نظر وله منطق سليم فيه بعض للوجاهة القوة إذ يتلخص فى أن أبواب العمل كلها مغلقة فى وجه الوفد وأن الأمة المصرية الآن

ضعيفة ملغوبة على أمرها، وقد أخمد الانجليز الثورة المصرية بقوتهم العسكرية العاتية فى مصر وأصبح نيل الاستقلال بالقوة القاهرة مستحيلا وأصبح نيل الاستقلال عن طريق المؤتمرات الدولية مستحيلا كذلك، فلم يبق أمام الزعماء إلا المفاوضة أى محاولة التراضى بل التخاصم والتغاضى إلى آخر هذه الحجج والبراهين والمسوغات التى ساقها محمد على علوبة فى حديثه الطويل معى أمس، ولا حاجة إلى تلخيصها الآن خشية تشويهها بحذف فكرة منها، ومع أن كلا من المعسكرين على حق من وجهة نظره الخاصة وكلاهما يقيم الحجج القوية على وجاهة رأيه فإن كل معسكر يعتبر الآخر على باطل وضلال، وكلاهما غاضب حانق ساخط متوتر الأعصاب، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

توتر أعصاب الوفد

٩ أبريل ١٩٢٠:

أخبرنى الرئيس سعد أثناء تناولنا الشاى أن أرق الليلة الماضية طويلا ولم ينم غير ساعة واحدة، وكان كثير التفكير فى أمر الخلاف الخطير الموجود فى الوفد، وتعذر البقاء عليه وشماتة الأعداء فيه وأنه فى أشد حالات الأسف والهم والكدر، وأنى لأراه قد فقد الشهية لكل طعام وهو يشكو باستمرار من الانقباض ومن الأرق. فقلت له «يا سيدى هون عليك أنت فى حالة شديدة من توتر الأعصاب، وهذه الأعصاب المشدودة المتوترة هى التى تولد الانقباض والقلق وسرعة الغضب وقلة الصبر وتوقع المكاره وإذا استمرت هذه الحالة النفسية المظلمة من توتر الأعصاب ظهر لها أعراض جسيمة مؤكدة مثل الأرق والصداع والشعور بالتعب المستمر والامساك وعسر الهضم فضلا عن ارتفاع الضغط الدموى.

فضحك سعد وقال: «هل أنت دكتور؟» فقلت: «هذا ما تعلمته وعرفته فى علم النفس، وأنا مشترك فى إحدى المجلات الانجليزية وما أظنك يا سيدى تريد أن تتلف صحتك باستمرارك فى توتر الأعصاب إن للكنانة ربا يحميها».

فقال سعد: «معك حق».

قلت: «إن فى العدد الأخير من هذه المجلة فصلا عن القلق جاء فيه «ان القلق حالة نفسية منهجة تورث الانقباض والخوف، وسببها أن الانسان يحاول أن يعيش فى زمنين فى وقت واحد، فيى الحاضر غير المستقر والمستقبل الذى يتوقع المكروه فيه، وانه قد ثبت بالاحصاءات الدقيقة أن ٩٠٪ من المكاره التى يخشاها الانسان فى المستقبل لا تحدث مطلقا، حتى لو وقع بعضها كان أثره أخف كثيرا مما توقعه الإنسان وعلى كل حال فإن القلق وتوتر الأعصاب لا فائدة منهما على الاطلاق بل ضررهما محقق كما سبق أن بينت لكم بعضها، هذا فضلا عن أنهما يحرمان الإنسان من القدرة على التفكير السليم فى مواجهة الحقائق، ولا سبيل إلى حل المشاكل إلا بالتفكير الهادىء الذى خلا من العواطف الهائجة نتيجة المخاوف أو القلق أو الغضب أو السخط أو الكره..

فقال سعد: «هذا جميل وصحيح وما أكثر جهل الناس بهذه الحقائق، أفادكم الله؟».

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، وخرجت من حضرة الرئيس إلى مكتبى وأنا مغتبط بما قلت وبما سمعت.

وعدت إلى تفكيرى فى هذا البلاء، بلاء انقسام الوفد على نفسه انقساما خطيرا، فأدركت بأن الرئيس ليس وحده المصاب بتوتر الأعصاب بل هذا التوتر موجود فى شدة وعنف وسيطرة فى قوة شاملة على كل عضو من أعضاء الوفد، و هذا فى نظرى هو سبب تفاقم الخلاف والسخط وضيق الصدر وعدم القدرة على تفهم وجهة النظر الأخري. بل هو العلة الوحيدة فى العناد وسوء التفاهم حتى بين الزملاء المتعاونين فى خدمة قضية واحدة لتحقيق أمنية واحدة والخلاص من مصيبة واحدة.

هل هناك أية فائدة من أن تقول لإنسان: عليك بالتخلص من توتر أعصابك ومن قلقك وانقباضك، بالتفكير السليم والإرادة القوية فيزول كل ذلك فى لمح البصر وينصلح حاله ؟ وهل يستطيع الانسان بالإرادة القوية والتفكير السليم وحدهما أن يبرأ ويشفى؟ وهل يستطيع محموم أن يتخلص من ارتفاع درجة الحرارة فى جسمه المريض بقوة إرادته وتفكيره السليم؟ وهل يستطيع الشاكى من آلام ضرسه أو صداع رأسه أن يبرأ ويشفى بالتفكير السليم والإرادة القوية وحدهما؟

كلا، فالنصيحة وقوة الإرادة والتفكير السليم كلها مجتمعة لا تجدى فتيلا، ولكن لابد من معرفة سر الداء قبل تشخيص الدواء، ثم العزم الصادق على تنفيذ ما كشفته المعرفة ثم إزالة سبب البلاء.

فهل هناك سر وأسباب حقيقية قوية لظهور توتر الأعصاب عند الرئيس وأعضاء الوفد جميعا كما أزعم؟

أجل.. من غير شك، فما توتر الأعصاب وتضييق الدنيا بما رحبت من غير داع أو مسوغ.

فكرت مليا فاهتديت إلى وجود نوعين من الأسباب وكلاهما لا يقل فداحة عن الآخر:

- أسباب عامة لتوتر الأعصاب.
- أسباب خاصة لهذا التوتر فى الأعصاب.

أ - الأسباب العامة:

أما الأسباب العامة فترجع إلى الحالة النفسية الموجودة فى مصر والتى بلغت من فداحة السوء ما يغرى بأسود الخوف وأشد اليأس، وفيما يلى خلاصتها:

مصر الحزينة

نحن الآن فى النصف الأول من عام ١٩٢٠ والوفد المصرى وكيل الأمة فى باريس يطالب لمصر بالاستقلال ويسعى إلى هذا الاستقلال حيثما وجد إليه سبيلا وهو لا يجد أمامه أى سبيل هذه الأيام. هذا حال الوفد ألمصرى فى باريس، فما هو حال مصر هذه الأيام؟

كان أسوأ مما يتصوره إنسان، كانت مصر أتعس حالا وأشقى بالا وأبأس حياة من أية مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني، وفيما يلى صورة مصغرة لهذا الحال:

١ - الحماية البريطانية: مفروضة ومبسوطة على مصر: اعترفت بها كل الدول بلا استثناء ورفضها المصريون بلا استثناء وخضعت لها مصر خضوع المهزوم المكسور الجناح فى غيظ مكتوب ظاهر وشمور طافح بالذل والمهانة والعجز القاهر - ولا حول ولا قوة..

٢ - الجنود البريطانيون: اكتظت بهم البلاد المصرية من أقصاها إلى أقصاها فكانوا كالجراد المنتشر والوباء المستعر، كانوا فى المدن يحتلون وفى الريف يصطادون، وعلى وجوههم يهيمون ويتنقلون ويتسكعون، تراهم فى الشوارع والميادين وفى الترام وفى السكك الحديدية وفى المحطات وفى دور السينما ومحال اللهو ليلا. وفى المطاعم والقهوات فى جروبى وصولت، فى السيارات والأحياء الوطنية والافرنجية على السواء، على الأرصفة أفرادا وجماعات فى محال البيع مثل شملا وشيكوريل وصيدناوى حتى فى الحوانيت الصغيرة، فى جميع محال بيع الساندوتشات والمشروبات نهارا وليلا، فى الحدائق العامة لا سيما حديقة الأزبكية وحدائق قصر النيل، لا يستطيع المصرى أن يفتح عينيه فى أى مكان أو يتجه إلى أية ناحية دون أن يرى بعض هؤلاء الجنوب الانجليز، ويا

ليتهم كانوا مؤدبين مهذبين بل منهم من يخطفون من الباعة المتجولين ويسرقون علنا دكاكين بيع الفاكهة التفاح والبرتقال والموز وما إليها، ويعتدون بالضرب على من يعترض سطوهم وخطفهم فضلا عن السباب واللعن والشتم يصبونه على من لا يرضيهم أو يرضى عن أهوائهم وسفالاتهم ووقاحاتهم وحماقاتهم وسرقاتهم.

هذا ما حدث فى مصر والاسكندرية وبورسعيد وعواصم البلاد.

وهم يحتلون ثكناتهم المنيعة فى القلعة وقصر النيل والعباسية وهليوبوليس والمحطة والمرج، هذا فى القاهرة وحدها، ومثله فى الاسكندرية وبورسعيد وكل منطقة القتال، ولهم أن يحتلوا أى مكان فى البلاد المصرية إذا شاءوا.

نراهم يطلون من نوافذ ثكناتهم هذه يتفرجون على الغادين والرائحين من المصريين، يشتمون ويستفزون الناس بغير داع أو مسوغ سوى الوقاحة الأصيلة والسفالة التى تجرى فى دمائهم بغير دا ومسوغ سوى الوقاحة الأصيلة والسفالة التى تجرى فى دمائهم بغير رادع من رئيس أو وازع من ضمير..

تراهم على رؤوس الشوارع الرئيسية وغير الرئيسية بمدافهم الرشاشة لمنع المظاهرات وتشتيتها بإطلاق النار عليها، وقتلهم الأبرياء من الطلبة والعمال المصريين ومنع الجنازات التى تسير فى الشوارع لدفن القتلى من هؤلاء الطلبة والعمال المصريين..

ذكرياتى الخاصة

رأيت بعينى رأسى قبل سفرى إلى باريس أن شوارع القاهرة كانت مقفرة، وانعدمت معها الحركة بعد غروب الشمس، وأذكر أنى كنت مرة عائدا من السينما ماشيا حوالى الساعة التاسعة والنصف مساء فى شارع عماد الدين إلى منزلى بالحلمية الجديدة مارا بشارع بولاق فميدان الأوبرا فميدان الأزبكية

فشارع محمد علي، وكنت الوحيد السائر على قدميه طوال هذه المسافة وقد مررت بأكثر من خمسين نقطة وقف فى كل منها جنود بريطانيون بمدافعهم الرشاشة، ما الذى كان يمنع أحد هؤلاء أن يطلق الرصاص فى ظهرى أو فى مواجهتى فى تلك الليلة المقمرة ويقتلنى كما قتل كثيرون من المصريين غيلة وغدرا؟

لست أدري، ولعله الحظ السعيد لا أكثر ولا أقل، لقد كانت مجازفة خطيرة جدا بل حماقة من جانبى أن أعود ماشيا هذا المسافة الطويلة إلى منزلي، ولكن ما الحيلة وأنا لم أجد عربة استقلها إلى الحلمية الجديدة.. حماقة أن أسير فى شوارع عاصمة بلادى بعد غروب الشمس بقليل!!

هل أنا فى حاجة إلى أن أصف مشاعرى من الهم والحزن والغيظ وتوتر الأعصاب أيضا؟ هل أنا فى حاجة إلى ذكر تفصيلات أخرى عن أعمال الجنود البريطانيين فى مطاردة المتظاهرين والمشتبه فيهم إلى داخل الأزهر والجوامع والمدارس، أو ذكر الفظائع الوحشية التى ارتكبت فى العزيزية والبدرشين وبعض القرى المصرية، أو وصف تفتيش المنازل نهارا وليلا على أيدى هؤلاء الجنود واعتقال الأبرياء من المصريين الوطنيين لأحقر وشاية أو أتفه تهمة أو أصغر شبهة وزجهم فى السجون بغير جريمة أو بعد محاكمة صورية ظالمة أمام المحاكم العسكرية البريطانية الغاشمة تحت الأحكام العرفية البريطانية وبلغ الأمر إلى أن أى مصرى يوجد معه أو فى بيته أى نوع من السلاح لم يستعمله يحكم عليه بالاعدام؟

كلا!! لا حاجة إلى تفصيل أكثر من ذلك لبيان البلاء الذى عانته وتعانيه مصر على أيدى هؤلاء الجنود البريطانيين، لأن هناك بلاء أكبر وأفدح عانته ومازالت تعانيه مصر على أيد الموظفين البريطانيين والضباط البريطانيين

الذين كانوا ومازالوا فى خدمة الحكومة المصرية، ولابد هنا من بعض التفصيل لنكون فكرة عن مدى حكم الإرهاب فى مصر والسيطرة الانجليزية الكاملة الشاملة على الجيش والبوليس والإدارة الحكومية بحذافيرها.

٣- الضباط البريطانيون:

يشغل هؤلاء الضباط كل الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية فى الجيش المصرى والبوليس المصري، ففى الجيش، السردار بريطانى ويعاونه عشرة من كبار الضباط البريطانيين، وكل رؤساء الأقسام فى وزارة الحربية انجليز، ومدير المخازن والمهمات ورؤساء الفرق والآليات بل حتى وظائف الدرجة الثانية فى الجيش، كلها فى أيدى الانجليز، وقد أخبرنى الشاعر حافظ إبراهيم أن عدد الضباط البريطانيين فى الجيش المصرى أكبر من عدد الضباط المصريين..

وفى البوليس حكمدار القاهرة ووكيله وكل وظائف الحكمداريين ووكلائهم فى الاسكندرية وسائر المحافظات، انجليز، ويعاونهم عدد كبير من مفتشى الأقسام البريطانيين كذلك.

٤- سيطرة الموظفين البريطانيين على الحكومة المصرية:

الحكومة فى مصر، مصرية اسما وشكلا، انجليزية حقيقة وفعلا وليس هذا فى سنة ١٩٢٠ وحدها بل منذ نكبت مصر بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ والانجليز يعملون جاهدين على الاستيلاء على جميع الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية حتى لا يبرم أمر كبر أو هان إلا بعلمهم وموافقتهم أو بناء على أمرهم، وقد تم لهم ما أرادوا، فما هو الوضع الآن؟

يوجد فى كل وزارة مستشار بريطانى هو فى الواقع الوزير الفعلى وبجانبه وزير مصرى لا يستطيع أن يبت فى أمر من الأمور إلا بعد موافقة المستشار الانجليزى، ولا يستطيع أن يخالف رأيا أو قرارا أصدره هذا المستشار وبجانب

هذا المستشار عدد هائل من الموظفين الانجليز يرأسون أقسام الوزارة وأقلامها ولجانها وفروعها ومصالحها.

فمثلا فى وزارة المالية، المستشار المالى الانجليزى هو المسيطر على مالية البلاد ويحضر جلسات مجلس الوزراء، بل لا تعرض مسألة على المجلس إلا بعد موافقته على عرضها، ويعاونه ثلاث من السكرتيرات الانجليزيات وأربعة من السكرتيرين الانجليز أحدهم فنى بمرتب مدير عام مصلحة، أما مدير الميزانية ومدير المستخدمين ورئيس قسم المعاشات ومدير الإدارة العامة حتى سكرتير اللجنة المالية، كل هؤلاء من الانجليز.. ومدير مصلحة المساحة ووكيلها ومدير الأموال المقررة ووكيلها، ومدير الأملاك ووكيلها وجميع السكرتيرين الماليين المنتشرين فى جميع الوزارات، كل هؤلاء انجليز، وكذلك كان مدير الجمارك ووكيلها وعشرات غيرهم.

وبلغ من سيطرة المستشار المالى على مالية البلاد أنه يتصرف فيها كما يشاء ويشاء له الهوى، قد يحبس الصرف منها على بعض الشئون المصرية ويسرف بالصرف منها على بعض الشئون السودانية، ولعل أبرز دليل على ذلك أن الحكومة المصرية بفضل أوامر هذا المستشار المالى (١) أعطت حكومة السودان قروضا بلغت حتى عام ١٩٢٠ حوالى ٧ ملايين جنيه بفائدة ٣٪ ثم ألغيت الفائدة وأصبحت قروضا تسددها حكومة السودان فى الوقت المناسب عندما تستطيع الوقوف على قدميها. (٢) وأعطت حكومة السودان إعانات سنوية لسد العجز فى إيرادات السودان بلغت حتى هذا العام حوالى ٨ ملايين جنيه. (٣) وأعطت حكومة السودان مبالغ ضخمة للصرف منها على المنشآت العسكرية والمبانى الحكومية والطرق والكبارى والسكك الحديدية حتى سراى الحاكم العام فى السودان قد تم بناؤها بالأموال المصرية ولا يعلم إلا الله والمستشارون الماليون البريطانيون كما دفعوا فى هذا السبيل على حساب الإصلاحات فى مصر والتضحية بمصالح المصريين.

وهكذا يحكم الانجليز السودان ويستغلونه لمصلحة الاستعمار البريطانى وتتولى مصر الفقيرة الصرف على السودان وتحمل تكاليف الحكم البريطانى له وهى قسمة ضيزى، لبريطانيا الحكم والعلم ولمصر الخسارة والغرم.

ولنضرب مثالا آخر بوزارة الداخلية كدليل على سيطرة الانجليز الساحقة على حكم البلاد، فالمستشار البريطانى فى الداخلية لا يعادل طغيانه وجبروته إلا المستشار المالى البريطانى، يعاونه عدد هائل من الموظفين الانجليز يستولون على كل الوظائف الرئيسية وغير الرئيسية، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر الوظائف التالية:

مدير الأمن العام. وكيل مدير الأمن العام. مديرو كل قسم فى وزارة الداخلية ووكلاؤهم وعدد ضخم من المفتشين الانجليز لزيارة الأقاليم والتفتيش على أعمال المديرين والعمد وطريقة الحكم واستتباب الأمن، ثم يعودون إلى وزارة الداخلية ليرفعوا تقاريرهم إلى عميدهم المستشار البريطانى دون سواه، فيرقى من المديرين والمحافظين والمأمورين من يشاء ويعاقب من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، كل هؤلاء بريطانيون عينهم المستشار البريطانى بمرتبات أضعاف أضعاف ما يتقاضاه المصريون.

ومدير السكك الحديدية ووكيله ورؤساء أقسام المصلحة وجميع المهندسين عنده كلهم بريطانيون كذلك، وهكذا الحال فى سائر الوزارات الأخرى ولكنى أخص بالذكر منها وزارة الحقانية لأن الغريب الطريف فيها أنها تعين بعض القضاة والمستشارين فى المحاكم من الانجليز.

٥- التعليم فى مصر: جميع نظار المدارس، الثانوية والعالية فى مصر انجليز وجميع المواد تدرس باللغة الانجليزية، وقد ترتب على ذلك ازدياد مطرد فى عدد المدرسين الانجليز فى جميع المدارس هذه المدارس الابتدائية بل حتى المدارس

الأهلية امتلأت بالمدرسين الانجليز مع أن أصحابها مصريون، وهكذا سيطر الانجليز على التعليم فى مصر وجعلوه تعليما نظريا سطحيا لوظائف الحكومة ولا يؤهل لغير ذلك من شئون الحياة.

٦- الصحافة المصرية: خنقت ومازالت مخنوقة بفضل قانون المطبوعات والرقابة الظاهرة والخفية والأموال السرية التى تستخدم لشراء الأقلام وشراء الذمم.

٧- الوزارة المصرية فى ١٩٢٠: وزارة يوسف باشا وهبة ثم وزارة توفيق نسيم.

لو أن كل وزير فيهما كان انجليزيا قحا لما فعلوا أكثر مما فعلت ولاتزال تفعله، إنها تبذل نشاطا غريبا فى مناهضة الحركة الوطنية واضطهاد المصريين المعروفين بميولهم للوفد وللاستقلال وتعطيل مصالحهم وتجارتهم وتستعمل الشدة المتناهية فى منع الاجتماعات وتضييق الخناق على الناس بكل ما أوتيت من قوة. ومن مظاهر جبروتها التشديد على المديرين بسوق الفلاحين والعمد والأعيان إلى القاهرة لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان الذى عينه الانجلـ[illegible] ـر الناس من جميع أنحاء البلاد زرافات مضطرين أو طائعين وكانت النتيجة من كل هذا يأس المخلصين والشعور الشامل بالضيق والغيظ والانقباض وتوتر الأعصاب عند المصريين أجمعين.

٨- الامتيازات الأجنبية: خلقت من الأجانب المقيمين فى مصر دولة مستقلة داخل مصر، فالأجانب لا يدفعون أى نوع من أنواع الضرائب، و[illegible]ما المصريون وحدهم يحملون أعباء كل الضرائب، والأجنبى يقتل أى مصرى أو يسرقه أو ينصب أو يزور أو يضرب أو يرتكب أية جريمة يشتهيها ولا يحاكم أمام المحاكم المصرية، وإنما يحاكم أمام محاكم بلاده فى الخارج.

هذه صورة مصغرة للجحيم الذى يسمى «مصر سنة ١٩٢٠» والذى ثارت من أجله ثورتها عام ١٩١٩، فمازادت الجحيم بثورتها إلا تأججا سعيرا، والذى تألف الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول لتخليص البلاد من عذابه وويلاته ومن كابوسه الخانق الساحق الماحق وأخطاره الجسام وما صاحبه من شتى الآلام.

إن زعماء الوفد ورجالات مصر يجاهدون ويكافحون ويؤملون ولكنه أمل على استحياء، وأما الشيوخ فكانوا متشائمين على الدوام، وأما شباب الجيل الذى أنا من صميمه فقد وطد العزم الأكيد على العمل المتصل للخلاص من كل هذا البلاء فإما جلاء أو فناء وإما استقلال تام أو موت زؤام وما قيمة الحياة إذا لم تكن عزيزة كريمة.

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

ب - أما الأسباب الخاصة لتوتر الأعصاب عند أعضاء الوفد فأهمها ما يلى:

١ - يأس كل عضو فى الوفد فى عدل الدول وإنصافها لمصر فى قضيتها العادلة فى الاستقلال فليس هناك ضمير عالمى كما يزعمون والمؤتمرات الدولية ليست إلا وسيلة لخدمة الدول الكبرى القوية وتحقيق مصالح المنتصرين الطامعين وقد كانت تجربة الوفد مع مؤتمر السلام فى فرسايل شديدة القسوة والمرارة.

٢ - الشعور بالضعف والعجز إزاء جبروت الانجليز فى مصر وطغيانهم وقسوتهم وسيطرتهم الشاملة على شئون البلاد، وعدم القدرة على كبح جماحهم بأى شكل من الأشكال، فضلا عن مساعدة الوزارة المصرية للانجليز على زيادة التغلغل فى نشر الفساد والطغيان والإرهاب.

٣ - تعطيل مصالحهم الشخصية فى مصر واضطهاد الحكومة لأولادهم

وأقربائهم وأنصارهم ومحاربتها لهم فى أرزاقهم، وأحوالهم ومختلف شئونهم الخاصة.

٤ - الشعور بضيق ذات اليد بسبب الاقامة الطويلة فى باريس وتكاليف المعيشة والحياة الكريمة المريحة بها لمن كان فى مثل مراكزهم وأعمارهم فقد بدأ كثيرون يشعرون بأن أموالهم الخاصة لا تساعدهم على الاستمرار طويلا على هذا الصرف المرهق.

٥ - الشعور بضياع المال والوقت معا باستمرار الاقامة فى باريس بغير طائل أو بغير عمل ناجح أو ثمرة مفيدة. لاسيما أن جرائد باريس لا تنشر لهم شيئا إلا إذا كان فى «شكل إعلان» يدفعون ثمن كل سطر فيه، وما قيمة ما يكتبون وينشرون ومن هم الذين يريدون أن يقنعوهم؟ أنهم يعرفون الحقيقة المرة وهى أنه «ليس أعمى من الذى لا يريد أن يرى».

٦- أغضب الأعضاء وأثارهم تمسك سعد بالمثل العليا فى الاستقلال، ومعارضته الشديدة لأى اتصال بلجنة ملنر والمفاوضة معها بحجة أنها تعمل لوضع نظام داخل الحماية وأغضب سعد وأثاره اعتقاده بأنهم يريدون إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وهو دون الاستقلال بكثير.

٧- عدلى (فى نظر الأعضاء) هو المخرج الوحيد لهم، من هذا المأزق وهو الذى يفتح لهم بابا للخلاص من هذه الحالة التعسة، بينما (سعد) فى نظرهم (حارة مسدودة)، والاستمرار معه استمرار بلا أمل فى الخلاص مما هم فيه.

٨- الحالة الصحية المعطوبة عند أغلب أعضاء الوفد:

الرئيس سعد مصاب بأمراض السكر والزلال والربو وارتفاع الضغط، وعبدالعزيز فهمى مصاب بالبواسير، ومحمد محمود مصاب بمرض الكبد، وقد نجا منذ شهر واحد من مرض اليرقان الذى خلف عنده اصفرارا فى

البشرة يلفت الأنظار والشعور بالتعب المستمر، وبقية أعضاء الوفد لا يخلو واحد منهم من مرض أو مرضين، ويقابلنى فى الصباح ويشكو من تخاذل الأعضاء.

هذه بعض الأسباب الخاصة، وتلك هى الأسباب العامة لتوتر الأعصاب عند جميع أعضاء الوفد المصرى فى باريس، أو على الأقل هذا ما أراه وأشعر به وأكاد أعتقد أنه أسباب حقيقية وقوية ولا أرى تفسيرا للحالة غيرها،

فما العمل الآن؟

هل يعدل الزعيم موقفه كثيرا أو قليلا ارضاء لأغلبيته القوية من أعضاء الوفد؟

أو هل يخضع هذا المعسكر لسعد زعيم الثورة ومغذيها وقائدها وخطيبها الساحر؟

وما الدور الذى سيلعبه عدلى بعد وصوله إلى باريس فى حوالى ٢٠ أبريل؟

وما الدور الذى سيلعبه ملنر شيخ المستعمرين بعد عودته الآن من القدس؟

هذه أسئلة الجواب عنها لايزال فى ضمير الغيب.

وشعب مصر ينعشه الأمل والتفاؤل رغم ما يعانيه من الأعنات والاضطهاد والكرب وحكم الإرهاب.

وصول عدلى باشا إلى باريس

٢١ أبريل:

أمس وصل عدلى إلى باريس فاستقبله فى المحطة أعضاء الوفد جميعا ولم يذهب سعد لوعكة خفيفة من زكام وقد أناب عنه أحد الأعضاء فى الوفد وقد حضر اليوم جميع أعضاء الوفد إلى مركز الوفد ومظاهر السخط بادية على

وجوههم، والنشاط ظاهر فى حركاتهم، ثم حضر الرئيس سعد وعدلى فاكتمل الجمع وبدأ الاجتماع فى جلسة حية متيقظة الأعصاب ومع ذلك لم يذكر أى هذه الجلسة جديد حتى أرويه وأسجله، وكل ما قيل فيها لا يخرج عما سبق لى تلخيصه.

٥ مايو:

كثر اختلاط عدلى بالأعضاء فرادى وجماعات، وحضر جميع جلسات الوفد اليومية وكأنه أحد الأعضاء، وشرح ما دار بينه وبين ملنر ولجنته فى الأحاديث بما لا يخرج فى خلاصته عما ورد فى خطاباته.

١٠ مايو:

مضى على وصول عدلى إلى باريس أكثر من أسبوعين وجلسات الوفد تكاد تكون يومية والمناقشات مستمرة والنشاط عظيم وكثرة الحركة لم يسبق لها مثيل فيما رأيت من قبل، ومع ذلك لم أسمع فكرة جديدة جديرة بالتسجيل، وكل الكلام معاد. وكل الحجج مكررة فى المعسكرين فى الوفد، فلا حاجة بى إلى تلخيصها الآن لعدم الحاجة إلى التكرار.

وفى أثناء الشاى سألنى الرئيس: «ماذا ترى وماذا تسمع هذه الأيام؟ فابتسمت لأنى كنت أنا السائل دائما فأصبحت اليوم أنا المسئول، وعلىّ أن أجيب قلت: أرى تيار الأغلبية فى الوفد يزداد قوة ورغبة فى المفاوضات بعد وصول عدلى، وسمعت أن المفاوضات مع ملنر آتية لا ريب فيها، ولا مندوحة عنها، وقد أخبرنىَ الاستاذ محمد على علوبة أن أحد أعضاء لجنة ملنر فى باريس الآن وأنه سيزورك قريبا لدعوتك إلى المفاوضات مع ملنر».

وهنا أراد الرئيس أن يستمر فى امتحانى فقال: «وماذا ترى ما ينبغى لى أن أعمله» فقلت: هذا ما كنت على وشك أن أسألك عنه «فقال اجبنى أولا» قلت لا

أرى من الحكمة مقاومة هذا التيار الجارف. وماذا يضيرك أو يضير البلاد لو جاريتهم وأقبلت على هذه المفاوضات وأنت واثق مائة فى المائة بأنها فاشلة لا محالة فترضى الأغلبية وتتحقق وحدة الوفد بقبولك الدخول فى المفاوضة مع ملنر. ثم ترضى ضميرك فى الوقت عينه وتعرف حق الأمة فى الاستقلال برفضك نتيجة المفاوضات، وبهذا تصيب عصفورين بحجر واحد، ترضيهم أولا ثم ترضى ضميرك فى النهاية، ولا تضار بذلك قضية الاستقلال، ولو فرضنا أن المفاوضة جرت على أساس الاستقلال فأنها تكون بطبيعة الحال عرضة كذلك للنجاح أو الفشل فى النهاية، فالفرق إذن أنك قادم على مفاوضات نتيجتها الفشل المؤكد، فابتسم سعد وقال (هذا صحيح ثم ماذا يقول الناس فى مصر وخارج مصر سيقولون ذهب ملنر إلى مصر فقاطعه المصريون وأحالوه على سعد والوفد فلما جاء إلى سعد والوفد قاطعه هؤلاء أيضا، اذن لابد لى من تعديل خطتى مؤقتا. وقد ذكرت لهم فى الجلسة الماضية أن ملنر لم يصدر حتى الآن أى تصريح يرضى ذممنا ويصح الاستناد إليه فى الدخول فى المفاوضة معه فإذا باشرناها وجب علينا أن نعتقد بأننا داخلون فيها قياما بواجب من اعتبارات ثانوية حتى لا يقال أن بابا فتح أمامنا وكان يمكن الوصول منه إلى مقصدنا من غير أن ندخله. وان كنت شخصيا أعتقد أن هذا يعيد الاحتمال إلى الدرجة القصوى فلا نخدع أنفسنا بالأوهام بل يجب أن نضع نصب أعيننا على الدوام أننا أمام خصم قوى محتال يريد بكل الوسائل أن يخدعنا. ويسعى بكل جهده لاستمالة أشخاصنا إلى ما يرضاه فإن ملنا إليه وتمكنا من إقناع أمتنا بما يرضاه هو لا بما ترضاه هى وصل إلى مبتغاه وإن لم نصل إلى استرضائها سقطنا وضاعت ثقة الأمة بنا فاستراح منا، أو تمكن على الأقل من إيقاع الشقاق فى صفوفنا. وهى أيضا أمنية أخرى فلابد من الاحتراس لأن الموقف خطير والخطب جلل).

وهنا أظهرت اغتباطى الشديد بكلام الرئيس وحكمته فى تعديل خطته من غير تعديل فى المبدأ، وقلت له إن مخالفة الإنسان للأغلبية وتحديها شىء كريه إذا

تعلق الخلاف بخطة أو بمسلك بسيط فى العمل، ولكن الخلاف يكون ضروريا إذا تعلق بمسألة مبدأ أو ضمير أو مصالح عليا للبلاد، ومن العسير وغير المقبول أن يرفض الإنسان خطة أو طريقة للعمل وليس عنده ما هو خير منها يقترحه بدلها.

الخطوة الأولى فى طريق المفاوضات

زيارة مستر هرست للزعيم

١٢ مايو ١٩٢٠:

قبيل ظهر اليوم حضر عدلى لزيارة الرئيس فى شقته المطلة على شارع الشانزليزيه وكان مع عدلى مستر هرست أحد أعضاء لجنة ملنر والمستشار القضائى لوزارة الخارجية البريطانية ومستر ولرند (الانجليزى الأعرج صديق عدلى باشا، وصديق ملنر).

بعد تحيات الاستقبال الطبيعية الأولى: بدأ الحديث بطريقة طريفة ظريفة:

نظر هرست إلى مجموعة كبيرة من الجرائد العربية على مكتب الرئيس ثم قال:

- جرائد كثيرة!! هل عندك صبر على مطالعة كل هذه الجرائد؟

سعد: هى جرائد عربية كنت أتصفحها، هل تعرف العربية؟

هرست: «يمينك، شمالك، نهارك سعيد، ازاى صحتك» هو كل ما أعرفه من العربية، وفى نيتى أزور مصر مرة ثانية».

سعد: إنك تقابل هذه المرة بالترحاب.

وهنا شاع فى الجو شىء من المرح والابتسام، ازال ما فى اللقاء من تحفظ ووحشية.

بعد هذه المقدمة المرحة بدأ الحديث الجدى: فقال هرست: إن لورد ملنر يحب أن يرى الرئيس وأعضاء الوفد، وأنه فكر أول الأمر فى الحضور إلى باريس للمحادثة معكم لايجاد حل للمسألة المصرية ولكن لورد ملنر مثقل بالأعمال وإذا حضر إلى باريس فأنه لا يمكن الاقامة بها أكثر من يومين أو ثلاثة وهى مدة لا تكفى للتفاهم بين الفريقين، وبعد أخذ ورد فى هذا الموضوع قال هرست: «إنى بصفة كونى عضوا فى لجنة ملنر أبلغك بأنى مكلف بدعوتك أنت وزملائك للذهاب إلى لندن للاجتماع بهذه اللجنة وايجاد طريقة للاتفاق بين بريطانيا ومصر»

سعد: يمكننى الاكتفاء بهذه الدعوة إذا صح لى نشرها على هذه الصيغة.

وهنا اتفق الطرفان على فترة وجيزة من التأجيل، حتى يتمكن هرست من استئذان ملنر فى أسلوب هذه الصيغة، وحتى يتمكن الرئيس من استشارة زملائه أعضاء الوفد كذلك.

زيارة ثانية وثالثة من هرست للرئيس ودعوة ملنر للرئيس وأعضاء الوفد للسفر إلى لندن للمفاوضة:

صباح الثلاثاء ١٧ مايو ١٩٢٠:

عاد هرست وعدلى إلى مسكن الرئيس صباح اليوم وكان معهما محمد محمود ولطفى السيد وأعلن هرست قبول ملنر نشر تلك الدعوة بالصيغة التى عرضها ثم انصرف على أن يعود فى الساعة الثالثة بعد الظهر لإتمام الحديث. وقد استشار الرئيس زملاءه أعضاء الوفد فوافقوا على قبول الدعوة وقبول الصيغة الخاصة بنشرها، وهنا اقترح الرئيس سعد أنه يكفى أن يسافر بعض الأعضاء إلى لندن للاتصال بلجنة ملنر والوقوف منها على ما ترمى إليه، فوعد الأعضاء بالتفكير فى هذا الاقتراح ولكن الرئيس طالبهم بابداء الرأى فورا، فوافقوا عليه.

وفى الساعة الثالثة بعد الظهور عاد هرست فأبلغه الرئيس أنه قد تقرر سفر بعض أعضاء الوفد إلى لندن. وأما فيما يختص بشخصه وباقى الأعضاء، فلم يتقرر شىء حتى الآن نظرا لوجود بعض الصعوبات الداخلية ، فقال هرست إن لورد ملنر شديد الرغبة فى محادثة الرئيس شخصيا ويعلق على ذلك أهمية كبرى، ويسره كل السرور أن يرى الرئيس رغبة فى كمال الاحتياط وحرصا على حرية العمل فى الذهاب أو عدمه قال لهرست إنه سيجتهد فى تذليل تلك الصعوبات ثم أضاف باسما «ولكنى إذا لم أتمكن من تذليلها فإنى اعتذر إليكم من الآن».

ما معنى هذا؟ معناه أن الرئيس مازال يحاول التوفيق بين رغبتين متعارضتين، رغبة الأغلبية فى المفاوضة، ورغبته هو فى عدم الاشتراك فى هذه المفاوضة.

وقبل انصراف هرست طلب الرئيس ألا تتعرض المراقبة فى مصر (وهى بريطانية) لنشر كل ما يصدر من الوفد من بيانات وبلاغات وإتاحة استعمال الشفرة فى المراسلة بين باريس ومصر، فوافق هرست على ذلك وأيد موافقته الشفوية كتابة بخطه وتركها عند الرئيس.

كيف تم اختيار الأعضاء الثلاثة المسافرين إلى لندن؟

فى مساء ١٧ مايو:

حضر عدلى مبكراً عقد جلسة الوفد المسائية وسأل الرئيس عمن يرى أن يختارهم من أعضاء الوفد لمرافقته إلى لندن، فقال الرئيس أنه يرى أن يسافر محمد محمود وعلى ماهر معه، فقال عدلى أن الغرض المقصود هو أن يكون الرئيس نفسه موجودا لمقابلة ملنر ومناقشته، أما اذا كان الغرض مجرد الاستطلاع ومعرفة بعض الشىء فأنه واثق من أنهما لن يعرفا أكثر مما قاله سابقا..

ثم استطرد فقال:

«إذا كنت لا توافق على سفرك أنت فلابد من وجود عبدالعزيز فهمى أو لطفى السيد لأنهما فى نظر الانجليز «مع الوفد». أما محمد محمود فإن الانجليز يعرفون أنه حاقد عليهم لأنهم رفضتوه من وظيفة المدير، فضلا عن أن نشاطه السياسى فى أمريكا قد زاد فى بغضهم له، وأما على ماهر فغير معروف فى نظرهم وليست له حيثية كبيرة».

وهنا حضر محمد محمود فخرج عدلى وقال للرئيس فى خلوة معه إنه يخشى أن يتدخل عدلى فى شئون الوفد كثيرا، وانه علم أن عدلى يريد أن يأخذ معه إلى لندن عبدالعزيز فهمى ولا معنى لهذا التدخل وهذا الاختيار.

ثم اجتمع الوفد بعد ذلك بكامل هيئته وحضر عدلى الاجتماع كالعادة ودارت مناقشة طويلة حول من يذهب منهم إلى لندن مع عدلى (وهنا رأى الرئيس بعد تردد أن يتساهل مع عدلى فى أخذ عبدالعزيز فهمى أو لطفى السيد، فاختار الأول) واقترح الرئيس أن يسافر مع عدلى كل من عبدالعزيز فهمى ومحمد محمود وعلى ماهر كما تقرر أن تكون مهمة المندوبين المسافرين هى:

«التأكد من أن الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعترف بالاستقلال الحقيقى لمصر مع احترام المصالح البريطانية المعقولة وضمان هذه المصالح على طريقة لا تمحو ولا تعطل هذا الاستقلال وتجعله حماية مستمرة، ثم التأكد كذلك من أن لجنة ملنر تعتبر الوفد نائبا عن الأمة المصرية وممثلا لها، وليس مجرد شاهد فى قضية تحقيق».

وضع الرئيس صيغة الإعلان الذى يرسل إلى مصر لنشره فى الجرائد بمناسبة هذه الدعوة وقرب سفر من تقرر سفرهم وهذا نصه:

«دعت لجنة ملنر الوفد بواسطة أحد أعضائها سير هرست المستشار

القضائى بوزارة الخارجية البريطانية للذهاب إلى لندن للاجتماع بها، ولبحث فى ايجاد قواعد للاتفاق بين انجلترا ومصر فرأى قبل توجه هيئته بتمامها أن يذهب بعض أعضائه للوقوف على حقيقة استعداد الحكومة الانجليزية بالنسبة لمطلب الأمة فى الاستقلال التام».

موقف أعضاء الوفد

وترجم هذا النص إلى الفرنسية، وهنا حضر عدلى متأخرا بعد أن تم طبعه وأعد للإرسال، فقدم إليه للاطلاع عليه، فتأمل فيه قليلا وأشار بحذف عبارة (المستشار القضائى) وعلل ذلك بأن هذا الوصف قد يحدث شيئا فى التأثير فى نفوس أعضاء اللجنة، فينسبون إلى الوفد أنه يحاول بوسائل صغيرة التأثير أو الايهام بأن الحكومة الانجليزية لها شأن بهذه الدعوة، فاعترض عليه الرئيس ولم يوافقه على رأيه وقال إن هذه الصفة حقيقة واقعة ملازمة له، ولا ضرر من إثباتها لاسيما وقد أسندت الدعوة فى البلاغ إلى نفس اللجنة، ثم أضاف الرئيس فى شىء من الانفعال «اذا كان الانجليز يتأثرون بمثل هذه الصغيرة فإن أملنا فى نجاح المفاوضة يكون قليلا»، وهنا انفعل عدلى أيضا ودارت مناقشة حادة فى هذا المعنى اشتد فيها انفعال عدلى وبدرت منه كلمات اعتذر عنها للرئيس أخيرا، ورغبة فى تهدئة الجو وافق الوفد على حذف هذا الوصف مجاملة لعدلى.

حادثة بسيطة، ولكن معناها كبير، ومغزاها أكبر

- انتصر عدلى على سعد: فى أول خلاف.
- ناصر أعضاء الوفد عدلى، وخذلوا رئيسهم سعد.
- جامل أعضاء الوفد عدلى على باطله، ولم يجاملوا رئيسهم سعد وهو على حق.

والدليل الحاسم على أن عدلى على باطل وسعد على حق هو أن الجرائد

الانجليزية نشرت تلك الدعوة فى اليوم نفسه وذكرت أن الداعى هو هرست المستشار القضائى لوزارة الخارجية البريطانية وعضو لجنة ملنر، وفى هذا أقطع دليل على أن الأمر كان طبيعيا ولم يكن للخشية التى قامت فى نفس عدلى أى مبرر، وأن الباعث عليها سخافة، أو تطير لا مسوغ له.. حادثة بسيطة ولكن معناها كبير فى مظهر الانتصار والمجاملة لعدلى، ومظهر التخلى فى الخذلان لسعد ومغزاها أكبر لأنها نذير للرئيس سعد بأنه مهزوم الآن وبعد الآن هو على حق ويشير لعدلى بأنه منصور الآن وبعد الآن حتى وهو على باطل.

هذه الحادثة البسيطة ستعكر فيما أعتقد صفو الرئيس وستقلق خاطره لا محالة وستجعله يتخوف فى المستقبل من اشتراك عدلى فى العمل معه ومع الوفد. وستجعله من ناحية أخرى يتشكك فى إخلاص أعضاء الوفد وولائهم له، وبهذا يقل اعتماده عليهم واطمئنانه إليهم.

الأزمة النفسية الثانية للرئيس سعد

٢٠ مايو ١٩٢٠:

لاحظت فى اليومين الأخيرين أن الرئيس سعد عابس شديد العبوس واجم ساهم ساكت قانط مظلم النفس شديد الانقباض قليل الميل إلى الحركة والكلام، فأقلقنى حاله وأشفقت عليه خشية أن يكون مريضا أو على وشك الوقوع فى مرض، فسألته أثناء تناولى الشاى عن حاله وصحته فقال إنه كثير الأرق قليل النوم ثم أفضى إلىّ بسره الدفين.

الاعتراف الخامس

قال: «إننى كلما تذكرت ما كان من عدلى أخيرا و ماكان منه فى السنوات الأخيرة انقبض صدرى، وعلا الكدر وجهى، ونزلت بالقلب حسرات متتاليات

واعترانى ما يعترى من فقد عزيزا لديه، أو من ارتد ما فعل من الخير شرا عليه، وأثار هذا الشعور فى نفسى ما كان كامنا فيها من قبل بالنسبة لهذا الرجل الذى اختبرته فى مواقف كثيرة، فوجدته أشد الناس قربا منك فى الرخاء وأبعدهم عنك فى الشدة والضراء، وأكثرهم ترددا عليك عند الحاجة إليك وبعدا عنك وتبرما منك عند الغنى عنك.

وكلما تذكرت ماضيه معى ، ومواقفه شعرت بنفور شديد منه وقد حدثتنى نفسى مرارا أن أقطع كل صلة به، ولكن أعود فأراجع نفسى وأذكرها بأن المذنب قد يتوب بعد ارتكاب الذنب وأن الوطن للناس أجمعين».

يا لها من نفس كريمة يحز فيها نكران الجميل، ويحدوها التسامح ويكملها إيمانها وشعورها النبيل.

الاعتراف السادس

وفى يوم ٢١ مايو:

قال لى الرئيس أثناء تناولى الشاى معه بعد ظهر اليوم:

« لاتزال مسألة عدلى شاغلة مكانا فى عقلى ونفسى، وقد صممت على شدة الاحتراس منه وألا اندفع بأى شىء قبل التثبت منه والتروى فيه، وأن أحذر الأصدقاء قبل الأعداء، لأنهم ينقلبون أعداء على غير انتظار، ولا ينبغى للمؤمن أن يقع فى المكروه أكثر من مرة، لأن ذلك غفلة وفيه سوء مغبة» ثم قال:

«لماذا حضر عبدالعزيز فهمى عندى بعد ذلك الحادث بيومين أسفا مستعطفا؟»

«لماذا ذلك بعد ما صدر منه فى حقى من الغلطات الفاحشة والسقطات الفظيعة وبعد أن ساعد عدلى فى رأيه، وجاراه فى ترويج حجته وتزييف رأى إذا

صح ظنى فلا تفسير لمسلكه إلا خوفه من فشل المفاوضة، وهو شديد الرغبة فى انتهائها على أى وجه كان وسيكتشف الاستقبال ما خفى فى الحال، والله عليم بذات الصدور».

إن الرئيس يعيش فى أزمة نفسية تكاد تكون متصلة الحلقات وقد لاحظت أن العواطف الرئيسية التى تسيطر على كيانه وحياته هى المخاوف والضيق والانقباض والغضب المكتوم والكراهية الشديدة لعدلى، والحقد على زملائه لشعوره بعدم إخلاصهم له، ثم تآمرهم عليه، ولأنهم الاغلبية الساحقة فى الوفد، وفى قدرتهم أن يغلبوه على أمره كلما وقع خلاف وما أكثر وأخطر وجوه الخلاف بينهم هذه الأيام هذا فضلا عن شعوره بالعجز عن إقناعهم والعجز عن تأديبهم والعجز عن التخلص منهم وإذا اشتدت الرغبة فى الانتقام أو الخلاص مع الشعور باشتداد العجز عن إدراكها بلغ البؤس أقصاه، والانفعال أبعد مداه، وتفاقمت الأمراض فى النفس والجسم معا وتضاعف الشقاء بغير أمل فى النجاة أو الشفاء.

فوارحمتاه لهذا الشيخ المتهدم الجليل من كل هذا البلاء وكل هذا الشقاء، فوالله أنى لحزين حزين أشد الحزن لما يلقى من آلام مبرحة فى نفسه فى الخفاء، وقد أصبح يجد بعض التخفيف عن همه الدفين بالفضفضة والافاضة لسكرتيره الخاص الذى لا يملك من الأمر شيئا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مهمة المندوبين الثلاثة: هى التأكد من أن الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعترف بالاستقلال الحقيقى لمصر مع احترام المصالح البريطانية الحقيقية على طريقة لا تمحو ولا تعطل هذا الاستقلال وتجعله حماية مستورة. ثم التأكد كذلك من أن لجنة ملنر تعتبر الوفد نائبا عن الأمة المصرية وليس مجرد «شاهد» فى قضية تحقيق.

سفر عدلى وأعضاء الوفد الثلاثة إلى لندن

فى ٢٣ مايو:

سافر عدلى والأعضاء الثلاثة «عبدالعزيز فهمى ومحمد محمود وعلى ماهر» إلى لندن، وخطر على بال الرئيس بعد سفرهم أن تكون المفاوضة بواسطة قسم من الوفد يتألف من أولئك الثلاثة ومما يرى لزوم انضمامه إليهم من باقى الإخوان، وقد عرض هذا الخاطر على الأعضاء الباقين معه فى باريس فاستحسنوه بعد مناقشة خفيفة - وخشى الرئيس أن يرتبط المندوبون بوعد يبذلونه للجنة ملنر يقضى بحضور جميع الأعضاء للمفاوضة ففكر فى إعداد برقية يرسلها إليهم.

الرئيس سعد يرسم خطة لسير المفاوضات

فى أثناء تناول الشاى قال سائلا راغبا فى معرفة رأيى المتواضع:

«أليس من الحكمة وحسن الاحتياط أن أبقى هنا. وأن يتولى من سافروا (ومن ينضم إليهم من زملائهم إذا اقتضى الحال) الاستمرار فى المفاوضة فيقبلون ما يعلمون من أنه مقبول أو يرفضون ما يعلمون انه غير مقبول ويرجئون موضع الشك إلى ما بعد المراجعة.

وإذا كانت لجنة ملنر لا تتحدث إلا عن نفسها. ولا ترتبط الحكومة البريطانية برأيها فلماذا لا يكون الحال كذلك عندنا. نقسم أنفسنا قسمين:

قسم يفاوض ويجادل

قسم يراقب ويراجع

سيكون القسم الأول تحت تأثير الضيافة والجو والملاطفات.

وسيكون القسم الثانى بعيدا عن كل مؤثر إلا مصلحة مصر وحقها. ما رأيك؟

فاستحسنت الفكرة وقلت: «حبذا لو أمكن تنفيذها على هذا الوجه البديع، ولكن ملنر لن يقبلها لأنه على ما يظهر يريد التفاوض معك شخصيا لانك الزعيم الأوحد البارز الشخصية الذى يتغنى باسمه أهل الريف والحضر فى مصر».

وعند انصرافى أخبرنى الرئيس أن محمد محمود باشا زاره قبيل السفر بيومين وأظهر له لطفاً وعطفا فوق العادة، ومكث طويلا عنده ثم اقترح عليه أن أسافر مع الأعضاء الثلاثة إلى لندن بحجة قوتى فى اللغة العربية والانجليزية فرفض الرئيس هذا الاقتراح وقال إنه فى حاجة إلىّ ولا يمكنه الاستغناء عنى، وسألنى عما إذا كان محمد محمود قد كلمنى فى هذا الموضوع، فقلت له إن هذه أول مرة أسمع كلاما كهذا عن شخصى، وأن محمد محمود باشا لم يخاطبنى قط فى هذا الموضوع ولو كان خاطبنى لرفضت إذ كيف أتركك وأنا الوحيد الذى يطلعك على ما ينشر فى الجرائد الانجليزية اليومية وأعرف باقى مسئولياتى أمامك فابتسم وانشرح صدره.

وفى ٢٤ مايو:

أرسل الرئيس البرقية التى فكر فيها أمس جاء فيها «أنه ليس من الضرورى أن تكون المفاوضة بكل الوفد - وربما حصل الاكتفاء فيها بكم، ومن ينضم إليكم من الباقين هنا ونرجوكم أن يكون هذا ملحوظاً لكم عند المناقشة غداً.

ملنر يرفض مهمة المندوبين الثلاثة
والرئيس يبلغ المندوبين استحالة المفاوضة بعد هذا الرفض

وفى ٢٦ مايو:

ورد تلغراف منهم بأن ملنر لم يقبل أن يتناقش على الأسلوب الذى عرضوه وهو الاستقلال التام. وأن المناقشة تأجلت إلى يوم الخميس.

وفى ٢٧ مايو:

ورد منهم خطاب مؤرخ فى ٢٥، بمضمون ما دار بينهم وبين ملنر، وملخصه أنه يريد الوصول إلى طريقة تعمل فيها بريطانيا بالاشتراك مع مصر لترقية شئون مصر، وأنهم اعترضوا عليه بأن هذا لا يتفق مع توكيلهم، وأن الوفد يستحيل عليه أن يؤيد اتفاقا خارجا عن حدود هذا التوكيل ومع أنهم أكدوا له بأن المناقشة ستكون سرية على أساس الاستقلال مع ضمان المصالح البريطانية وعدم الاتفاق مع أية دولة أجنبية اتفاقا من شأنه أن يضر بمصالحها لم يقبل المناقشة على الأساس المذكور.

فرد الرئيس فورا بخطاب (مستعجل) بأنه مادام الأمر كذلك ولم يحصل التأكد من استعداد الحكومة البريطانية لقبول مطلب مصر فى الاستقلال التام فلا يمكن المفاوضة معه بواسطة الوفد كله أو بعضه.

المندوبون يرفضون خطة الرئيس

وفى المساء وردت منهم برقية جاء فيها أنهم أجلوا المفاوضة لعدم استحسانهم فكرة تقسيم الوفد وزعموا أن مثل هذا التقسيم لم يسبق له نظير فى المفاوضات، ولعدم قبول ملنر له.

فرد الرئيس عليهم فورا فى نفس المساء ببرقية جاء فيها أن التقسيم لم يدع إليه إلا شدة الاحتياط، وتطمين آلامه، ولا بدعة فيه، وطبيعة المفاوضات تقتضيه، ولا شأن للطرف الآخر فى أمره، هذا مع العلم بأن التقسيم متعلق بالمفاوضة التى لم يأت بعد وقتها، ولم يكن فى محادثاتهم مع ملنر ما يشجع على دخولها.

الرئيس يعارض فى السفر إلى لندن

وفى ٢٨ مايو:

أرسل المندوبون الثلاثة خطابا إلى الرئيس يلحون فيه كل الإلحاح على الوفد بأن يحضر إلى لندن للدخول فى المفاوضة.

ويلقون عليه مسئولية كبرى إذا هو تخلف عنها حتى على فرض أنهم لم يحصلوا من لورد ملنر على تصريح آخر ويقولون إنهم يعتبرون أن ما صدر لهم من ملنر كاف للدخول فى المفاوضة معه، وأن رفض المفاوضة يسىء إلى سمعة الوفد أمام الرأى العام الانجليزى وأمام الأمة المصرية وقالوا إن عدلى باشا أبلغهم بأن لورد ملنر صرح له صباح اليوم بأنه ليس لانجلترا مصالح تتعارض مع استقلال مصر أو أنه لا يدعو الوفد ولا يعتبره «شاهدا» فى قضية تحقيق وإنما بصفته ممثل الاكثرية فى مصر وأن ملنر يود الاتفاق مع الوفد لأن فى هذا الاتفاق حلاً للمسألة المصرية وأن هذا الاتفاق ميسور»..

انتهى، وصل هذا الخطاب فى مساء ٢٩ مايو، بعد أن كان الرئيس فى صباح اليوم نفسه ٢٩ مايو قد عقد جلسة للوفد وكلف لطفى السيد أن يكتب خطابا للمندوبين الثلاثة بلندن فى معنى أن ملنر لم يأت بجديد فى حديثه معهم حتى الآن وأنهم وقفوا على استعداد الحكومة البريطانية بالنسبة للمسألتين اللتين حددهما الوفد كمهمة للمندوبين وهما:

١- إلغاء الحماية وإعلان الاستقلال

٢- جلاء جيش الاحتلال عن مصر.

فكتب لطفى السيد الخطاب المطلوب وعاد إلى هذه الجلسة الصباحية وقرأه على الأعضاء وفيه عبارة (وانكم مع البراعة التى استعملتوها لم تفوزوا بطائل) فقال الرئيس (إنها لمصيبة أن أريد المدح فأذم) ثم اقترح تعديلها بعبارة أخرى من عندياته فلم يكتب لطفى السيد التعديل المقترح وظهر عليه ما شبه الغضب. فانفعل الرئيس وقال له (مالك تغضب كلما اردت تغيير شىء من كلامك أو كتابتك، كلنا يعلم أنك أقدرنا على التحرير. ولكن تعديل شىء فى عبارتك ليس فيه ما يحملك على الغضب وإذا كنت لا تريد أن تكتب فأنى اكتب بنفسى) فمزق لطفى السيد ما كتبه وخرج إلى القاعة المجاورة محنقا فأملانى الرئيس ما أراد

وقرأه على الأعضاء فأقروه وأمضاه الرئيس. ولما عاد لطفى السيد إلى الجلسة استعطفه الرئيس بكلمات طيبة فأظهر ارتياحه، ولكن عند انصرافه ظهر منه ما يدل على استمرار تأثره وتألمه، وبعد انصراف الأعضاء من جلسة الصباح هذه قال لى الرئيس:

(عندما تلاحظ اجتماعنا هنا على خلو كلام ملنر مما يرضى أو يبرر دخولنا فى المفاوضات معه، وإجماع المندوبين الثلاثة هناك على التفاؤل تحكم بأن قرار التقسيم كان قرارا حكيما، والله يدبر لنا خير الوسائط ويعصمنا من الخطأ)

كان هذا فى صباح ٢٩ مايو.

وانصرف سعد وإخوانه وهم لا يعرفون ما يدخره وما يحمله مساء اليوم.

إذ فى مساء اليوم نفسه ٢٩ مايو أى (قبل أن يصل إلى المندوبين خطاب الصباح) ورد خطابهم الذى بحثته تفصيلا آنفا (وهو المؤرخ ٢٨ مايو) وقد وقع على سعد وقوع الصاعقة وسبب لى آلاما نفسية عنيفة.

ولاشك عندى فى أن خطاب الصباح الذى أرسله الرئيس إلى المندوبين الثلاثة، فى لندن سيقع عليهم عند وصوله وقوع الصاعقة كذلك وسيسبب لهم آلاما نفسية عنيفة.

والخلاصة:

١- أن الرئيس وصحبه فى باريس يرون أن المندوبين الثلاثة لم يوفقوا مع ملنر وأنه لا داعى للبدء فى المفاوضات أو حتى فى استمرار المحادثات، واعترض الرئيس بأنه لن يسافر إلى لندن إذ لا مبرر لذلك.

٢- وأن المندوبين الثلاثة يلحون على الرئيس وزملائه بالحضور فورا إلى لندن للمفاوضة ويلقون عليه مسئولية كبرى إذا هو وزملاؤه تخلفوا ولم يستجيبوا لإلحاحهم.

المندوبون يتخذون قرارا حاسما

فى ٣٠ مايو:

ورد تلغراف بالشفرة من محمد محمود يقول فيه إنهم أجلوا المفاوضة والاتصال بلجنة ملنر حتى يحضر الوفد كله إلى لندن وأنهم لا يوافقون على تقسيم الوفد إلى قسمين: قسم يفاوض وقسم يراجع. وقالوا إن هذا التقسيم غير مقبول، فقال الرئيس إن هذا التلغراف جاف يدل دلالة ظاهرة على تأثر مرسليه تأثرا حملهم على كتابته بلهجة غير لائقة ثم تأثر الرئيس لهذه المعاملة ولم يعرف لها سبباً.

ولكن السبب عندى واضح كالشمس فى رائعة النهار، ملنر يريد أن يتفاوض مع الرئيس سعد شخصيا ولا يوافق على هذا التقسيم، فكيف يمكن أن يستمر المندوبون الثلاثة فى مفاوضة مع ملنر وهو لا يريدهم ولكنه يريد سعد صاحب النفوذ الهائل على مصر والمصريين.

وفى أثناء الشاى قال لى الرئيس فى براءة عجيبة أو سذاجة رائعة:

«إن كل ما كتبناه إليهم كان فى غاية الاعتدال، وعلى فرض أن هناك خطأ فى فكرة التقسيم فإنه لا يترتب على ذلك تأجيل العمل لأن التقسيم مسألة داخلية بحتة، ولا اختلاف بيننا على المبادئ الكبرى، فما بالهم يغضبون كل هذا الغضب، وليس هناك شىء يمس أشخاصهم».

فقلت له: «لعل ملنر أظهر عدم الرضا عن إستمرار اتصاله بهم والمفاوضة معهم وأنه هو الذى أجل كل اتصال وكل مفاوضة حتى تذهب أنت إلى لندن وهم لا يريدون أن يعترفوا أو يسجلوا ذلك كتابة».

فقال الرئيس: «أغلب الظن أن كلامك هذا صحيح».

وفى المساء جاءت منهم برقية حاسمة غيرت الموقف كله وقلبته رأسا على عقب، قالوا فى البرقية: «إنهم قطعوا عهدا للجنة ملنر بأن الوفد كله يحضر للمفاوضة» فلا مندوحة إذن من السفر رضى الرئيس بذلك أو لم يرض.

وكانت هذه هزيمة ثانية للرئيس بعد هزيمته الأولى بشأن صيغة الدعوة ونشرها بعد تعديلها والهزائم لا يتلقاها الإنسان إلا فى شىء من المرارة والألم لما تحمله من خيبة الأمل العزيز.

الرئيس يخضع للأمر الواقع فى كمد

دعا الرئيس إلى مسكنه أعضاء الوفد الموجودين معه فى باريس وأبلغهم بأن المندوبين الثلاثة وعدوا ملنر بسفر جميع أعضاء الوفد إلى لندن للمفاوضة ثم قال لهم:

«إنى لست مرتاحا إلى سفرنا جميعا إلى لندن لأنى كما سبق أن بينت لكم أعتقد أن المفاوضة إنما هى للضرورة، والضرورات تقدر بقدرها وظروفها تلك الضرورة هى الخروج من عهدة المسئولية التى ألقتها ظروف الحال علينا وقطع ألسنة اللائمين، والبعد عن مواطن الندم، ولكيلا يكون للانجليز حجة علينا فى إبان المفاوضة والتفاهم معهم على تحقيق آمالنا.

برقية من مصر

ورد تلغراف من محمود باشا سليمان (رئيس اللجنة المركزية للوفد) بعد ظهر اليوم تضمن الدعاء فى المساجد والبيع بالنجاح فى المفاوضات: وقد أنعش هذا التلغراف سعد انعاشا كبيرا.

الدعاء «اللهم بارك للوفد فى أعماله ونجح المفاوضات للوصول إلى الاستقلال التام، فى الله رجاؤنا وفى الحق قوتنا، تعالى الله عن الانتهاء، وجل الحق عن الفناء».

فما قرأ الرئيس سعد هذه البرقية بهذا الدعاء حتى دمعت عيناه دمعة

السرور واندفق فى قلبه دافق من الطرب، وتمثل فى خاطره اتحاد تلك القلوب المصرية الخافقة بالوطنية، وتصاعد تلك الأصوات الصاعدة بذلك الدعاء الطاهر، وقال لى:

«ما شاء الله، كلمة واحدة منا كفت لعقد تلك الاجتماعات، التواصل إلى الله بتلك التضرعات، ثقة ما أوفاها، ومنزلة ما أعلاها، ثقة لا يقوم بشكرها إلا تحقيقها، ومنزلة لا يستبقيها إلا النفس تفديها».

ثم دمعت عيناه مرة ثانية وقال: «مادامت هذه الثقة كاملة، وهذه القوة من ورائنا شاملة فلا حرج علينا أن نذهب إلى لندن، وأن ندخل فى المفاوضات فإن وصلنا منها إلى غايتنا فيها ونعمت وإلا فواجب قضيناه وعهدة خرجنا منها، وندم تفاديناه، ولوم بعدنا عنه».

هذا وقد أمرنى الرئيس أن أرسل نص هذا التلغراف إلى المندوبين الثلاثة فى لندن بعد أن أرفق به خطابا منه تضمن سروره به وتشجيعه له على الدخول فى المفاوضة وأبلغهم كذلك أنه قرر السفر إلى لندن فى يوم السبت ٥ يونيو وبرفقته بقية الزملاء فأرسلت الخطاب والتلغراف معا.

خطة جديدة للمفاوضات

فى أول يونيو:

قال لى الرئيس:

«لقد فكرت طويلا فى أن الأمل فى نجاح قضيتنا كما هى أى تحقيق الاستقلال التام غير ميسور، فالأجدر بنا والأحكم أن نأخذ من ملنر ولا نعطيه، وأحسن الطرق أن نسأله عن المصالح البريطانية التى يريد أن يوفق بينها وبين أمانى مصر فى الاستقلال التام، والضمانات التى يطلبها لتلك المصالح، ولقد أخبرت إخوانى أن المفاوضة مع ملنر ليست فى الحقيقة مفاوضة بالمعنى المعروف

وإنما هى بالتحقيق أقرب، وأنها تنتهى بتقديم تقرير لجنة ملنر إلى الحكومة البريطانية لا باتفاق يعقد معنا، وحفظا لهيبة الوفد وكرامته، ولئلا يثقل عليه قطع المفاوضة من غير طائل،

يبقى قسم فى باريس، وقسم فى لندن، لقد قلت لهم كل هذا وذكرته، ولكن..

وهنا سكت الرئيس دقيقة ثم قال: «يحزننى أن ألاحظ أن حب الظهور له تأثير كبير فى آرائهم، وأن لطفى السيد على اتصال يومى بمحمد محمود فى لندن، ومهما يكن من أمرهم، فقد أخلصت لهم نفسى وصرحت لهم بما يعالج صدرى إبراء للذمة، وخروجا من العهدة أمامهم والله يتولى أمرى وأمرهم».

وفى مساء اليوم نفسه دعا الرئيس زملاءه للاجتماع به فى مسكنه فحضروا جميعا: لطفى السيد ومحمد على علوبة وواصف غالى وحمد الباسل، والمكباتى وسينوت حنا، وتباحثوا فى هذا الاجتماع وفى جو هادىء ما عسى أن يطلبه ملنر من الوفد فى هذه المفاوضات فأخذ كل واحد من الأعضاء يتنبأ ويخمن، وفيما يلى طائفة مما توقموا أن يطلبه الانجليز من الوفد:

١- أن تضمن بريطانيا استقلال مصر وحدودها

٢- ألا يكون لمصر ممثلون فى الخارج

٣- ألا تعقد مصر معاهدات مع أية دولة أجنبية أخرى

٤- أن تحتل الجيوش الانجليزية بعض المواقع خصوصا فى منطقة قناة السويس.

٥ - أن يبقى السودان كما هو: شركة بين مصر وبريطانيا مع ضمان ورود الماء الكافى لمصر.

٦- أن تقبل مصر أن تنوب بريطانيا عن باقى الدول فى حق التشريع والضرائب وغيرها من الامتيازات.

٧- أن يكون لبريطانيا نوع من الرقابة على المالية المصرية.

٨- ألا تستخدم مصر خبراء أجانب إلا من الانجليز.

٩- يبقى الموظفون الانجليز الحاليون فى وظائفهم فى الحكومة المصرية.

١٠ - انحصار الملك فى السلطان فؤاد وذريته

١١ - أن يكون لبريطانيا مندوب سام فى مصر.

١٢ - لا يعدل نظام مصر الأساسى إلا بموافقة بريطانيا

وأخذوا يتبادلون الآراء فى جو هادئ جدا فى ماذا يقبل منها وماذا يرفض، ولم تؤخذ الآراء، وإنما كانت كلها مسائل تحت النظر وموضع التفكير والمناقشة، وأذكر أن الرئيس قال: «يجب أن نعرف مقومات الحماية وصفاتها اللازمة لها فعلا، وأن نعرف مقاومات الاستقلال ومستلزماته الحتمية وأن معظم هذه المسائل التى ذكرت هى الحماية ولا يمكن بحال من الأحوال أن يوافق الوفد على شىء منها».

سعد يقرر السفر إلى لندن

وفى ٢ يونيو:

ورد من المندوبين الثلاثة خطاب أظهروا فيه اغتباطهم بقرار الرئيس سعد بالحضور إلى لندن يوم ٥ يونيو، وقالوا إن ملنر أكد عبارة «أن المصالح البريطانية ليست متعارضة مع استقلال مصر» وصرح بأنه متفائل من نتيجة المفاوضات المقبلة».

وأرسل الرئيس تلغرافا إلى محمود باشا سليمان رئيس لجنة الوفد المركزية هذا نصه:

«لاقى زملاؤنا فى لندن قبولا حسنا، وتلقوا من التأكيدات ما يبعث الأمل فى الوصول بالمفاوضة إلى حل مرض، ولهذا عزمنا أن نتوجه إليهم بحول الله يوم السبت القادم للدخول فيها، مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أبنائها والحجة من وضوح الحق، والمعونة من الله نصير الضعفاء».

وفى ٣ يونيو

ظهرت مقالة فى جريدة التيمس الصادرة أمس جاء فيها «ان زغلول تنازل عن تشبثه وعدل عن خطته بفضل مساعى عدلى، وأن اللجنة المركزية فى مصر منقسمة على نفسها من أجل المفاوضة». فغضب الرئيس وثار من أجل هذه المقالة.. فقلت فى نفسى أول الغيث قطرة ثم ينهمر.

الأزمة النفسية العنيفة الثالثة

قال لى الرئيس اليوم أثناء تناول الشاى معه بعد ظهر اليوم:

«إننى كلما فكرت فى قرب انتقالنا جميعا إلى لندن ضاق صدرى، وكلما تصورت عدلى وتدخله مع الأعضاء شعرت بنفور شديد منه، وامتلأت بسوء الظن وخيبة الأمل وقد بدأت أشعر من يوم قدومه بأنى أصبحت بين أعضاء الوفد غريبا لا رئيسا، ويخيل إلىّ أن الحسد يأكل قلوبهم، وحب الشهرة يفعم صدورهم، وهم جميعا لا يستطيعون أن يتركوا فرصة تمر إلا انتهزوها للتظاهر وأرى أن من المفيد جدا أن أقلل بقدر الإمكان من الاجتماع بهم، ومن الكلام معهم والا أطلعهم من أفكارى إلا على ما يمنعهم من الانحراف عن طريق الرشاد، وأنى افتش نفسى فلا أجد فيها ميلا إلى عظمة أو رغبة فى علو عدد غير قومى، بل إنى لا اجد أى علو فى غير وطنى إلا تسفلاً وانحطاطا أما الفخر الذى انشده فهو الوفاء بعهدى لأمتى، والسجن أحب إلى من أن أكون للاعداء وليا، اسأل الله أن يبارك لى فى هذا الشعور والإيمان وأن يعصمنى على الدوام من خطرات الوهم وسقطات اللسان».

خيل إلىّ أن هذه كلمات فيها دموع ونفسية تقطر دما، كيف يمكن أن يقلل اجتماعه بهم والكلام معهم؟ إنه اليأس لقد عاد إلى الرئيس وجومه وسهومه وسهاده وضيقه وانفتاحه وقنوطه وسكوته أزمة نفسية حادة يصاحبها أرق ومخاوف وتشاؤم وأمراض

جسيمة هدامة.. كل هذا يعانيه هذا الشيخ الزعيم الوطنى المتهدم وهو على أهبة السفر إلى بلاد الأعداء الألداء لا للنزهة ولكن للقيام بعمل شاق إليم، إنه يعيش فى جو مهموم محموم مسموم تؤرقه وتهزه هزا عنيفا انفعالات نفسية قاسية هدامة: سببها الأكبر الأصيل عدم اطمئنانه إلى زملائه وانعدام الثقة بينه وبينهم ثم سير زملائه فى ركاب عدلى الذى لا يؤمن بالاستقلال التام ثم شعوره بالعجز الكامل عن إصلاح الحال فهو وحيد، وشاعر بأنه يعيش فى عزلة كريهة، بل فيما هو شر من العزلة الكريهة إنه يعيش مع «الشريك المخالف المناكف المشاكس» وسيفاوض «العدو اللدود القوى الطامع المسلح» وهو الأعزل من كل سلاح سوى سلاح الإيمان بنبل غايته وكرامة أمته.

وفى يوم السبت ٥ يونيو ١٩٢٠:

وفى الساعة التاسعة صباحا سافرنا جميعا إلى لندن (الرئيس والأعضاء الباقون معه فى باريس) واستقبلنا فى محطة فكتوريا الطلبة المصريون بالأعلام والهتافات فى حماسة عظيمة مدوية، وفى وسط الزحام الهائل كان المندوبون الثلاثة محمد محمود وعبدالعزيز فهمى وعلى ماهر ولم يحضر عدلى وأرسل ملنر مندوبا لتحية الرئيس نيابة عنه.

وكان وصولنا إلى محطة فكتوريا حوالى الساعة السابعة مساء وفى حوالى الساعة الثامنة مساء حضر عدلى والمندوبون الثلاثة للاجتماع بالرئيس فى غرفته فى فندق كارلتون ساعة كاملة ثم انصرفوا من عنده ليستريح. وبعد انصرافهم أخبرنى أن الحديث معهم لم يسفر عن جديد.. وكانوا يتكلمون وهو يستمع وبعد الانصراف عاد عدلى وأخبر الرئيس أن ملنر يريد مقابلته فى منزله غدا الأحد يوم ٦ يونيو الساعة العاشرة والنصف صباحا واتفقا على أن يحضر عدلى لاصطحابه فى الساعة العاشرة غدا.

انتهى الجزء الأول.

الفهرس

بطاقة الفهرسة

سليم ، محمد كامل

أسرار ثورة ١٩١٩: يرويها

سكرتير سعد زغلول / محمد كامل سليم

- القاهرة : دار أخبار اليوم ، ٢٠١٩

٢٤٠ ص ٢٠ سم . - (كتاب اليوم)

تدمك :٠- ١٨٠٦ - ٠٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ- العنوان

٩٦٢-٠٤٨

رقم الإيداع: 2019/4755

الترقيم الدولى I. S. B. N

978 - 977 - 08 - 1806- 0

السعر
٢٥جنيهاً

94
6 222007 800184